@ketab_n
Follow Me
17.5.2016

ديستوفيسكي

في سردابي

ترجمة: عبد المعين الملوحي

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

دوستويفسكي

في سرداب

ترجمة

عبد المعين الملوحي

صدر في حمص عام 1956

Twitter: @ketab_n

في سردابي

Twitter: @ketab_n

عنوان الكتـــاب: في سردابي
اسـم المؤلــف: دوستويفسكي
الموضـــوع: قصص
تـرجمـــة: عبد المعين الملوحي
عدد الصفحات: 208 ص
القيـــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ
ISBN: 978 - 9933 - 536 - 27 - 5

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتـف: +963 11 2326985
E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @ketab_n

الإهداء

إلى الذين خرجوا من سراويبهم المظلمة
إلى نور النهار ورحاب الأرض
وهم الآن يمدّون أيديهم
ليُخرِجُوا شعوبهم
من سراويبها
أهدي هذا الكتاب

حمص في 1956/9/25
عبد المعين الملوحي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تمهيد

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين كانت الأرض تهتزّ تحت أقدام الشعوب التي استيقظت على فجر الحرية والاستقلال، وتميد تحت مطارق الطبقة العاملة الجديدة التي عرفت أن لها ما تحت الأرض من مناجم، وما فوق الأرض من معامل، وحين كانت قصور الملوك والطغاة تتزلزل على أيدي الأمم التي أدركت أنها هي التي تصنع تاريخها ومستقبلها وترتعد على شفار مناجل الفلاحين الذين أدركوا أن لهم ما على الأرض من خيرات، وما يستنبتونه من بطونها من ثروات، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي شهد الحركات القومية العنيفة في أوروبا، والوحدة الألمانية والإيطالية، كما شهد ثورة «الكومون» في فرنسا، والذي تقف قدماه على أعتاب الحركات القومية العنيفة في آسيا، ونهضة اليابان وثورة الصين كما تقف قدماه على أعتاب الثورة «الاشتراكية» في روسيا، في هذا النصف الذي كان يندفع اندفاع الآتي الجارف نحو عالم من النور يؤمن به إيماناً، ويراه رَأْيَ العين، يغمر المدن ثم لا يستطيع دخان المعامل أن يحول بينهما، والقرى ثم لا تستطيع سياط السادة أن تمنع فيضه عليها، في هذا العهد صوّر لنا كان دوستويفسكي «بطل» هذا الكتاب إنساناً قابعاً في سردابه

Twitter: @ketab_n

يلعن النور ويبارك الظلام، وينكر سعي الإنسان نحو عالم أفضل ويمجّد استمراره في حياته العفنة وعالمه القذر، ويشكّ في الخير ويؤمن بالشر.

دوستويفسكي الذي قضى عشر سنوات في منفاه في سيبيريا والذي كاد يُعْدَمُ ثم نجا من الموت قبل الموت بلحظات، هذا الكاتب العظيم الذي أحبّ الحرية السياسية في شبابه وناضل من أجلها في فجر حياته سرعان ما انقلب على هذه الحرية لا ليكون لها عدواً فحسب بل ليشكك الناس في أمرها ويدعوهم إلى الكفر بها والسخرية منها، ويدفعهم إلى فردية جامحة شاذة. وهو في «سردابه» هذا يعرض آراءه في الحياة والموت، والخير والشر والحرب والسلام، يعرضها عرضاً فنياً رائعاً، وهو يتكهن في كتابه بالثورة الروسية التي بدت طلائعها في الأفق تخبّ خبباً، فَتُخِيْفُ أعداء الحرية فينجحرون في سراديبهم، ويخدعون أنفسهم فيقولون: إنها ليست إلا وهماً وباطلاً وقبض الريح، ثم يكبّون على مناضدهم مذعورين خائفين يكتبون الكتب في هجائها، ويستبشر بها أبناء الحرية فيبرزون من مناجمهم ثائرين، وينصبون ظهورهم من فوق محاريثهم غاضبين، ويتطلعون إليها فرحين مستبشرين ويقولون: إنها الوعد الحق وصدق المرسلون؛ إنها قبض التراب ملء الكف ثم يفتحون صدورهم إليها ويُغنّون أناشيدها.

ولقد ترجمت هذا الكتاب على ما فيه من شكوك وريب وتشاؤم، ذلك لأني أعتقد أن أكثر المثقفين في بلادنا يمرّون بهذه المرحلة من التطوّر الفكري والتعقيد النفسي لا يعرفون فيها أنفسهم أو لا يكادون يعرفونها، فهم يتخبّطون في سراديبهم تَخَبُّطَ دوستويفسكي في سردابه، ولعل كل واحد منا نحن الذين عرفنا ما في حياتنا السردابية القديمة من عفن قد

Twitter: @ketab_n

مررنا بهذه الحياة ثم دسناها بأقدامنا وشققنا في قلب الصخور والأشواك: طريق الحرية والسعادة والخير. ولعل إخواننا الذين مايزالون يتخبطون فيما تخبطنا فيه أو أبناءنا الذين سيعيشون في السراديب التي عشنا فيها، لعلهم جميعاً حين يتلون هذا الكتاب يكشفون أنفسهم ويعرضونها للنور ويقارنون بين أحداث تلك الحياة السردابية المظلمة المعقدة الفردية وبين أحداث هذه الحياة الحقيقية فوق ظهر الأرض، هذه الحياة التي عبدتها أقدام شعوب كبيرة، عزيزة، حرة، هي اليوم نصف شعوب العالم عدداً أو تزيد، أجل لعلهم عندما يرون حياتهم: حياة البؤساء المحرومين العبيد وحياة الناس السعداء الممتعين الأحرار، لعلهم عند ذلك يهجرون سراديبهم إلى الأرض الرحبة الفسيحة، هذه الأرض التي سبّح بمجدها نشيد باصيل بوسلاييف حين قال:

ألا لو كنت أكثر قوّةً
لأذبت الثلج بأنفاسي الحارة،
ولَطَوَّفت حول الأرض وحرثتها حرثاً،
ولمشيت قرناً كاملاً وبنيت مدناً،
ولَشُدّتُ كنائس وأنشأت حدائق في كلّ مكان،
ولزيّنت الأرض كما تتزيّن الصبيّة،
ولضممتها فوق قلبي كما أضم العروس؛
ثمّ رفعتها إلى صدري
رفعتها وحملتها إلى الله،

وأنا أقول له:

Twitter: @ketab_n

- انظر يا رب قليلاً كيف أصبحت الأرض،
كيف جمّلها باصيل فأحسن تجميلها؛
لقد رميت بها في السموات صخرةً صماء،
فانظر إليها الآن وابتهج بها:
إنّها تلمع تحت أشعة الشمس خضراء زاهية؛
وددت يا رب أن أقدّمها إليك هديّة،
ولكنها غالية عليّ فأنا أحبها حباً جماً.

هذه الأرض العظيمة الجميلة هي التي فرّ منها دوستويفسكي إلى سردابه، فأحسن إلينا وإلى الأدب معاً. أحسن إلينا لأنه استطاع أن يعبّر تعبيراً صادقاً ما بعده صدق، دقيقاً ليس وراءه دقّة، عن جوانب سحيقة عميقة في أنفسنا عشناها أمداً طويلاً قبل أن نتخلّص منها، ومانزال نعيش بعضها - ويا للأسف - حتى اليوم في بعض الأحيان، ولعلّ في هذا الكشف ما يساعدنا على تحرير أنفسنا من الظلمات، وأحسن إلى الأدب لأنه عرض علينا عرضاً فنياً راقياً نموذجاً من هذه النفوس الشقية التي تحب أن تعيش فلا تستطيع أن تعيش، لأن مجتمعها، مجتمعها المتفسخ القاسي العتيق قد حكم عليها أن تضيع في التيه أربعين عاماً، تحملها الغربان على أجنحتها السود من ظلام الرحم إلى ظلام القبر، ثم هي بعد ذلك راضية بهذه الظلمة راغبة فيها، داعية الناس إليها.

ولعلّ هذا النموذج الرائع الذي يمثل تمام التمثيل نفساً من النفوس في عصر من العصور سينقرض عمّا قريب، كما انقرضت القردة أجداد الإنسان، ليبقى الإنسان وحده.

Twitter: @ketab_n

وأحب أن أشير إلى أن في هذا الكتاب براعم وجودية سارتر وبواكير فلسفته ولاسيما في الفصلين السابع والثامن.

ومسألة أخرى أريد أن أذكرها فأقرر أن هذا الكتاب أرقى كتب دوستويفسكي فناً وأكثرها تعقيداً، وأبعدها غوراً، وأن ترجمته كلّفتني عناءً غير قليل وجهداً غير يسير، وأرجو أن أكون صادقاً حين أؤكّد أن الترجمة صادقة صدقاً تاماً في أفكارها ومعانيها وعربية سليمة في لغتها وأسلوبها.

ستقرأ هذا الكتاب وسيسحرك حتماً، ولكني أرجو أن تسرع فتنجو مما في أدبه وفنه من سحر: في وصف الطفل وهو يرضع ثدي أمه، وفي وصف صاحب السرداب وهو يدعو مومساً إلى التوبة، وفي نقاط لا تنتهي من التحليل النفسي والنوبات العصبية، أرجو أن تسرع فتنجو بنفسك مما في هذا السرداب الرطب العفن من استسلام وكلام، إلى ما في الحياة من نضال، وإلى ما على ظهر الأرض من عمل، أن تسرع فتنجو مما في المذكّرات التي كتبت في سرداب من نذالة وانحلال إلى ما في المذكّرات التي كُتِبَتْ «تحت أعواد المشنقة»[1] من رجولة وبطولة.

حمص في 1956/9/25

عبد المعين الملوحي

من رابطة الكتّاب العرب

---

1 - كتب يوليوس فوتشيك: طبع دار القلم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في سردابي

هذه «ذكريات» وهذا مؤلفها، أمّا «الذكريات» نفسها فمُتَخَيَّلَةٌ. وأما الكائنات من أمثال خالق هذه الصفحات، فليست ممكنة الوجود بيننا فحسب، بل إنها يجب أن تكون موجودة، نظراً لهذه الشروط التي تسود تكوين مجتمعنا الحاضر. لقد أردت أن أبيّن للناس في قوة لم يتعودوها، مزية من مزايا هذا العصر، وهذا «المؤلف» واحد من أولئك الذين يمثلون الجيل الذي يعيش بعد موته. وفي القسم الذي عنوانه «السراديب» يبدو لنا هذا الشخص، ويعبر عن معتقداته، ويحاول أن يوضح لنا علل وجوده، وولادته المحتومة في محيطنا، والقسم الثاني من الكتاب يعرض «الذكريات» الحقيقية لبعض الأحداث التي طرأت على حياة هذا الرجل.

فيدور دوستويفسكي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(1)

أنا مريض... أنا رجل خبيث. ليس بي ما يغري. أعتقد أني مكبود، ولكني لا أفهم شيئاً ما عن مرضي، ولا أعرف على التحديد أين موضع وجعي. ثم إني لا أعنى بهذا المرض ولا أداويه، ولم أعن به قط رغم أني أحترم الطب والأطباء. وأنا متطيّر إلى أقصى حد، موسوس إلى درجة تكفي لاحترام الأطباء (وأراني مثقفاً ثقافة لا تجيز لي أن أكون متطيّراً ولا موسوساً ومع ذلك فأنا كذلك). كلا أنا لا أعالج مرضي لأني خبيث، ومن المؤكد أنكم لا تتنزلون فتفهمون هذا الأمر أما أنا فأفهمه.

الحق أني لا أستطيع أن أعيّن لكم من ذا الذي أضيره بخبثي، وأعلم علم اليقين أني لا أسيء إلى الأطباء حين أرفض استشارتهم، بل أنا أعرف أكثر مما يعرف الناس جميعاً أعرف أني، وأنا أقوم بما أقوم به، لا أضرّ إلا نفسي. إذن فإنا لا أعنى بصحتي يدفعني إلى ذلك خبث صريح. أنا مكبود. فيا كبدي القرحى كوني غداً أكثر إيلاماً وإيجاعاً لي من اليوم.

منذ زمن طويل أحيا حياتي هذه، أحياها منذ عشرين عاماً. أنا الآن في الأربعين من عمري. كنت موظّفاً ولست اليوم بموظّف، وكنت موظّفاً شريراً، وكنت فظّاً غليظاً، وكان يسرّني أن أكون كذلك. وكنت لا أقبل الرشوة، ففي ردّي لها على الأقل ما يؤذيني ويضرّ بمصلحتي (يا لها من سخرية

Twitter: @ketab_n

غثّةٍ، ولكنّها لن تفوتني، لقد كتبتها، وأنا أظنّ أن الكلمة حاسمة، وعندما أرى أنّي أرغب في حمل نفسي على ما هو قبيح، أترك هذه الكلمة عامداً).

كنت إذا اقترب المراجعون من منضدتي يطلبون أمراً أصرف بأسناني، فإذا استطعت إهانة واحد منهم شعرت بفرح ليس عليه من مزيد؛ وعددت ذلك نجاحاً لي، ولطالما نجحت. وكان هؤلاء المراجعون في أكثر الأحيان ذوي حياء، والمراجعون عادةً من نوع معروف، ومع ذلك فقد رأيت في ذوي العناد منهم ضابطاً كنت له أكثر مقاومةً وأشدّ إغاظة؛ كان لا يريد الخضوع مهما كلّفه الأمر، وكان يثير بسيفه ضوضاء مزعجة، وامتدّت المعركة بيننا واحتلمت ثمانية عشر شهراً، من أجل هذا السيف، وأخيراً تمّ لي النصر، وظلّ السيف في غمده صامتاً هادئاً.

كلّ ذلك كان في أيّام الشباب.

ولكن هل تعرفون يا سادتي المظهر الأساسي لما في نفسي من خبث. إن مظهره الحقير يكمن في أني، وأنا في أشد لحظات غضبي عصفاً أشعر شعوراً مُخجِلاً أن ليس بي من خبث ولا شر، وأن غضبي نفسه ليس له وجود، أنا لا أُخِيفُ إلا العصافير وفي هذا ما يسلّيني.

الزبد يتدفّق من شدقي، ولكن هات لي لعبة أو دمية، قدّم إليّ فنجان شاي فيه سكر، أهدأ وأسكن، بل ربما شعرت بالشفقة والحنان. وليس هذا الخلق بمانع لي من أن أقضم نفسي، وأنا ناقم عليها، لوماً وخجلاً، ومن أن أبقى شهوراً طوالاً أشكو الأرق، ولكن هكذا خلقت.

كلا... لقد كذبت حين ادّعيت أنّي موظف شرير، وما سبب كذبي إلا غضبي. كنت أحاول في كلّ بساطةٍ أن أتسلّى بالمراجعين وبذلك الضابط، ولكنّي لم أستطع قطُّ أن أكون شريراً حقاً، ذلك أني أشعر في كلّ

Twitter: @ketab_n

اندفاعةٍ من اندفاعات خبثي بطائفةٍ مختلطةٍ من عناصر تتعارض في نفسي وتزدحم، أشعر بهذه العناصر وقد استحالت قرية من قرىٰ النحل تأكل كياني، وأعرف أنها تختلج وتتحرك وهي في حاجة إلىٰ أن تنفجر في خارج هذه النفس، ولكني أضبطها وأمسك بها فلا أتيح لها أن تنفجر، وأحول دون فرارها في عزم وتصميم؛ وهي ما تزال تعذبني وتخجلني، وهي ما تزال تهزّني هزّاً. آه كم أزعجتني وكم آلمتني. ولكن لا تحسبوا أني أتوب لكم من ذنب، وأستغفركم من مأثم. نعم إنكم ستظنون ذلك حقاً؛ ومع ذلك فليس يهمني كثيراً ما تظنّون وما لا تظنّون.

أنا لم أستطع أن أكون شيئاً ما، حتىٰ ولا أن أكون خبيثاً. لا شريراً ولا طيباً، ولا نذلاً ولا شريفاً، لا بطلاً ولا دودةً. وأنا الآن أنهي في هذا الحجر حياتي، ولي غذاء في عزاء لا يجدي: هو أن أعلم علم اليقين أنّ الذكيّ لا ينجح، ولا يكون شيئاً مذكوراً، وأنّ الغبي وحده هو الذي يبلغ ما يريد.

نعم. إنّ رجل القرن التاسع عشر يجب عليه أن يكون، ويا للأسف، بل يجد نفسه من الناحية الأخلاقية، مضطراً إلىٰ أن يكون خلواً من كلّ سجيّة، صفراً من كلّ خليقة. أمّا من له هذه السجيّة، أمّا الرجل العملي، فمخلوق محدود. لقد غَرَسَتْ سني الأربعون هذه القناعة في نفسي.

ذلك أنّي في الأربعين من عمري، أوليست الأربعون كلّ الحياة؟ أوليست وراءها الشيخوخة كلّ الشيخوخة؟ حقاً إنّك إن تعش أكثر من أربعين عاماً تفعل ما لا يليق، وترتكب عملاً غير أخلاقي، عملاً نذلاً حقيراً، وَمَنْ أولئك الذين يعيشون أكثر من أربعين عاماً! أجيبوني واصدقوا في جوابي. ولكن لا تُجَشِّمُوا أنفسكم عناء الجواب، فأنا مُخْبِرُكُم وقائل لكم: إنهم الحمقىٰ والسقلة. ولأصرخن بذلك في وجوه الشيوخ جميعاً، في وجوه

Twitter: @ketab_n

العجائز المحترمين، أمام هذه الرؤوس البيض الفضيّة المُضَمَّخة بالطيب. ولأنشرنّ ذلك على الناس جميعاً؛ ولي ملء الحق في هذا الإعلان لأنّي أنا نفسي سأعيش حتى أبلغ الستين من عمري، بل السبعين بل سأدرك الثمانين... رويداً رويداً أمهلوني حتى أسترجع أنفاسي الذاهبة!..

أتظنّون يا سادتي أني راغب في إضحاككم؟ إنكم إن ظننتم ذلك فأنتم تخدعون أنفسكم؛ فلست رجلاً مرحاً كما يُخَيَّلُ إليكم أو كما تشهدون فإذا كنتم تحبون، وقد أثارت أعصابكم ثرثرتي، وأعتقد أنها ثائرة حقاً، أن تسألوني: من أنا في الواقع؟ كان جوابي أني موظف في إحدى المؤسسات؛ وإني طلبت الوظيفة لأن من واجبي أن أجد شيئاً آكله (نعم تلك كانت غايتي الوحيدة)؛ وعندما ورثت من أحد أقربائي الأبعدين، في العام المنصرم، ستة آلاف روبل قدّمت استقالتي فوراً، وقبعت في زاويتي الصغيرة. لي غرفة قبيحة قذرة في أقصى المدينة؛ وخدمة فلّاحة غبيّة، دفع بها فرط الغباوة إلى الخبث، وهي فوق ذلك خائرة النفس مريضة الجسم دائماً.

قالوا لي: إن مناخ بطرسبرج مضرّ بصحتي، وأنّ العيش فيها غالٍ لا يناسب وسائلي الماديّة التي تكاد تكون مفقودةً، وأنا أعرف ذلك دون أن يقولوه لي، بل أنا أعرفه أكثر مما يعرفه هؤلاء الناصحون الذين أغنتهم التجربة والحكمة، ولكني مع ذلك باقٍ في بطرسبرج، ولن أغادر بطرسبرج... ولن أسافر أبداً لأني... سيّان أن أسافر وألّا أسافر.

والآن عمّ يتحدّث الشريف من الرجال حديثاً يسرّه أكثر مما تسرّه سائر الأحاديث؟

الجواب: حديثه عن نفسه.

إذن فها أنذا أحدّثكم عن نفسي.

Twitter: @ketab_n

(2)

أحبّ يا سادتي أن أخبركم، شئتم أو أبيتم، لماذا لم يكن في استطاعتي أن أكون حشرة. وأعلن لكم في صراحة وفي فخر أني طالما حاولت أن أكون حشرة فلم أستطع، لأني، ويا للأسف، لم أكن بها جديراً. وأقسم لكم يا سادتي: إن الإدراك العميق للأمور مرض أيّما مرض، مرض حقيقي، مرض كامل كلّي. وإن في الإدراك العادي ما يكفي سدّ حاجات الإنسان أو يَفْضُلُ عن حاجاته، ولعلّ هذا الإدراك العادي أن يكون نصف ذلك الإدراك أو ربع ذلك الإدراك الذي يُثْقِلُ عاتق المخلوق المثقّف في قرننا العشرين هذا الشقي، وأنه لمخلوق زاد حظه سوءاً على سوء فاستوطن بطرسبرج، هذه المدينة التي هي أكثر مدن الأرض عسراً على الفهم وأشدّها تحيّزاً (نعم هنالك مدن متحيّزةٌ ومدن غير ذات تحيّز) وهكذا يكفي الإنسان أن يملك تلك القطعة من الإدراك التي تعيش عليها المخلوقات ويكتفي بها الرجال العمليّون ثم يدعونها عقلاً كاملاً. أراهن أنكم تعتقدون أني في هذا القول ذو صلف وادّعاء، وتتصورون أني أتهكّم بالرجال العمليين تهكّماً مزعجاً غير لائق، وأني أسلك سلوك صاحبي الضابط بضوضاء سيفه وجلبته، ولكن من هذا الذي يتبجّح بأمراضه يا سادتي ويجعلها مبررات لصلفه؟

ماذا أقول؟ إن الناس جميعاً يفعلون ذلك، إنهم يفتخرون بأمراضهم،

Twitter: @ketab_n

وأنا أعترف أني أشدّهم فخراً بها. دعونا من المناقشة فاعتراضي أحمق بليد، ومع ذلك فأنا مقتنع قناعة تامة أن ليس سمو الإدراك وحده مرضاً، بل إن كل إدراك مهما كان ضئيلاً، مرض. أؤكّد لكم ذلك... ولكن دعونا الآن من هذا الحديث، وقولوا لي: لماذا يحدث لي – وكأنّ ذلك مقصود – في اللحظة نعم في اللحظة التي أكون فيها أكثر استعداداً لإدراك كل ما هو دقيق، «كل ما هو جميل رائع ورفيع عظيم» – أليس هكذا كان يقول الناس في قديم الأزمان – لماذا يحدث لي في هذه اللحظة ذاتها لا أن أفكر في ارتكاب كل ما هو قبيح وسافل فحسب بل أن أقوم بارتكابه فعلاً؟؟ قولوا لي لماذا؟ وعليّ أن أوجز فأقرر أن الناس جميعاً يرتكبون ألوان النذالة ولكني أرتكبها حتماً حين أدرك إدراكاً واضحاً أن علي ألا أرتكبها أبداً... وكلما زاد إدراكي للخير، ولكل ما هو «جميل وعظيم» زاد تمرّغي في الطين وصرت أكثر استعداداً لأن أغرق فيه حتى قمّة رأسي، وهذه الحال ذات مزية ويا لها من مزية هي أنها لا تبدو أبداً عرضيّة – وكان ينبغي أن تكون كذلك – ولكنها تبدو حالاً طبيعية لا مرضاً ولا رذيلة. وهكذا فَقَدْتُ كلّ رغبة في محاربة هذه الرذيلة وأخيراً وَجَبَ عليّ أن أعتقد – (وإني لأعتقد كذلك حقاً كما يبدو لي) – أن هذا الوضع وضعي الطبيعي الأصيل.

ولطالما قاسيت الآلام في بداية هذه المعركة، وما أظنّ الناس يستطيعون أن يعيشوا ما قاسيته، وهكذا كتمت طوال حياتي هذه المزية في نفسي كما أكتم السر الرهيب. كنت أخجل (ولعلّي ما أزال أخجل حتى اليوم؟) وأدفع كل شيء إلى أقصاه. حتى أني لأشعر بشيء من الفرح السري غير العادي الدنيء، عندما أعود إلى زاويتي الصغيرة؛ في ليلة من ليالي بطرسبرج القذرة وأنا مقتنع في قرارة نفسي أني ارتكبت مرة أخرى في ذلك اليوم عملاً قذراً دنيئاً... وأن

Twitter: @ketab_n

من المستحيل عليّ أن أعيد ما مضى... كنت أقضم نفسي سرّاً وأمزّقها إرباً إرباً في كثير من القسوة وأتعذّب عذاباً عميقاً؛ فلا تلبث أن تتحوّل مرارة هذا العذاب إلى حلاوة مخجلة لعينة؛ ثم إلى شهوة لذيذة حقيقية؛ تكاد تكون عنيفة، نعم؛ إلى لذة عارمة، وأصرّ على ذلك إصراراً، وإني لأتحدث عنها لأني أريد أن أعرف تمام المعرفة هل يشعر الناس بمثل هذه اللذّات؟ أريد أن أفسّر: أن اللذّة تنشأ في هذه الحالة من شعوري الأكيد بعاري، من إحساسي أني بلغت الغاية القصوى، الشر قائم هنا ولا مناص منه...

وأقول في نفسي: لن تستطيع أبداً أن تكون رجلاً آخر؛ وأنت لو ملكت من الزمان ومن الإيمان ما يكفي لِتَبَدُّلِكَ لم ترغب أنت نفسك في هذا التغيّر، ولو أنك رغبت في التغيّر لم تكن قادراً عليه، فنحن في الواقع لا نستطيع أن نغيّر شيئاً فينا.

تلك هي حقاً غاية الغايات، وأهمّ النقاط؛ إنها قائمة على هذا الواقع: واقع أن كلّ ما يحدث في الحياة إنّما يحدث حسب ما تقتضيه قوانين الشعور النامي – وهي قوانين طبيعية وأساسية – وحسب ما يمليه الجمود الناتج من طبيعة هذه القوانين، ونتيجة ذلك أنك لا تقتصر على أن تكون غير متطور وكفى، بل أنت تجد نفسك وقد استحال عليك استحالةً مطلقةً أن تعمل عملاً أو ترد رداً. وهكذا يدفعك وجدانك المتضخّم إلى أن تردّد: «إني حقاً مخلوق دنيء» كأن في اعتراف الدنيء بدناءته عزاء له وسلوى.

ولكن كفى... ما أكثر ما طالت هذه الثرثرة، وما أقل ما أوضحت... ولأَعُدْ إلى سؤالي الأصلي: كيف السبيل إلى تفسير تلك اللذّة؟ سأحاول البيان، وسأمضي إلى الغاية... ولقد أمسكت بالقلم لأحقق هذا الهدف...

ثم إني أناني أحبّ ذاتي حبّاً جمّاً، وأنا مثل الأحدب أو مثل القزم سيئ

Twitter: @ketab_n

الظنّ سريع النزق؛ ومع ذلك فلي ساعات لو أنّي صُفِعْتُ فيها صفعةً لشعرت أنّي بهذه الصفعة مسرور. أنا جاد فيما أقول: لو حدث ذلك لوجدت فيه عنصراً من عناصر اللذّة: إنّها راحة اليأس.

أوليس في اليأس أروع ألوان اللذّة وأقواها، ولاسيّما حين تشعر بوضعك الذي أنت فيه ثم تشعر أن ليس لك مناص من هذا الوضع ولا خلاص؟ إنك حين تتلقّى الصفعة يسحقك شعورك بالهاوية التي تردّيت فيها، أنا أنا المجرم المسؤول عن كل شيء مهما تنصّلت ثم تنصّلت، هكذا حكم القدر. وأكثر ما يذلّ النفس أنّي مجرم دون أن أرتكب ذنباً ما. هكذا قضت قوانين الطبيعة كما يقولون. مجرم لأني أكثر ذكاء من كل أولئك الذين يحيطون بي (ولقد كنت دائماً أعدّ نفسي أكثر ذكاء من كل من هم حولي، وربما أربكني أحياناً هذا الشعور، ولذلك فقد كنت طوال حياتي لا أتطلّع إلى زملائي إلا شزراً ولم أستطع قط أن أنظر إليهم في عيونهم)؛ ثم إني مجرم لأني حتى حين تكون نفسي ذات نبل يزيدني شعوري بعدم جدوى هذا النبل حسرة وألماً. إن نبلي لا يجدي فتيلاً: لا في العفو عمّن صفعني، لأن من أهانني لم يصفعني إلا وفقاً لقوانين الطبيعة، وأنت لا تستطيع سبيلاً إلى العفو عن قوانين الطبيعة، ولا إلى نسيان الصفعة، فالإهانة واقعة سيان دفعت إليها قوانين الطبيعة أو لم تدفع، بل إني حين لا أريد أن أكون كريماً فأعفو عمّن أساء إليّ، إنّي حين أريد أن أنتقم ممّن أهانني، لا أستطيع أن أنتقم من أحد، لأني ولا شك لن أقرر الثأر حتى حين أكون عليه قادراً.

أمّا لماذا لا أقرّر الثأر لنفسي والانتقام ممّن أهانني؟

فذلك أمر سأحدّثكم عنه فأقول لكم كلمتين اثنتين خصوصيتين.

Twitter: @ketab_n

(3)

كيف تتم الأمور عندما يتعلّق الثأر بمخلوقات تعرف كيف تنتقم، أو على العموم تعرف كيف تدافع عن نفسها؟ إنها حين تستبد بها الحاجة إلى الثأر لا تجد في كيانها مكاناً لعاطفة غير هذه العاطفة.. وعند ذلك ينقض السيد قدماً نحو هدفه كأنه ثور ثائر هبط قرناه، لا يمكن أن يقف في وجهه إلا جدار، (وأريد بهذه المناسبة أن أقرّر أنّ هؤلاء السادة أعني الرجال العمليين، أصحاب العقول الكاملة يتخلّون عن أهدافهم أمام الجدار في صدق وإخلاص. إنّ هذا الجدار عندهم ليس ذريعةً كما هو عندنا نحن معاشر الذين نعرف كيف نفكّر وبالتالي لا نعمل، إنّه ليس حجّةً للردّة والنكسة، حجّةٌ نحن لا نؤمن بها ولكننا نسرع إلى التشبّث بها في سرور؛ كلا إنهم يتراجعون أمام الجدار عن أهدافهم في صدق وإخلاص، فالجدار يُمثّل في نظرهم شيئاً مطمئناً، حلاً أخلاقياً نهائياً، ربما حل في ثناياه صفة صوفيّة سحريّة.. (وسنعود مرّة أخرى إلى البحث في هذا الجدار).

إذن فأنا أعتبر مثل هذا «العقل الكامل» كأنما هو وحده الإنسان السوي الحقيقي على النحو الذي تريد أن تراه أمّنا الحنون، أمّنا الطبيعة حين ولدته في حبّ وكوّنته فوق الأرض. إنني لأحسد مثل هذا الرجل حتى آخر نقطة من دمي. نعم إنه أبله ونحن على هذا متفقون ولكن الإنسان

Twitter: @ketab_n

السوي يجب أن يكون بهيمة دون ريب – وما يدريكم أنه لا يمكن إلا أن يكون كذلك؟– بل لعل ذلك أن يبدو جدّ جميل بل لعلّ هذا الفرض أن يكون جدّ قريب من الحقيقة. والواقع أننا لو أخذنا نقيض الرجل السوي، لو أخذها ذلك المخلوق ذا الوجدان المتضخم الذي انبثق لا من أحضان الطبيعة بل من بهيمة ذات قرنين (نعم إن هذا الكلام يكاد يكون سحراً يا سادتي ولكني أعتقد أن هذا الفرض ممكن) أعود فأقرّر أن لو أخذنا ابن ذي القرنين هذا لرأيناه ينكص على عقبيه أمام نقيضه صاحبنا الرجل السوي إلى درجة لا يعتبر فيها نفسه، رغم تضخّم شعوره، أكثر من فأر صغير؛ وإنه ليعتقد ذلك في صدق وإخلاص... فأر صغير شاعر شعوراً كبيراً، ولكنه مع ذلك ليس إلا فؤيراً... بينما يتعلق الأمر برجل... وبالتالي..

وأهم ما في الأمر أنه هو نفسه، أنه هو وحده يرى أنه فأر، وأن ليس هنالك من يطلب منه ذلك الاعتراف، ذلك شيء ذو قيمة كبرى؛ إذن فلنراقب هذا الفأر في ساحة العمل.

لنفرض مثلاً أنه أُهِيْن (والفأر طالما وجد نفسه مُهَاناً مُحْتقراً) وأنه يريد أن ينتقم، إن الخبث ليتراكم في نفس هذا الحيوان أكثر مما يتراكم في نفس «إنسان الطبيعة والحقيقة»[1].

وإنّ الرغبة الدنيئة القبيحة، الرغبة الجامحة في ردّ الشرّ بالشر تقضمه قضماً أكثر عنفاً ممّا تقضم «إنسان الطبيعة والحقيقة» لأن هذا الإنسان في بلاهته الفطرية يعتبر انتقامه عادلاً، بينما ينكر الفأر كل ما في هذا الثأر من عدالة لأنه ذو شعور متضخّم، مع أنه في مرحلة تنفيذ الثأر وتحقيقه.

---

[1] – بالفرنسية في النص الأصلي.

Twitter: @ketab_n

إن الفأر المسكين علاوة على ما فيه من حقارة أوليّة يملك وقتاً يستطيع فيه أن يجمع حواليه تحت أشكال من الأسئلة وضروب من الشكوك كثيراً من التفاهات، وأن يضيف إلى استفهامه الأول استفهامات أخرى لا تلقي لها جواباً.

ومهما يفعل يتراكم حوله حماً آسن، طين يثير القيء، تخلقهما شكوكه وقلقه كما تخلقهما كلّ البصقات التي تغمره بها العقول الكاملة. إن رجال العمل ليحيطون بهذا الفأر في أبهة وكبرياء بوصفهم حكّاماً أو مستبدّين ليضحكوا منه ملء أشداقهم؛ وهكذا لا يجد مخلّصاً له إلّا أن يحرّك قدمه الصغيرة حركة صابرة على كلّ شيء، وإلا أن يمضي في ضحكة احتقار مغتصبة إلى حجره الصغير فينزلق فيه. وهناك.. هناك في هذا السرداب الرطب المخيف يتيه صاحبنا الفؤير المُهان المُحتَقَر المضروب المضحوك منه في بيداء خبثه البارد السام، والراسخ الوطيد على الخصوص. هناك في هذا السرداب يبقى أربعين سنة طوالاً، وهو يتذكّر تلك الإهانة في أدقّ تفصيلاتها وأشدّ جزئياتها هواناً وذلاً؛ ثم يضيف إليها في كل ذكرى وقائع جديدة أكثر خزياً وعاراً وإثارة وإغضاباً في لذّةٍ شريرة توحيها إليه مخيلته، وأنه هو نفسه ليخجل أحياناً من هذا العبث الداخلي؛ ولكنه مع ذلك لا ينسى شيئاً فيعيد التدقيق والتمحيص في تفاصيل كلّ حادثة ويخترع أشياء جديدة مستحيلة، قائلاً: أليس من الممكن أن تحدث؟، ثم هو طوال هذا العمر لا يعفو ولا يغتفر أمراً كبيراً ولا صغيراً.

وفأرنا هذا قد يهم أن ينخرط في بدايات انتقام مختزلة غير متظرة لحماقات فيها رياء ومصانعة تدور في الخفاء ليس فيها ثقة لا بحقّه في ثأره ولا

Twitter: @ketab_n

بنجاحه. وهو لا يجهل أبداً أنه يتألم من محاولات انتقامه الجوفاء مئة مرة أكثر مما يتألم منها صاحبه الذي يريد أن ينتقم منه، إنّ صاحبه هذا لا يحتفظ بأثر من آثار جرحه القديم بل ولا يتذكره. أما الفأر فيستحضر، وهو على فراش الموت، مرة أخرى كل تلك الحوادث ويستحضر معها كلّ ما تراكم عليها من فوائد.. ثمّ...

نصف اليأس هذا، نصف الثقة تلك، واقع أني أردت أن أدفن نفسي وأنا حي – ألماً وبصورة شاعرة – في سرداب خلال أربعين عاماً كاملة، هذه المضائق التي خلقتها لنفسي متطوعاً مختاراً، والتي هي مع ذلك مآزق مشكوك في أمرها، هذا المستنقع المسموم من الرغبات التي لا تقنع والتي تتوارى أو تنفي نفياً من ساحة الشعور، هذه الحمّى من المواربة والنفاق، ومن القرارات التي تُتَّخَذُ وكأنها خالدةٌ للأبد والتي تتبعها حالاً التوبة عنها والاعتذار منها، كلّ أولئك الألوان من المشاعر هي عصارة اللذة الغريبة التي تحدّثت عنها منذ حين.

وإنها للذّة ناعمة دقيقة قد تفرّ فتختفي عن الشعور حتى أنّ أوساط الناس أو المخلوقات ذات الأعصاب المتينة لا تدرك منها قليلاً ولا كثيراً ولا تكتنه لها سراً، وأظن أنكم تضيفون إلى قولي وأنتم ساخرون «إنّ كلّ من لم يتلقّ في حياته صفعةً لا يدرك منها شيئاً».

وهكذا فأنتم في أدب تغمزون قناتي وتُشيرون إلى صفعات يمكن أن أكون قد تلقيتها في حياتي وتقولون: إنه لهذا يتحدث حين يتحدث عن خبرة ومعرفة. أراهن أنكم تعتقدون ذلك وتردّدونه. ولكن رويدكم أيها السادة واعلموا أني لم أُصْفَعْ قط، وأني لا أبالي بما تظنّون وأني فوق ذلك قد أكون نادماً على ما سلف من حياتي لأني لم أوزّع على الناس فيها إلا عدداً قليلاً من

Twitter: @ketab_n

الصفعات. كفى، كفى، لا تنبسوا ببنت شفة تتعلّق بهذا الموضوع الذي يلذّ لكم.

وهأنذا أعود فأتحدّث عن تلك المخلوقات ذوات الأعصاب المتينة؛ التي لا تدرك شيئاً من تلك اللذات الناعمة الدقيقة. إن هؤلاء السادة الذين يخورون كالثيران ملء أشداقهم في بعض الأحيان ويسعدهم أن يخوروا كالثيران، يعرفون كما قلت آنفاً كيف ينكصون على أعقابهم في المعركة حين يقفون أمام ما هو مستحيل. المستحيل: ذلك هو الجدار الحجري، ويا له من جدار؛ فما عساه أن يكون؟

إنّه قوانين الطبيعة، والنتائج التي أسفرت عنها العلوم الطبيعيّة والرياضيّة! وهكذا فإن عليك حين يثبتون لك أنّك تنحدر من سلالة القرود أن تقبل هذه الحقيقة، ولا يجديك فتيلاً أن تتجهّم وتمتعض، وإذا هم أثبتوا لك أيضاً أنّ نقطةً واحدةً من شحمك ينبغي أن تكون أغلى عندك من مئة ألف من الناس من أمثالك، وأنّ إلى هذا البرهان تنتهي كلّ الواجبات وكلّ الفضائل المزعومة، وترجع كلّ التفاهات والأحكام السابقة، فعليك أيضاً أن تقبل هذه الحقيقة.

اثنان في اثنين أربعة، تلك هي الرياضيات فأنكر إن أردت أن تنكر. ولسوف يصرخون: كل إنكار لا قيمة له. نعم، اثنان في اثنين أربعة: وما تعبأ الطبيعة بعد ذلك بقبولك، ولا تبالي برفضك، ولا تهتم برغباتك ولا تريد أن تعرف إن كانت تلك القوانين موافقة لك أو غير موافقة، فأنت مضطر إلى قبولها على علاتها، وإلى أن تقبل معها كل ما يترتب عليها من نتائج. الجدار.. حقاً إن الجدار قائم. (والخ...)

Twitter: @ketab_n

ولكن يا رب: ما لي ولهذه القوانين الطبيعية الرياضية، ما لي ولها، ولاثنين في اثنين أربعة؛ ما دامت لا ترضيني لسبب من الأسباب. أنا لا أستطيع طبعاً أن أحطّم هذا الجدار بجبيني إن لم أكن قوياً، ومع ذلك فأنا لا أقبل أبداً بهذه القوانين بمجرّد أنها جدار من حجر، وبمجرّد أني ضعيف غير قادر على تحطيمه. أتظنّون أن هذا الجدار يحمل بعض العزاء، ويدعو إلى الأمل في الطمأنينة لأنه قائم على هذه الضرورة: اثنان في اثنين أربعة؟ يا للغباوة، يا لغباوة الغباوات!

تستطيع أن تفهم كل شيء، وأن تدرك كل أمر، وكل مستحيل، وكل جدار حجري، وتستطيع كذلك أن تنكر كل مستحيل وكل عائق من حجر إذا كنت تكره أن تحني رأسك لها خاضعاً. إن أحكامك المنطقية مهما كانت ذات يقين يمكن أن تقودك إلى أشد النتائج إثارة للنفور، إلى تلك النتائج التي تتعلق بالقضية الخالدة: قضية مسؤولياتك أمام الجدار الحجري، حين تشعر أنك دون ريب غير مسؤول عن شيء أبداً. إنك حين ذاك تستطيع أن تستسلم استسلاماً شهوانياً إلى السكون المطلق وإلى العدمية، وأن تصرف أسنانك قليلاً في صمت، مقتنعاً أنك لن تستطيع في نهاية الأمر أن تكره مخلوقاً كائناً من كان. وعندئذ تبقى النتيجة على ما كانت عليه: أنت لا تجد داعياً يدعوك إلى الثورة؛ وقد لا تجد هذا الداعي أبداً لأنّ كل ما هنالك ليس إلّا حماً مسنوناً وخدّاعاً.

إنك لا تدري ما تفعل، ولا من تلوم، ثم إن هذا لا يمنعك من أن تتألّم وتزداد ألماً على قدر ما يفوتك سؤالك: «لماذا» وسؤالك «كيف».

Twitter: @ketab_n

(4)

– «آه! آه! آه! أوقد بلغ بك أن تكتشف لذّة في وجع الأسنان؟» وتضحكون وأنتم تصرخون بي هذا الصراخ، وأنا أردّ عليكم:

– ولِمَ لا؟. نعم إن في وجع الأسنان شيئاً من اللذة. لقد أوجعتني أضراسي شهراً كاملاً ووجدت في هذا الألم لذّة، والحقّ أنك في هذا الوجع لا تغضب وأنت صامت، بل تغضب وأنت تئنّ أنيناً. وهذا الأنين ليس صادقاً خالصاً ولكن فيه خبثاً، وفي هذا الخبث يكمن كل شيء. إن لذّة الذي يتألم تجد تعبيرها في شكواه وأنينه، وهو لو لم يشعر بلذّة هذا الأنين لم يئن ولم يتوجع.

حقاً لقد ضربت لكم يا سادتي مثلاً مبيّناً رائعاً، فدعوني أشرحه لكم.

إن عدم جدوى ألمك، وهو عدم مخجل، يجد في هذا الأنين تعبيراً عنه، ثم إنه مظهر شرعي للطبيعة التي لا تبالي بها أنت ولكنها مع ذلك تؤلمك وهي خالية البال لا تتألم. إن شعورك يقول لك: ليس لك في هذا الوجع عدو ولكنّ الوجع مع ذلك موجود، وشعورك يردّد على مسمعيك: إنّك ستظلّ عبداً لأسنانك عن طريق عبوديتك لأطباء الأسنان؛ وأنّ الوجع قد ينتهي إذا خضعت لهوى طبيب منهم، فإذا لم يتّبع الطبيب في أسنانك أهواءه، ظلّ الوجع مستمراً ثلاثة أشهر أخرى.

Twitter: @ketab_n

حاول ألّا تخضع وجرّب أن تحتجّ، ولسوف ترى أن لا يبق لك عزاء إلا في أن تحتمل وزر عنادك وأن تضرب بقبضة يدك جدارك الحجري، لا شيء غير ذلك.

لعمري إنّها لمهازل، مهازل لا تدري من صاحبها؛ ومنها تنبعث لذة قد تسمو فتكون شهوة عارمة.

أرجو يا سادتي أن تصغوا إليّ آنات رجل مثقف من رجال القرن التاسع عشر وهو يشكو وجع أسنانه. لو سمعتم أنينه في اليوم الثاني أو اليوم الثالث من هذا الوجع لعلمتم أن أنينه هذا لا يشبه في شيء أنينه في اليوم الأول، يوم كان يئن لأنه يتوجع فحسب، وكأنه واحد من أولئك الفلاحين الجفاة الغلاظ. أجل لقد أصبح أنينه منذ اليوم الثاني أنين إنسان متطوّر متصل بالحضارة الأوروبية. أو على الصحيح أنين إنسان «فقد كلّ مبدأ وطني» كما نقول اليوم. وتأوهاته تلك تغدو شريرة حقاً خبيثة خبثاً دنيئاً وتستمر أياماً وليالي طوالاً؛ ثم إنه يعرف أن آناته هذه لا تنفعه في قليل ولا كثير، ويعرف أكثر من الناس جميعاً أنه يخنق حنقاً فارغاً ويغضب ويتعذب فلا يصنع شيئاً غير إزعاجه من حوله من الناس؛ وهو لا يجهل أن الناس في مجلسه وأن أهله لا يشعرون بغير الاشمئزاز من تأوّهاته وآناته، وأنهم لا يؤمنون بألمه، وأنهم يعتقدون أنه يستطيع أن يشكو شكوى أكثر بساطة وأقل تعقيداً، دون مبالغة ولا تصنّع؛ وأنه إنما يغالي في أنينه خبثاً منه وكيداً.

هذه الألوان من الخجل هي التي تصنع لذتنا، حين نشعر بها: «الحق أني مزعج لكم، ممزّق لقلوبكم، مانع عن عيونكم الرقاد؛ وليكن ذلك

Twitter: @ketab_n

كذلك: لا تناموا واعلموا علم اليقين أن أضراسي تؤلمني. لست عندكم ذلك البطل الذي أودّ أن أكونه. وإنما أنا إنسان تافه حقير، إنما أنا شقي. ويسعدني أنكم كشفتم سرّي. لعل سماع آهاتي المسكينة يزعجكم؟! لا أبالي بكم، ولأقذفنّكم بآهة تتبعها آهة وتزيد عليها في كل مرة حنقاً وغيظاً.

أما تزالون، يا سادتي! عن الفهم عاجزين؟ إذن فأصغوا إليّ: إذا شئتم أن تشعروا بدقائق هذه اللذّة وأجزائها فاجعلوا شعوركم نامياً وإحساسكم مرهفاً. إنكم تضحكون، وتتغامزون؛ وأنا أضحك لضحككم وأستهزئ بكم ساخراً سخرية كريهة المذاق غامضة غير منظّمة، ولقد أشكّ في أنّ لها مزية أخرى؛ إنها ذات مذاق كريه لأني لا أحترم نفسي احتراماً كافياً، ولكن أخبروني! أيستطيع رجل يشعر بنفسه أن يحترمها مهما كان حظّ احترامه لها قليلاً؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(5)

أيستطيع رجل قادر على التلذّذ بمهانته الشخصية أن يحترم نفسه؟ ذلك سؤال لم تفرضه علي توبة جوفاء، فالحق أني كرهت وما أزال أكره هذه العبارات: «يا أبتاه! عفوك عني، فلن أعود إلى مثلها أبداً» وليس كرهي لها لأني أشعر أني غير قادر على النطق بها، فأنا قادر عليها إلى حد بعيد.

ولطالما ألفيت نفسي – وكأن الأمر مقدّر – وأنا أغامر في قصص وحكايات أركب فيها رأسي وليس لي بها علاقة لا في اليقظة ولا في المنام وأقصى ما في هذه الحكايات من سخرية أني لا ألبث أن أشفق على نفسي منها فأتوب وأندم وأغرق في الدموع وأخدع نفسي عنها؛ ويكون سلوكي مع ذلك خالياً من كلّ نفاق. إنه قلبي الذي يعبث بي عبث الصبيان، ما من سبيل إلى اتهام قوانين الطبيعة رغم أنها كانت تحتقرني وتهينني طوال حياتي دون هوادة. التذكّر قاس، ومثله في القسوة أن تعيش ما تتذكره في حينه.

وما هي إلا دقيقة تمضي وإذا أنا أشعر وأنا ناقم غاضب، أن تلك الاعتذارات جميعاً وكل تلك التوبات والإشفاقات، وكل هذه الأيمان المغلّظة والوعود بإنشاء حياة أفضل، أن ذلك كله ليس إلا أكذوبة من الأكاذيب، أكذوبة فارغة كريهة.

أنتم تسألونني؟ لماذا أقضم نفسي قضماً؟ لماذا أعذّب نفسي كل هذا

Twitter: @ketab_n

العذاب؟ والجواب: ما أشدّ ضجرك حين تجلس هكذا هادئاً مكتوف اليدين! وهكذا أستسلم عند ذلك إلى كثير من صريف الأسنان - ذلك هو الواقع. حاولوا يا سادتي أن توغلوا في أنفسكم إيغالاً، وعندئذ تدركون ما في قولي من صدق وحق. أنا أخلق من العدم مغامرات وأصنع بيدي وجوداً كاملاً. أليس حتماً عليّ أن أعيش على هذا الشكل أو على ذاك.

كم مرّة حدث لي أن أغضب فجأة دون مبرّر ولا سبب... ألست تدرك أنك قد تلسع نفسك لا لشيء وتُلجِئُها إلى الغضب إلجاءً ثم لا تلبث إذا مضيت في لسعك لها أن تهوي في أعماق غضب حقيقي شديد.

لقد أحسست دائماً بجاذب يحضّني على مثل هذا النوع من الحكايات، حتى أنّي أضعت أخيراً كل سيطرة على أعصابي. وهكذا وجدتني مضطراً إلى أن أمثّل مرتين دور الرجل الولهان، وأقسم لكم يا سادتي أني طالما تألّمت ألماً عنيفاً. لم أكن أؤمن بألمي في أعماق نفسي، بل لقد كدت أكون ساخراً منه. وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أتألّم. وكان ألمي حقيقياً. أشعر أنّي حسود وأني أخرج من جلدي غيظاً وحقداً.

الضجر! الضجر يا سادتي كامن في جذور سلوكي كله، الجمود يقتلني قتلاً ويسحقني سحقاً. ذلك أن الثمرة الشرعية المباشرة للشعور ليست في الجمود أو بكلمة أخرى في «البقاء وأنت جالس مكتوف اليدين» لقد أشرت إلى ذلك من قبل وأنا الآن أعود فأكرر بكل قوة أن الرجال العمليين، أصحاب «العقول الكاملة» إنما كانوا كذلك لأن عقولهم تبقى غليظة ضيقة.

كيف السبيل إلى التفسير؟ إن هؤلاء الناس، لِمَا في عقولهم من ضيق،

Twitter: @ketab_n

يجعلون من الأسباب المباشرة الثانوية أسباباً أولية أصلية. وهكذا فهم يقتنعون قناعة أكثر سرعة وسهولة من قناعة سائر الناس بأنهم قد وجدوا القواعد الثابتة الراسخة لفعاليتهم. ثم يطمئنون اطمئناناً إلى قواعدهم هذه، وذلك أهم ما يهمهم. أفليس عليك لكي تمارس عملاً من الأعمال أن تصل قبل كل شيء إلى مرحلة فيها هدوء كامل لا تكون فيها معذّباً بالشكوك، ولا مهدّداً بالريب؟ ولكن كيف أستطيع الوصول إلى هذا الهدوء؟ أين أجد الأسباب الأولية الأصلية والقواعد الراسخة التي أتّكئ عليها؟ أين أبحث عنها؟ أين؟

أنا أصنع فكرتي. وهكذا يُوَلِّد رأساً كلّ سبب أوّلي في نفسي سبباً آخر أكثر أصالةً وأقرب أساساً، وهكذا دواليك...

هذا جوهر كل شعور، هذا أساس كلّ فكرة، وهذه قوانين الطبيعة تطلّ علينا برأسها من جديد. وما نتيجة ذلك كله؟: النتيجة واحدة دائماً. تذكّروا أني حدّثتكم عن الانتقام منذ حين (ولاشك أنكم لم تفهموا من أحاديثي شيئاً). قالوا: الإنسان ينتقم لأنه يعتبر الانتقام عدلاً. إذن فقد وجد هذا الرجل السبب الأول، القاعدة، ألا وهي العدالة، وها هو ذا هادئ من كل نواحي نظره، وها هو ذا يقدم على الثأر في هدوء ونجاح يساوي أحدهما صاحبه، وهو مقتنع أنه قد قام بعمل شريف عادل. أمّا أنا فلا أرى في هذا العمل شيئاً من العدل ولا نصيباً من الخير، ونتيجة ذلك أني حين أشرع في الانتقام لا أجد لانتقامي سبباً غير خبثي وشرّي. الواقع أن الغضب قد يسيطر على شكوكي ويحل محل السبب الأول، وذلك لأنه ليس بسبب، ولكن ما عساني أصنع عندئذ حين أكتشف أني غير خبيث ولا

Twitter: @ketab_n

شرير؟ (بدأت أقول ذلك)، أن غضبي يتفسخ تفسخاً كيميائياً حين يتعرض لقوانين الشعور اللعينة؛ هأنذا كلما أوغلت في نفسي غاب عن عيني موضوع غضبي وتبخّرت أسبابه، وتوارى المجرم، وبدت الإهانة وكأنها ليست إهانة وإنما هي ظاهرة من ظواهر القدر، شيء مثل وجع الأسنان. ما من مسؤول هناك، وليس لي من مناص: إلا أن أضرب بيدي ذلك الجدار ضرباً أشد قوة وأكثر عنفاً.

وإنها لانتكاسة جديدة ترجع إلى استحالة اكتشاف الأسباب الأولية الأصيلة ولنفرض أنك استسلمت دون تفكير ودون سبب أوّلي أصيل، إلى عاطفتك، وطردت من نفسك كل شعور طرداً ساعة من زمان. أكره أو أحب، ولكن لا تقف مكتوف اليدين! تلك الساعة من الاستسلام ليست إلا هدنة كلها مطل، وهكذا فما يكاد يطل عليك فجر غدك إلا وأنت تحتقر نفسك احتقاراً لأنك خدعتها أو لأنها خدعتك. ونتيجة ذلك كله: فقاعة صابون وجمود.

أليس اعتقادي أنّي ذكي، عائداً إلى أني لم أقم بعمل طوال حياتي، ولم أنجز عملاً إن قمت به؟ وما أنا إلا ثرثار، ثرثار كثير النقمة ولكنه مقلّم الأظفار، وما عساني أستطيع أن أفعل إن كان مصير كل مخلوق ذكي، وأنه لمصير محتوم، أن يثرثر ثم يثرثر، يعني أن يملأ بالرمال آفاق الفضاء؟!

Twitter: @ketab_n

(6)

وما عسى أن يحدث لو كانت بطالتي راجعة إلى كسلي وحده؟ يا رب! لو أن ذلك كان حقاً لاحترمت نفسي احتراماً جماً. ولشعرت أني قادر على أن أجدني لائقاً بالكسل، لائقاً بمزية من المزايا يمكن أن تعد إيجابية. وإنها لمزية حقاً حين أسأل: من أنت؟ فأجيب: أنا كسلان. وما أشد سروري حين يتردد على مسمعي هذا اللقب! لقد أصبحت الآن معرّفاً تعريفاً واضح المعالم ظاهر الحدود، فإذا ذكرت فرضت على الناس ما أتمتع به من قابلية.... كسلان ما أحلى هذا اللفظ إنه لقب من الألقاب، دور من الأدوار، صنعة من الصناعات.

لا تسخروا فأنا لا أقرر إلا الحق؛ وانظروا إليّ فقد أصبحت بين عشيّة وضحاها عضواً أساسياً في خير ناد، وأصبح لي شغل شاغل واحد هو أن أحترم نفسي.

لقيت مرّة سيداً ينحصر فخره طوال حياته في قدرته على تذوّق خمر بوردو. كان يعتبر كفاءته هذه كفاءة نادرة إيجابيّة، ثم لا يشكّ في قيمته، ومات هادئاً مطمئناً، بل مات وهو يشعر أنه منتصر. ولقد كان على حق.

أما أنا فأختار هذه الصناعة: صناعة الكسل والشره، ولكني ويا للأسف، لست شرهاً مبتذلاً ولا أكولاً ولكني عشت نصيراً لكلّ ما هو

Twitter: @ketab_n

«جميل وعظيم» فقل لي ما رأيك في هذا التناقض؟ طالما فكّرت فيه فلم أستطع له حلاً؛ وطالما أثقل رأسي «هذا الجميل» و«ذلك العظيم». وسنّي الأربعون. نعم والسنون الأربعون. أما قبل الأربعين فقد كان الأمر مختلفاً اختلافاً بيناً. ما أحسن أن أجد لي شغلاً مناسباً. أن أشرب نخب «الجميل والعظيم». أسكب قطرات من دموعي في كأسي ثم أفرغها على مجد الأشياء الجميلة والعظيمة، ثم أحوّل العالم، كل العالم إلى جمال وعظمة، وأكتشف في أكثر الشناعات فظاظة وقحة شيئاً من الجمال والعظمة، وتغدو مآقي اسفنجة دائمة البلل...

هاهنا رسّام استطاع أن يصوّر «غي» تصويراً رائعاً، فلأشرب حالاً نخب هذا الفنان، فأنا محبّ لكلّ ما هو جميل وعظيم. وهنالك كاتب اقترح نشر كتاب ذي عنوان طريف «طوع أمرك» فلأسرع حالاً لأشرب نخب هذا الكاتب «طوع أمرك»، أليس هذا العنوان جميلاً وعظيماً. وعلى الناس جميعاً عندئذ أن يقدّموا إلى جنابي فروض الاحترام، ومن لم يقدّمها طلبت عقابه. وهكذا أعيش هادئاً وأموت - كما مات صاحب خمر بوردو - منتصراً. ما أعجب هذا النصر وما أروع هذا السحر! عندئذ أدفع ثمن عثنون ثلاثي جميل وأنف ذي شحم سمين، وبطن ناتئ؛ عندئذ يراني الناس فيصيحون من كل جانب «يا له من رجل يفرض احترامه على الناس فرضاً، يا له من رجل ذي مقام».

طوع أمركم يا سادتي. ما ألذّ وقع هذه الكلمات في مسمعي إنسان يعيش في هذا العصر المتفسّخ الهدّام.

Twitter: @ketab_n

(7)

ما هي إلا أضغاث أحلام ذهبية، أوه. من ذا الذي يعترف؟ من ذا الذي يعلن على رؤوس الأشهاد أن الإنسان لا يقوم بعمل دنيء إلا لسبب واحد هو أنه لا يعرف مصلحته الشخصية؟ وأنّا لو أنرنا له سبيله لو فتحنا له عينيه ليبصر مصالحه الحقيقية السوية، لو فعلنا ذلك لكفّ حالاً عن ارتكاب كل ما هو دنيء، ولغدا صالحاً طيّباً، يعمر الشرف قلبه.

علّموه، أفهموه أين يجد مصلحته ير حينئذ في الخير وحده ما ينفعه. يعلّم الناس جميعاً أنه ما من شخص واحد يكون حرباً على مصلحته وهو بها شاعر. إن الإنسان يقوم بالخير تدفعه إليه الضرورة، أوه! يا له من طفل. طفل نقي وبريء.

ولكن أخبروني: هل سمعتم أن الإنسان، خلال الألوف المؤلّفة من السنين، لم يفعل غير ما تمليه عليه مصلحته الشخصية؟ ما أظنّ ذلك أبداً، بل إن ألوف الألوف من الأدلّة تثبت ما ينقض ذلك نقضاً: إن الناس يعرفون حق المعرفة منفعتهم ويعرفون أين هي، ولكنهم على الرغم من ذلك يهبطون بها إلى مستوىً غير مستواها، ثم يلقون بأيديهم إلى التهلكة، إلى طريق ثانية شائكة فيها الخطر وفيها المغامرة. ما من ضرورة تدفعهم إلى سلوك هذا الطريق، ومع ذلك فهم يختارونها ويسيرون فيها طائعين أحراراً في إصرار وعناد.

Twitter: @ketab_n

وإنها لطريق وعرة تناقض العقل ولكنهم مع ذلك يتلمسونها في الظلمات، وقد راقهم عنادهم وحرية اختيارهم أكثر مما يروقهم كل ما ينالون من منافع يستطيعون إدراكها حين يسلكون الصراط المستقيم. المنفعة! ما المنفعة؟ حاول أن تحدد في وضوح أين تكمن مصلحة الإنسان؟ قد تكون أحياناً كامنة في الرغبة وحدها، لا في الشر ولا في الخير، وإذا كان ذلك كذلك فقد انهارت القواعد انهياراً.

فيم تفكّرون؟ ألم تعرفوا قط مثل هذا الموقف؟ إنكم تضحكون يا سادتي! فبورك لكم في ضحككم ولكن أجيبوني: هل تحددت مصالح الإنسان تحديداً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض؟ أليس من هذه المصالح ما لا يدخل في صنف من الأصناف، وما لا يمكن أن نجد له في التصنيف مجالاً أو ذكراً.

أما ما أعرفه فإن قائمة المنافع الإنسانية تعتمد على أسس قدمتها الإحصاءات ودساتير الاقتصاد العلمية. وفي عداد هذه المنافع نجد الرفاه والغنى والحرية والأمن. وإذا ما وجدتم إنساناً ينبذ مسلّمات قائمتكم هذه نبذ النواة في حزم وإصرار عددتموه أنتم وعددته طبعاً أنا معكم رجعياً أسود أو مجنوناً جنوناً مطبقاً. ولكن الغريب حقاً هو أن الحكماء والإحصائيين ومحبي الإنسانية أجمعين ينسون في أثناء إحصائهم لمصالح الإنسان مصلحة واحدة أساسية. فكيف كان ذلك؟ إن الزاوية التي ينبغي أن ينظروا إليها منها تغيب عن أبصارهم فلا يرون هذه المصلحة، على أنها تتعلق عليها صحة تحرّياتهم وإحصاءاتهم. ستقولون: ولكن ليس عليك إلا أن تضيف هذه المصلحة الأساسية إلى القائمة الأولى فتكون قائمة كاملة،

Twitter: @ketab_n

وما كان أسهل ذلك لو استطعت، ولكنها، ويا للأسف، مصلحة لا تخضع لتصنيف ولا تدرج في قائمة.

ولأضرب لكم مثلاً: لي صديق، وهو يا سادتي صديق لكم، بل هو صديق الناس جميعاً. هاهو ذا يستعد للعمل فيشرح لنا في كلمات فصيحة واضحة ما وجب عليه القيام به إذا اتبع قوانين العقل والحق، بل هو يفعل أكثر من ذلك فيتحدث في حماسة وعاطفة عن مصالح الإنسان الحقيقية السوية، وينكر في اشمئزاز وألم أعمال أولئك الحمقى الذين عميت عيونهم عن رؤية مصالحهم الأصيلة وصمّت آذانهم عن سماع صوت الفضيلة. وينقضي على هذا الحديث ربع ساعة، فإذا هذا الصديق العاقل الفاضل، وقد دفعته قوة داخلية أشد عنفاً من كل رعاية لمصلحة أو حرص على منفعة، يرميك بداهية دهياء، وحماقة رعناء فيهدم كل ما كان بناه من قبل، وينطق بكل ما هو مناقض للعقل والمنطق، ويفعل كل ما يناهض مصلحته الشخصية، ويمضي قدماً وهو عدوٌّ لكلّ شيء. لقد أعلنت لكم من لحظات أن صديقي هذا إنما هو شخص مشترك موجود في كل مجتمع، فالحكم عليه وحده أمر غير يسير.

هنا هنا، يا سادتي تكمن القضية! كل القضية! أليس وراء المصالح الإنسانية جمعاء أمر لست أعرفه هو أكثر قيمة عند كل إنسان من أكثر مصالحه قوّة وأكبرها قيمة؟ أو بتعبير آخر (كيلا نتهك حرمة المنطق) أليست هنالك مصلحة هي أكثر مصالح الإنسان ثمرةً وأعظمها خطراً وأغلاها قيمةً؟ أليست هي هذه التي طالما نسيناها في إحصاءاتنا والتي تحدّثت عنها الآن.

إنّ الإنسان في سبيلها يستطيع عند الضرورة أن يعمل مخالفاً لكلّ قانون، ومناقضاً لكلّ عقل، ومضحّياً بشرفه وأمنه ورفاهيته وبكلّ ما هو

Twitter: @ketab_n

خير ونافع؛ كلّ ذلك ليمسك بمصلحته هذه التي يعدّها أكثر جاذبية وأعظم ثمناً.

ها أنتم أولئك تقاطعون كلامي وتقولون لي: لنفرض ذلك جدلاً؛ أفليس صاحبنا هذا يطلب في هذا العمل مصلحته؟ وها أنذا أجيبكم: لا لا أيّها السادة: اصغوا إليّ فأشرح لكم! ليس هذا التحوّل دعابة ولا هوىً، ولكنه مصلحة تقلب تصنيفاتنا كلّها رأساً على عقب، وتهدم كلّ القواعد التي أقامها أصدقاء الإنسانية من أساسها، وإذا أوجزنا قلنا إنّه خلل دائم. وقبل أن أسمّي هذا التحوّل باسمه أريد أن أخوض غمار الحديث، وأؤكّد لكم في صراحة أنَّ هذه القواعد العجيبة وهذه النظريات الغريبة التي تدلّ الإنسانية على مصالحها الحقيقيّة السويّة لتسير على هديها فتصبح إنسانية طيّبة شريفة، ليست كلّها عندي إلا منطقاً صوريّاً، نعم إنها منطق صوري.

أمّا أن نقرّر أن ولادة الجنس البشري ولادة ثانية جديدة قد تتم وفقاً لقوانين مصالحه الشخصية، فذلك أمر يستدعي أن نؤمن مع «بوكلي» أنّ الإنسان - والفضل في ذلك يعود إلى المدنيّة - أصبح أكثر رقّة وليناً وأقلّ تعطّشاً للدماء وحبّاً للحروب.

لقد قاد المنطق صاحبنا «بوكلي» إلى استنتاج هذه النتائج، ولكن الإنسان ميّال إلى نوع آخر من المنطق، راغب في اتباع طرائق ملتوية واستنتاجات غامضة تدفعه إلى تزييف الحقيقة عن شعور وإرادة، تدفعه فلا يرى بعينيه ولا يسمع بأذنيه، شريطة أن يكون منطقه هو المنطق الأكيد المؤيد.

هذا مثال اخترته لكم لأنه فاقع اللون مثير للخواطر، انظروا بأعينكم حواليكم؛ ألا ترون الدماء تجري صاخبة كالأمواج في فرح ومرح،

Twitter: @ketab_n

كأنها الشمبانيا، تطلعوا إلى قرننا التاسع عشر هذا، قرن بوكلي واذكروا نابوليون الأول الكبير، وانظروا إلى نابوليون هذا الجديد الذي يحكم اليوم؛ وإلى أمريكا الشمالية ذات الولايات المتحدة إلى الأبد، وإلى المهرّج شيلزويغ هولشتاين، انظروا إلى ذلك كله ثم احكموا بعد ذلك على مقدار ما رققت الحضارة من طباعنا وهذّبت من نفوسنا.

إن الحضارة لم تصنع غير زيادة أنواع إحساساتنا، لم تفعل شيئاً غير ذلك قط. وهذا التنوّع في الإحساسات نفسه يقود الإنسان دون ريب إلى اكتشاف اللذّة في سفك الدماء. بل إن متعته في سفكها قد حدثت فعلاً. ألم تلاحظوا أن أكثر المخلوقات المحبّة للدماء إحساساً مرهفاً دقيقاً كانوا هم دائماً سادتنا الذين هم أكثرنا حضارة وأعرقنا في المدنية، سادتنا الذين تَصَفَّرُّ أمامهم وجوه كلّ أولئك الوحوش القدماء الذين مادت الأرض تحت سنابك خيولهم، من أمثال «اتيلا» و«ستانكارازين» وإذا قلتم أنهم لا يثيرون مثلما أثار «اتيلا» و«ستانكارازين» من ضجّة ولا يشغلون الناس كما كانا يشغلانهم من قبل، فما ذلك إلا لأننا نلقاهم كثيراً وفي كل مكان، فلا نجد فيهم ما هو خارق للعادة، ذلك لأننا تعوّدناهم وألفناهم. ولنفرض أن الحضارة لم تجعل الإنسان أكثر حباً لسفك الدماء، ولكنها دون شك قد جعلته أكثر قسوة، وقد جعلت قسوته أكثر قحة وأشدّ نذالة.

كان الإنسان من قبل يظنّ أنّ له حقاً في إراقة الدماء، فيقتل الناس، وهو مطمئن الضمير، مرتاح الوجدان، أما اليوم فنحن نعتقد أن هذه المذابح جرائم، ومع ذلك فنحن نرتكبها في كل حين، بل نرتكبها أكثر عدداً وأشدّ عنفاً من أي يوم مضى، فأين؟ أين الشر الذي هو أكثر شراً؟! أخبروني.

Twitter: @ketab_n

زعموا أن كليوبترا - [وعذراً إن أنا اخترت لكم هذا المثال من تاريخ الرومان] كان يحلو لها أن تغرز في صدور إمائها إبراً من ذهب، وتلذّ سماع صرخاتهن ورؤية تشنّجاتهن. ها أنتم هؤلاء تجيئون: ولكن ذلك العصر كان عصراً بربرياً تقريباً، وعصرنا هذا قاس كذلك، فالناس المعاصرون [ونحن نلاحظ النسبيّة دائماً] لا يزالون يحلو لهم أن يغمسوا الإبر في أجساد إخوانهم. نعم إن الإنسان في هذا العصر يرىٰ مغزىٰ ما في الحياة من شؤون وشجون في وضوح يفوق وضوح ما كان يراه أسلافه في العصور البربرية، وهو لم يتعلّم حتىٰ اليوم كيف ينقاد طوعاً واختياراً للقواعد التي يفرضها عليه العقل ويرشده إليها العلم؛ ولكنه سينقاد لها عاجلاً أو آجلاً، عندما تنقرض في نفسه عادات موروثة كريهة بالية، عندما يربّي الذوق السليم والمعرفة الصحيحة طبيعتنا الإنسانية تربية جديدة كاملة، ويسيران بها إلىٰ سُبُلِها القويمة السليمة. وها أنتم تؤكدون أن الإنسان سوف يكفّ عن أن يخدع بإرادته نفسه وسوف يأبىٰ، رغم أنفه، أن يَنْقُضَ ما يصلحه وينفعه بما يرغب فيه ويريده.

وكلامكم هذا لغو كله لا غناء فيه. إن العلم - كما تدّعون - (وإني لأراه وهماً باطلاً) لا يستطيع أن يعلّم الإنسان إلا أمراً واحداً هو أنه في الواقع لا يملك اليوم ولم يملك أمس ولن يملك أبداً إرادة يتصرّف حسب مشيئتها، ولا هوىٰ يندفع في تياره، ولكنه كان دائماً ولا يزال لا يساوي إلا ملمساً في مضرب بيان أو وتراً في أرغن، وإن قوانين الطبيعة ماتزال خالدة باقية، وإن ما تحقق في الحياة من تطوّر لم يتحقق وفق إرادة الإنسان ولكنه تحقّق طبقاً لهذه القوانين، ويكفينا أن نكشف النقاب عن هذه القوانين وعندئذ لا يكون الإنسان مسؤولاً عن أفعاله ولا محاسباً علىٰ تصرفاته، عندئذ تصبح الحياة

Twitter: @ketab_n

سهلة هينة عليه، عندئذ تغدو أعمال الناس جميعاً محسوبة حساباً رياضياً دقيقاً وفق ما تقتضيه هذه القوانين - ويُخَيَّل إليّ أني أرى جداول لوغارتمية مطبوعة، حساباً يدق حتى يصل إلى جزء من مائة جزء من المليم، يكتب في بعض التقاويم، وربما حدث أكثر من ذلك كله فنشرت كتب طيبة المقاصد صالحة النوايا - على غرار القواميس العلمية اللغوية - نجد فيها كل أمر وقد حدد تحديداً كاملاً ووضحت مداخله ومخارجه إلى حد بعيد، إلى حد لا تبقى فيه في عالمنا هذا أعمال إنسانية ولا مغامرات... وعندئذ (إنكم ما تزالون أنتم الذين تتحدثون) عندئذ تسود الناس علاقات اقتصادية مقدرة أحسن تقدير. مقررة في وضوح رياضي كبير يقضي فيه على كل ما هو ممكن من القضايا، ذلك لأن حلولها قد اكتشفت سلفاً، وعندئذ تشيد الإنسانية قصراً من الزجاج... عندئذ يبدو فيما بيننا عصفور النار...

هنا أريد أن أتدخّل فأقول كلمتين: نعم ليس هنالك من يضمن لنا أن لن يكون ذلك العهد المنتظر مملاً مللاً قاتلاً، فما عسانا نصنع إن كان كل شيء محسوباً وفق جدول لوغارتمي؟ وكيف نعيش إن أصبح كلّ شيء معقولاً إلى أقصى حد. آه يا للسآمة! ويا للملل! اللحم الحي؛ بل لعل ذلك ليس شيئاً، (فالمهم كما أرى) أن نستشعر تلك اللذّة الفائقة في غمس هذه الإبر من الذهب في أجساد الناس.

يا للإنسان! إنه لغبي، غبي كما خلقته الحوادث وصوّرته المقادير بل لعلّه ليس غبيّاً بقدر ما هو عاق عقوقاً لا نجد له من يضارعه فيه. فلست أرى بعيداً ولا غريباً أن يقوم بين هذه المخلوقات العاقلة من أناسي الغد إنسان ذو هيئة عاديّة قليلاً أو إذا أردنا الدقّة إنسان ذو هيئة رجعيّة

Twitter: @ketab_n

منقرضة، يسخر من الناس جميعاً ويستهزئ بما يقولون ويضع يديه على وركيه، ثم يصيح بهم: «أيها السادة هيا بنا نقلب بأقدامنا كل هذه الحكمة، تعالوا نُلْقِ إلى الشيطان بكل هذه الجداول اللوغارتمية، تعالوا نَعِشْ مرّة أخرى كما تريد إرادتنا الحمقاء أن نعيش».

بل ليس قيام هذا الرجل شيئاً مهمّاً، فالشرّ كلّ الشرّ في أن يجد هذا الرجل أنصاراً وتلاميذ! هكذا خلق الإنسان.

وسيحدث هذا فعلاً لسبب سهل بسيط أحمق لا قيمة له في الظاهر: هو أن الإنسان أياً كان، وفي أيّ زمان عاش، وعلى أيّ مكان درج، يجب أن يعمل كما تشاء إرادته لا كما يأمره عقله ومصلحته، إنه قد يريد أن يعمل ضدّ مصلحته الشخصية. بل إن عليه أحياناً أن يعمل في شكل موضوعي، في الوجهة المناقضة لمصلحته.

إرادتي الشخصية في أوج حريّتها واستقلالها، هواي الذاتي في أقصى نوبات جنونه، رغباتي الخاصة في تخومها الإبليسية الرعناء، تلك هي مصلحة الإنسان العليا التي ننساها والتي لا نجد لها مكاناً في تصنيفاتنا وقوائمنا، والتي هي على الرغم من نسياننا لها تمزّق طرائقنا ونظرياتنا كلها إرباً إرباً.

من أين عرف الحكماء أن الإنسان في حاجة إلى ما لا أدري من إرادة سوية خيّرة؟ ولماذا يخيّل إليهم أن الإرادة العاقلة المبنية على المصلحة ضرورية للإنسان؟

إن الإنسان ليس في حاجة إلا إلى إرادة مستقلّة، وليكن ما يكون ثمن هذه الإرادة، ولتكن ما تكون نتائجها. إن الشيطان وحده يعرف ما تعني هذه الإرادة حقاً...

Twitter: @ketab_n

(8)

ها أنتم هؤلاء أيها السادة تقاطعونني ضاحكين وتقولون:

– آه! آه! آه منك. ولكن لقد استطعنا أن نثبت أن الإرادة لا وجود لها في الحقيقة. لقد أوغل العلم في تحليل نفسية الإنسان إلى درجة لا نستطيع عندها نسيان هذا الواقع: الإرادة وما يسميه الناس حرية الاختيار ما هما إلا...

– مهلاً مهلاً يا سادتي، فمن هذه النقطة كنت أريد أن أبدأ كلامي. والحق أني خائف. كنت أريد أن أصرخ ملء صوتي أن الإرادة تتعلق.. الشيطان وحده يعرف بم تتعلق. وأنها، ولا شك، خير.. ولكن مالي أنسى أن العلم موجود؟ لقد تذكرت وجوده فلزمت الصمت؛ وتولّيتم أنتم الكلام.

أخبروني ماذا عسى أن يحدث إذا استطاع الناس إيجاد معادلات رياضية لإراداتنا كلّها وأهوائنا كلها؟ إن معنى إيجاد هذه المعادلات أننا اكتشفنا القوانين التي تعمل فيها هذه الإرادة وتتعلق بها تلك الأهواء وعرفنا كيف تتطور وإلى أين تتجه حسب الظروف والأحوال. معنى ذلك أننا وصلنا إلى معادلات رياضية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وأظن عندئذ أن الإنسان سيكفّ رأساً عمّا يريد، بل أنا أؤكد ذلك وأقرره. فأيّ سرور هذا الذي يشعر به الإنسان حين يريد ما يريد حسب جداول الحساب؟

Twitter: @ketab_n

بل إن القضية أكثر تعقيداً: إن الإنسان عند ذاك يفقد دوره في تخطيط حياته ويكاد يصبح وتراً في أرغن أو في آلة موسيقيّة أخرىٰ.

وهل يكون الإنسان في الواقع حين يتجرّد عن رغبته وإرادته وحريته شيئاً غير هٰذا الوتر؟ مالكم تفكّرون فتطيلون التفكير؟! ادرسوا إمكانيات الإنسان آنذاك ثم قولوا لي: أصحيح هذا أم غير صحيح؟! أيحدث هذا أم لا يحدث؟!

وأنتم تجيبون:

- هم! إنّ إرادتنا عرضة للخطأ، فنحن لا نرىٰ منافعنا جيداً، وحماقتنا تجعلنا نعتقد أن السبيل إلىٰ بلوغ أهدافنا وإدراك ما ينفعنا ليس إلا في مجانبة العقل ومخالفة ما يقتضيه الصواب، أما حين يفسر العلم كل شيء، أما حين يكتب ذلك بالحروف علىٰ صفحات الكتب [وذلك ممكن حقاً، فمن الحماقة أن نظن أن الإنسان لن يكتشف بعض قوانين الطبيعة]، أما حينئذ فسيختفي ما يسميه الناس رغبات وآراباً، وإذا حدث يوماً أن اصطدمت إرادتنا بعقلنا فكّرنا ملياً فتوارىٰ الإرادة وتنسحب من ميدان القتال خاسئة خاسرة؛ ذلك لأن من المستحيل علينا، ونحن نطيع أوامر العقل أن نطلب ما هو سخيف، وأن نسلك ونحن شاعرون، سلوكاً لا يوافق ذكاءنا، وأن نرغب فيما يضرّنا ولا ينفعنا. وبما أن محاكماتنا وإراداتنا سوف تصبح محسوبة حساباً ومقدرة تقديراً، لأننا سنكتشف دون شك قوانين ما يسمىٰ «حرية الاختيار» المزعومة، فسنصبح عندئذ قادرين - [ولست مازحاً] - علىٰ وضع جدول بهذه الحسابات. وهكذا «يريد» الناس وفق ما تقرره هذه الجداول.

إنكم تثبتون لي إثباتاً رياضياً أني إذا هدّدت بقبضة يدي زميلاً من زملائي فقد كان تهديدي له بها حتماً مقضياً، ومن المستحيل عليّ ألا أهدّده

Twitter: @ketab_n

بها، بل من المستحيل عليّ أكثر من ذلك ألا أهدّده بهذه الإصبع أو تلك. إذن فماذا بقي لي من الحريّة، ولاسيما حين أكون عالماً من العلماء أتمّ دراسته في مكان ما من هذا العالم الجديد، ألست أستطيع أن أحسب سلفاً حياتي بعد ثلاثين عاماً؟ وبتعبير آخر: إذا كان تحديد المستقبل تحديداً رياضياً مسبقاً، أمراً مؤكداً وحقيقياً فما علينا حين نريد أن نقوم بعمل من الأعمال غير أن نفكّر ونقدّر؛ ثم إن علينا بعد ذلك أن نردّد دون انقطاع، وجوب قبول الحياة لا كما نتصورها نحن بل كما هي في الواقع وكما حدّدتها الطبيعة لنا في زمن معين وظروف محدودة، دون أن تطلب الطبيعة رأينا فيها.

وإذا كنا نرغب في هذه الجداول اللوغاريتمية رغبة أكيدة، ونحبّ تلك التقاويم، ونطلب البوتقة الكيماوية، فماذا يبقى بعد ذلك علينا. هيّا نلمّ البوتقات من هنا ومن هناك، ونصهر فيها ذواتنا، وإن لم نفعل فإنها هي التي تفرض علينا أنفسها فرضاً.

– مهلاً مهلاً! يا سادتي، وعفوكم عن هذه الفلسفة، إن خطأها إن كنتم ترونها متهافتة، عائد إلى السنين الأربعين التي قضيتها منجحراً في سردابي المظلم... فاتركوني الآن أرتع قليلاً.. الحقّ أن العقل يا سادتي شيء خطير عظيم، ولكن الذكاء ليس إلا ذكاء، وهو لا يرضي في الإنسان إلا ملكة التفكير، أما الرغبة فتمثل الحياة في مجموعها، كل الحياة الإنسانية، ومن هذه الحياة العقل ومنها كل تلك الحسابات الجزئية الدقيقة. نعم إن الحياة على هذه الصورة تبدو غالباً كريهةً بشعة، ولكنّها على الرغم من ذلك تبقى هي الحياة ولا تنحصر في استخراج جذر مربّع.

ولأضرب لكم مثلاً وذكرت نفسي. أنا أريد أن أعيش عيشةً طبيعيّة

Twitter: @ketab_n

لكي أُطَمْئِنَ كلّ ما لي من إمكانيات وقابليّات في الحياة، ولا لأُطَمْئِنَ مَلَكَتي في التفكير وحدها؛ وهي مَلَكَةٌ لا تكاد تبلغ جزءاً من عشرين جزءاً من إمكانيّاتي.

وماذا يعرف العقل؟ إنّه لا يعرف غير ما نجح في تعلّمه واكتسابه [ولن يعرف أبداً غير ذلك، وليس في هذا عزاء، فعلام لا نقرّ بعجزه عن تخطّي حدوده]، أما الطبيعة الإنسانية فإنها تعمل كلاً شاملاً ومجموعة كاملة، بكلّ ما فيها من قوىٰ شاعرة ولا شاعرة، بل إنها حين تكذب تعيش.

وأنتم تنظرون إليّ مشفقين وتردّدون واثقين:

- ولكنّ الكائن المبصر المثقف أو في اختصار إنسان المستقبل لا يمكن أن يرغب عامداً فيما يناقض منفعته. هذه مُسَلَّمَةٌ من مُسَلَّمات الرياضيّات، وأنا أوافق على أنها مُسَلّمة رياضيّة، ولكني أعود فأقول لكم للمرّة المئة: هناك حالة، حالة واحدة يستطيع فيها الإنسان عامداً متعمداً أن يبحث عمّا هو ضار به، عن أمر بهيمي، عن أمر هو أشدّ الأشياء بهيمية وغباء؛ ولكنه مع ذلك يبحث عنه ويجري وراءه؛ كل ذلك ليتمتع بحقه في الرغبة في هذه الحماقة، كل ذلك كيلا يكون عبداً صاغراً ذليلاً لواجبه الذي يحتّم عليه ألا يستوحي إلا ما هو معقول وإلا ما هو ذو ذكاء. وأشد حماقاتنا حماقة أهواؤنا. وعلام لا يكون هذا الهوىٰ أقصىٰ ما يملكه الإنسان فينفعه أحياناً، أقصىٰ ما ينفعه ولو أنه أضر به وناقض نتائج تفكيرنا السليم؟ وما ذلك إلا لأنّه أبقىٰ لنا كلّ ما هو أساسي عندنا، عزيز علينا، أثير لدينا، إلا لأنه أبقىٰ لنا شخصيتنا وفرديتنا...

قد توافق الإرادة العقل لو طاب لها ذلك، شريطة ألّا يُعَرَّضَ هذا الوفاق لاستغلال، وأن يُستخدم في هوادة واتّزان، وهذا الاتفاق نافع وهو

Twitter: @ketab_n

أحياناً محمود. ولكن الإرادة كثيراً ما تأبى في عناد أن تتفاهم هي والذكاء و... أتعلمون أنّ هذا الخلاف نافع وهو أحياناً محمود؟

لنفرض يا سادتي أن الإنسان غير غبي (ولئن كان غبياً فأيّ مخلوق يحق له أن يدّعي أنه ذكي؟). إذن فهو غير غبي ولكنه يظل رجلاً عاقاً عقوقاً شيطانياً أحكمته المقادير. وخير تعريف للإنسان عندي أنّه مخلوق عاق ذو رجلين.

وليس هذا العقوق كل ما فيه من شر لأنه لا يوضح خطيئته الأساسية التي هي «فساد الطبع». فساد الطبع ذلك هو العيب الأصيل الثابت في الإنسان، رافقه منذ عهد نوح وطوفانه إلى عهد شيلزويغ - هولشتاين، طوال العهود لتي مرّت بها أقدار الإنسان. فساد الطبع أنه هو السبب الأول في مخالفة كل معقول، وتجنّب كلّ منطق.

ألق نظرة على تاريخ الإنسانيّة ثمّ قل لي: ماذا ترى؟

أترى ضخامة؟ نعم إنها ضخامة. ولنضرب مثلاً لها تمثال رودوس.

إن السيد أنافسكي لا يؤكّد عبثاً أن هذا التمثال من صنع يد الإنسان، كما يرى بعض الناس، ومن صنع العناصر الطبيعية، كما يرى آخرون.

أترى تنوّعاً؟ نعم إنه تنوّع.. وما علينا لكي نقتنع بذلك إلا أن ندرس الأزياء في الحفلات خلال العصور وبين الشعوب. ولو فعلنا ذلك هالتنا تلك التهاويل والتعاجيب؛ فإذا نحن أضفنا إلى الأزياء الرسمية الأزياء الشعبية كدنا نضيع صوابنا، ولن يستطيع مؤرّخ عليها صبراً.

أترى نمطيّة راتبة. نعم إنها نمطيّة. الحق أن الناس يقتتلون ثم يقتتلون. لقد اقتتلوا أمس، وهم يقتتلون اليوم ولسوف يقتتلون غداً... فهل تستطيع بعد ذلك أن تدّعي أننا اجتزنا مرحلة النمطية.

Twitter: @ketab_n

نستطيع أن نقول كلّ ما نريد عن تاريخ الإنسانية العام، كل ما تولّده مخيلة مختلة، ولكن يستحيل علينا أن نثبت أن العقل هو الذي يرشد هذا التاريخ ويلهمه. إن لغتك عاجزة عن تهجية الواقع وتجويده. وما عسانا نجد في الخطى التي خطاها التاريخ؟ إننا نجد لفيفاً من الناس ذوي طباع حكيمة واعية، لفيفاً من الناس يرمون إلى غاية ويسعون إلى هدف، يحدوهم حب إخوانهم في الإنسانية وجيرانهم في الأرض؛ والهدف الذي يضعونه نصب أعينهم هو أن يسلكوا في الأرض سلوك الأذكياء النبلاء.

وهم يسعون إلى التأثير فيمن حواليهم بأن يجعلوا أنفسهم لهم قدوة كيما يثبتوا للملأ أن في استطاعة الإنسان أن يعيش فوق ظهر الأرض في نبل وفي ذكاء.

وماذا نجد وراء ذلك كله؟ إننا نجد هؤلاء الذين أحبّوا العقل واتبعوا الحكمة لا يلبثون إلا ساعة من زمان وإذا هم يخونون أفكارهم ويرتكبون أشد ما كانوا ينكرون هولاً وخطراً.

وإني لأسألكم: ماذا تنتظرون من هذا الإنسان؟ من هذا المخلوق الذي فطر وجُبِلَ هذه الجبلّة الواشجة بالفساد. خذوه فاغمروه بكلّ ما على الأرض من خيرات، ثم اغمسوه في السعادة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ثم انظروا إليه: ها هي ذي فقاعات صغيرة صغيرة تطفو على سطح هذه السعادة ثم تنفجر، كما تطفو الفقاعات على سطح الماء؛ ثم هبوا له كل ما يحتاج إليه من مطالب اقتصادية فليس عليه بعدها إلا أن ينام ويلتهم الفطائر الدسمة ويجهد نفسه ليمدّ في أجل التاريخ العام؛ وأقسم لكم: إنّه حتى بعد أن حقّق كل هذه الشروط قادر على أن يرتكب الموبقات يدفعه إليها خياله وحده.

Twitter: @ketab_n

سيضحّي بالفطائر الشهية، وسينقّب عامداً عن بعض الغباوات المشؤومة، وسيبحث عن أعمال تخريبية هدّامة، كل ذلك لكي يمزج هذه الحكمة السامية الموضوعية بعنصر خيالي مزعج. إنه ليحتفظ بأحلامه الوهمية وبحماقته السوقية ليثبت مرة أخرى [وما كان أغناه عن هذا الإثبات] أن الناس مايزالون هم الناس.

نعم! نعم! إنهم بشر وليسوا ملامس في بيان تعبث بها أصابع القوانين الطبيعية عبثاً عجيباً، ثم لا تستطيع أن تملك لها ضراً ولا نفعاً خارج ما هو مكتوب لها ومقدّر عليها.

وحتى حين تقرر العلوم الطبيعية والرياضية أن الإنسان ليس إلا أداة من هذا النوع، حتى في هذه الحالة لا يصبح الإنسان أكثر عقلاً ولا أوفر حكمة، بل سيظل يرتكب عامداً متعمداً بعض أنواع الشر لسبب واحد هو عقوقه، لكي يثبت أنه لن يقلع عن عض أفكاره بأسنانه، وإذا لم يستطع إلى ذلك سبيلاً قام باختراع ألوان من الخراب والدمار وأشكال من الفوضى، ولجأ إلى تصوّر شرور لا تخطر لنا في بال، ولم يفعل أخيراً إلا ما يعشش في رأسه، وعندئذ سوف يغمر العالم بلعنته فالإنسان كما نعلم هو وحده الذي يستطيع أن يوزع اللعنات [وإنها لعمري مزية ينفرد بها دون سائر أنواع الحيوان]، ولذلك فسيصل بهذه اللعنة وحدها إلى إرضاء رغباته وإشباع شهواته: وما شهوته ولا رغبته إلا في أن يقتنع أنه إنسان إنسان، وليس ملمساً من عاج.

قد تقولون: ولكنّا نستطيع أن نتنبأ سلفاً بهذه الفوضى ونعرف نذر تلك الظلمات ونطّلع على طلائع هذه اللعنة، كل ذلك نستطيع أن نحدّده بجداول الحساب، وهذه الجداول باستباقها الحوادث تستطيع أن توقف كل

Twitter: @ketab_n

مبادرة للناس فتنصر العقل وحده، ولئن كان ذلك حقاً فما على الإنسان إلا أن يكون مجنوناً ومُصِرّاً على جنونه، ما عليه إلا أن يفعل ما يعشّش في رأسه.

أنا مؤمن بحقّه في هذا الجنون، ذلك لأن الجهد الأوحد الذي ينذله الكائن الإنساني إنما ينصبّ على أمر واحد هو أن يبرهن لنفسه على أنه إنسان وليس دولاباً؛ وهو مستعد لأن يبرهن على ذلك بتمزيق لحمه وسفك دمه، إذا اقتضى الأمر، وإنه مستعد لأن يبرهن على ذلك بعودته إلى حياة الكهوف مرّة أخرى إذا كان ذلك ضرورياً. وكيف نريد بعد أن عرفنا هذا كله ألا نرتكب معصية ولا نقارف إثماً؟ وعلام لا يهنّئ بعضنا بعضاً على أننا لم نبلغ حتى اليوم مرحلة تلك الجداول التي تحول بيننا وبين ارتكاب معاصينا واقتراف آثامنا؟ وعلى أننا ماتزال لنا إرادة ماتزال تتعلق بـ... لست أدري بم تتعلّق، ولعل الشيطان وحده يعرف بِمَ تتعلّق هذه الإرادة الجموح.

وها أنتم هؤلاء ماتزالون تصرخون (إذا كنتم مصرّين على تشريفي وإكرامي بالصراخ في وجهي وأنا أتحدّث) وتقولون لي:

– ليس فينا من يحاول حرمانك من إرادتك، بل نحن جميعاً نسعى إلى أمر واحد: هو أن تطابق إرادتك – بمحض إرادتها – مصالحك الحقّة السويّة وقوانين الطبيعة ومسلّمات الرياضيّات ذلك كلّ ما نسعى إليه.

وأنا أردُّ عليكم فأسألكم:

– أخبروني يا سادتي ما قيمة هذه الإرادة إذا لم تكن هنالك غير جداولكم ورياضيّاتكم؟ ما قيمة هذه الإرادة إذا خلا المجال «لاثنين في اثنين أربعة»؟ اثنان في اثنين أربعة، ذلك أمر لا تتدخل فيه إرادتي فما لها وله؟ وهذه الإرادة أين مظاهرها؟

Twitter: @ketab_n

(٩)

أنا أمزح يا سادتي وأعرف أن مزاحي غثّ بارد؛ ومع ذلك فليس من الممكن أن يُحْمَلَ كلامي كلّه تَحْمَلَ المزاح. وربّما مزحت وأنا أحرق الأرم غيظاً. في الحياة قضايا تعذّبني يا سادتي فهاتوا لها حلاً وأريحوني من هذا العذاب. إنكم تسعون مثلاً إلى تحرير الإنسان من عاداته العتيقة وتقويم إرادته وفق ما تقتضيه قواعد العلم ومبادئ الذوق السليم، ولكن أخبروني كيف عرفتم أن في الإمكان أن يغير الإنسان أولاً، وأن من الواجب أن يغير ثانياً؟ من أين وصلتم إلى النتيجة الآتية: يجب حتماً أن تصلح الإرادة الإنسانية؟ وبكلمة واحدة: كيف خيّل إليكم أن مثل هذه التربية الجديدة نافعة للإنسان نفعاً لا لبس فيه؟ أصارحكم القول فصارحوني؛ لم أنتم على يقين تام من هذا الأمر: من الخير للإنسان ألا يعارض منافعه الحقيقية السوية التي تضمنها له مُسَلّمات العقل والرياضيات؟ وعلام تريدون أن تجعلوا من هذا القول قانوناً يشمل الإنسانية جمعاء؟ على أنه - كما أرى - ليس إلا رجماً بالغيب تظنّونه ظنّاً وما أنتم له بمستيقنين.

ولنفرض معكم جدلاً أنه قانون من قوانين المنطق، فما الذي يدعوكم إلى أن تجعلوا منه قانوناً للإنسانية كلها؟ أنتم تعتقدون أني مجنون.

Twitter: @ketab_n

ولكن دعوني أفسّر لكم وجهة نظري: نعم أنا موافق معكم على هذه المُسَلَّمَة: الإنسان حيوان بنّاء في أصله؛ عليه أن يسعى شعورياً وراء هذا الهدف أو ذاك. إنه مهندس يخطّط طرقاً في كل حين، ودون هوادة، وفي كل اتجاه. ولعله يريد أن يضرّ أحياناً لسبب واحد هو أنه محكوم عليه بتخطيط الطرقات في كل حين، ولأن «الفكر الكامل» مهما كان غبياً لابد أن يدرك أحياناً أن الطرق جميعاً تؤدي دائماً إلى جهة ما.

إذن فالمهم في الموضوع ليس في الاتجاه الذي يتجه إليه ولكنه في أن هذا الاتجاه موجود. ولا يجوز للطفل الحكيم أن يحتقر فنّه كمهندس ويستسلم إلى بطالة قتّالة هي - كما نعلم - أمّ الرذائل.

يحب الإنسان أن يبني بيوتاً ويشقّ طرقاً. هذا أمر لا يناقش فيه، ولكن لماذا يحبّ أيضاً حبّاً جمّاً، الدمار والفوضى؟ أجيبوني. أريد أن أقول لكم كلمتين في هذا الموضوع.

هل يحبّ الإنسان الدمار والفوضى (ولا يجديكم إنكار هذا الحبّ فالوقائع تؤيّده تأييداً) لأنه يخاف خوفاً غريزياً من بلوغ الهدف الذي يسعى إليه، ومن إتمام البناء الذي يبنيه؟ أتراكم تدركون هذا الموقف؟ ربما أرضى هذا البناء الإنسان من بعيد لا من قريب! إنه يلذ له أن يبنيه، ولكنه لا يسرّه أن يسكنه: وهكذا فهو يتركه عند فراغه من بنائه إلى «الحيوانات الأليفة» إلى النمل والغنم وغيرهما من أنواع الحيوان. أما جماعة النمل فإنها تتمتع بذوق مختلف: فهي صاحبة بناء مدهش يتحدّى القرون نسمّيه قرية النمل.

إنّ النمال المحترمات بدأن بقريتهنّ وسينتهين حتماً إلى قريتهن - وفي ذلك ما يدعونا إلى تمجيد ثباتهن ورزانتهن.

Twitter: @ketab_n

ولكنّ الإنسان مخلوق خفيف وغير منطقي: إنه مثل المقامر يحب مراحل الغاية التي يسعى إليها ولكنه، لا يحب الغاية ذاتها.

ومن يدري (ما من أحد يضمن)؟! لعلّ كلّ غاية تسعى إليها الإنسانية لا تقوم إلا على الانقطاعات التي تعترض السير نحو الهدف: أو بتعبير آخر: إن الغاية هي الحياة نفسها وليست هدفاً واحداً معيناً. لأن هذا الهدف لا يمكن أن يكون شيئاً غير «اثنين في اثنين أربعة»، يعني معادلة ليست هي الحياة أبداً يا سادتي ولكنها بداية الموت.

وعلى كل حال فقد كان الإنسان خائفاً دائماً من «اثنين في اثنين أربعة» وأصارحكم أني أنا أيضاً منها خائف.

نعم إن الإنسان لا يفعل شيئاً غير أن يجري وراء هذه المعادلة، إنه يخوض البحار ويضحّي بحياته في سبيل البحث عنها، ولكنه لا يلبث أن يستولي عليه الرعب والهلع حين يُخَيَّل إليه أنه وصل إليها، وأنه أمسك بها، وهو يشعر حين تصبح هذه المعادلة ملك يمينه أنه قد انتهى، وأن الحياة الدنيا لم يَبْقَ فيها ما يسعى إليه ويناضل من أجله.

انظروا إلى العمال، هاهم هؤلاء ينفضون أيديهم من أعمالهم فيقبضون أجورهم على أقل تقدير، ثم يهرعون إلى الحانات فيسكرون ويكون لهم بعدها شأن فيفعلون بالشرطة ما يفعلون أو تفعل بهم الشرطة ما تفعل، وفي هذا ما يشغلهم أسبوعاً ويلهيهم فيتذكرونه ويضحكون. أما الإنسان فما عساه أن يفعل حين ينتهي من بنائه؟ وأنى يذهب؟

نستطيع أن نؤكد ونقول: كلما بلغ الإنسان هدفاً من أهدافه بدت عليه أمارات القلق والارتباك. الجري وراء الهدف يرضيه، أما إدراك هذا

Twitter: @ketab_n

الهدف فلا. ألا إن هذا الأمر مضحك ولكنّه مضحك ضحكاً مخيفاً ذا أنياب.

وبكلمة واحدة: الإنسان مخلوق مشوّه ذو شذوذ، ولعلّ ذلك راجع إلى سخرية الأقدار. ونحن إذا سلمنا بذلك بقيت «اثنان في اثنين أربعة» أمراً لا يطاق، إنّها لعمري معادلةٌ عاهرةٌ قليلةُ الحياء: ها هي ذي تلقي علينا نظرات مريبة شزراء، وتقطع علينا الطريق، وتضع يديها على وركيها في قحة، وتبصق في وجوهنا!... وعلى الرغم من ذلك كلّه فأنا موافق على أن في «اثنين في اثنين أربعة» شيئاً من الروعة، ولئن كان واجباً علينا أن نشكر الله على كل ما في هذه الحياة الدنيا من أمور بدا لنا أيضاً حاصل الجمع هذا لذيذاً في بعض الأحايين.

إذن فعلام تؤكدون جازمين متبجحين أن في الأمر السوي الإيجابي أو بكلمة مختصرة أن في حسن الحال منفعة الإنسان.؟! أليس العقل مخطئاً حين يضع لهذه المنافع حدوداً وقيوداً. أليس في استطاعة الإنسان أن يرغب في غير حسن الحال؟ ألا يلذ له الألم كما يلذ له حسن حاله؟ ألا ينفعه الألم كما ينفعه حسن الحال؟ بلى إن الإنسان قد يحب الألم حباً عنيفاً. ذلك حق لا مراء فيه. عبثاً تبحثون عن هذا الموضوع في تاريخ الإنسان العام. سائلوا عن ذلك أنفسكم إن كنتم بشراً، مهما كان أمد الحياة التي قضيتموها فوق ظهر الأرض قصيراً، أما أنا شخصياً فأرى في حبنا لحسن الحال وحده شيئاً من عدم اللياقة.

الذي أعرفه أن تحطيم كل شيء أمر لذيذ جداً في أغلب الأوقات، ولكني لا أعرف إن كان هذا عملاً طيباً أو عملاً خبيثاً. لست أدافع هنا عن

Twitter: @ketab_n

الألم ولا عن حسن الحال. فهذا لا يعنيني في قليل ولا كثير، ولكني أدافع وأحمي حمى.... هواي، وأريد أن أكون قادراً على أن أعيشه عندما أحتاج إليه.

أنا أعرف أن الألم لا تقبله الأغاني الدارجة وأنه لا يلائم قصراً من زجاج، الألم فيه شك وفيه سلب، وما عسى أن يكون قصر الزجاج إذا ما بقي الشك ممكناً فيه؟!

وأنا على يقين من أن الإنسان لا يستطيع أن يستغني عن الألم الحقيقي أبداً، يعني عن الدمار وعن الفوضى. ما الألم؟ إنه ينبوع الشعور الوحيد. لقد قلت بادئ ذي بدء أن الشعور من أكبر شرور الإنسان. وإن الإنسان لن يتخلّى عنه ولن يستبدل به أي خير. والشعور أكثر سمواً وأعلى منزلة من «اثنين في اثنين أربعة». ما من شيء نقوم بعمله وما من شيء نسعى إلى معرفته وراء «اثنين في اثنين أربعة».

كلّ ما يبقى لنا بعد هذه المعادلة الرياضية أن نطمس على حواسنا الخمس طمساً، وأن نستسلم إلى أحضان التأمّل استسلاماً.

قد تقولون: ولكنّنا نصل إلى مثل هذه النتيجة بشعورنا، يعني إلى «أن لا نفعل شيئاً» وهذا صحيح، ولكننا نستطيع هنا على الأقل أن نَجَلِّدَ أنفسنا بالسياط، وفي هذا الجَلْدِ ما يبعث فينا الحياة ويجدّدها على كل حال. نعم إنه عمل رجعي ولكنه خيرٌ من لا شيء.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(16)

أنتم تؤمنون بقصر من زجاج لا نستطيع أن نمدّ إليكم فيه ألسنتنا سرّاً ساخرين، ولا أن نهدّدكم بقبضة أيدينا سرّاً غاضبين. ولكنني أخشى هذا القصر لأنه من زجاج. يستحيل علينا أن نهدمه وأن نمدّ له ألسنتنا ولو في الخفاء.

أصغوا إليّ: استبدلوا بهذا القصر الزجاجي خمّاً للدجاج. المطر يهطل وربما لجأت إلى هذا الخمّ لأتقي البلل؛ ولكنّي مع ذلك لا أنزل هذا الخم منزلة القصر اعترافاً بجميله لأنه وقاني مطر السماء ها أنتم هؤلاء تضحكون وتعلنون أن البيوت الكبيرة والخممة[1] سواءً في مثل هذه الظروف، وأنا أوافقكم على ذلك إذا كانت غاية الحياة أن تقينا البلل فحسب.

ولكنّنا لا نعيش من أجل هذه الغاية وحدها، وأنا من ذلك على يقين. وما دمنا نعيش فلنعش في منزل كبير، وقصر منيف. تلك هي إرادتي، تلك هي رغباتي، وأنتم لن تستطيعوا انتزاع إرادتي مني إلا إذا بدّلتم رغباتي. أنا راض، فبدّلوها، إن استطعتم، وتفنّنوا في إغرائي بهذه الطريقة

---

[1] – جمع خم.

Twitter: @ketab_n

أو تلك، وهبوا لي مثلاً أعلى غير هذا المثل. ولكن اسمحوا لي ما دمت أنتظر تحقيق هذا التطوّر أن يبقى الخمّ عندي غير القصر. قد يكون قصر الزجاج هذا وهماً من الأوهام تأباه قوانين الطبيعة، وقد أكون أنا الذي اخترعته لأني غبي ولأني واحد من هذا الجيل اللعين الذي تعوّد عادات مناقضة للعقل والمنطق، وسيّان عندي أن ترفض قوانين الطبيعة وجود هذا القصر أو تفترض وجوده، ما دام هذا القصر قائماً في رغبتي أو على الصحيح ما دامت رغبتي حيّة تعيش.

يُخَيَّلُ إليّ أنكم ما تزالون تضحكون منّي، فاضحكوا ما طاب لكم. فأنا على هذا الضحك راض وبه مغتبط. ولكني أرجو منكم ألا تزعموا أني شبعان حين أكون جدّ جوعان، وأني ريّان حين أكون جدّ ظمآن.

لن ترضيني المساومات أبداً ولن أقبل بغير صفر دوري ثابت، ذلك لأن قوانين الطبيعة تسلّم بوجوده. لن أرضى أبداً ببيت كبير فيه حجرات يستأجرها الفقراء طوال ألف عام، أجعله تاجاً على رؤوس رغباتي، لن أرضى أبداً بهذا البيت الكبير ذي الحجرات وقد تدلّت منه لافتة مكتوب عليها «طبيب الأسنان»:

«ويجنهام»

اقضوا على رغباتي قضاءً مبرماً، امحوا مُثُلي العليا محواً، هاتوا لي غايات أكثر جمالاً وأهدافاً أوفر حسناً، افعلوا ذلك أمْشِ وراءكم وأتبعكم. قد تقولون: خير لنا ألا نتفق وألا نرتبط، ولعلّي أرى رأيكم وأعتقد ما تعتقدون.

إن حديثنا جدّي رزين، وإذا كنتم لا تتنازلون فتصغون إليّ فلن

Twitter: @ketab_n

أركض وراءكم لِأُسْمِعَكُمْ آرائي. إنّ لي سرداباً آوي إليه. ومادمت أعيش ومادامت تختلج في نفسي الرغبات فلتجفّ يديّ إذا حملت إلى منزلكم الكبير هذا حجراً ما، مهما كان صغيراً.

لا تبالوا برفضي القصر الزجاجي لأني لا أستطيع أن أمدّ له لساني. فما قلت له ذلك لأني أحب أن أمدّ لساني قط. وإنما غضبت لأني لا أجد بناء واحداً من هذه الأبنية التي أجهدتم أنفسكم فشيّدتموها، بناء واحداً، على أقل تقدير، لا نستطيع أن نسخر منه. وأنا أطمئنكم إلى أني سأقطع لساني اعترافاً بالجميل إذا أصبح في استطاعتي ألا أرغب في مدّه إليكم.... وسيّان عندي أن يكون هذا مستحيلاً، وأن يكون واجباً علينا أن نقنع بما شيّدتموه من منازل وبيوت.

لماذا خُلِقْتُ على ما فيّ من رغبات؟ أتراني خُلِقْتُ لكي أثبت أن وجودي كلّه ليس إلا عبثاً وخديعة؟ أترى هذا الإثبات هدف وجودي الوحيد؟ ما أظن ذلك أبداً.

وأخيراً أريد أن أقول لكم: إنّي على يقين من أننا نحن معاشر أصحاب السراديب يجب أن نبقى دائماً ملجمين بلجام يكم أشداقنا.

نعم إننا نستطيع أن نعيش في سراديبنا أربعين عاماً لا ننبس ببنت شفة. ولكن حذار حذار، فنحن إذا خرجنا إلى النور وولينا الأدبار هاربين من سراديبنا جئنا معنا بطوفان من الكلام. وها نحن هؤلاء نتكلم ونتكلم ثمّ نتكلم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(11)

والخلاصة، يا سادتي، أنّ من الخير لنا ألا نعمل. الجمود الشاعر أفضل من كل شيء، إذن فَلْيَحيَ السرداب. منذ لحظات أعلنت أنّي أحسد الرجل السوي إلى آخر نقطة من دمي. ولكنّي حين أرى كيف يعيش أرفض رفضاً قاطعاً أن أكون مثله (وأنا مستمر مع ذلك على حسده. كلا! كلا! إن حياة السرداب خير من حياته). في سردابي أستطيع على الأقل أن... آه هأنذا مرة أخرى في طريقي إلى الكذب. أنا أكذب لأني أعرف معرفتي لاثنين في اثنين أربعة أن المسألة ليست مسألة السرداب، ليس هذا السرداب أفضل مما سواه، ولكن هنالك شيئاً آخر غيره هو عندي خير ما على الأرض من خيرات، شيئاً آخر غير السرداب، أظمأ إليه فلا أروي عطشي وأسعى إليه فلا أصل إلى اكتشافه. أما أنت أيها السرداب فإلى جهنم وبئس المصير.

ولكن ما عسى أن يكون خير الأمور؟ ستتعجبون حين أقول لكم في غير مواربة! إنه عندي أن أؤمن بجزء يسير من كل هذا الكلام الكثير الذي كتبته.

أقسم لكم يا سادتي أني لا أؤمن بكلمة واحدة منه، بأصغر كلمة مما كتبت، وإذا أردت أن أكون أكثر دقة قلت إني قد أضيف إليه الإيمان ولكني

Twitter: @ketab_n

في الوقت نفسه، أشعر - ولا أدري لماذا - أني أكذب كما يكذب قالع الأسنان. وها أنتم أولئك تسألونني:

- إذن فعلام كتبت هذه الصفحات كلها؟

وأنا أرد على سؤالكم فأسألكم:

- افرضوا أني سجنتكم في سرداب طوال أربعين عاماً وقضيت عليكم ألا تقوموا بعمل ما، وانقضت السنون الأربعون ثم جئتكم أسألكم: ما فعل الله بكم؟

أيمكن أن يعيش إنسان، وهو وحيد بطال طوال أربعين عاماً؟

وأنتم تقولون لي وتشيرون إلي في اشمئزاز واحتقار:

- هذا عيب!.. هذا أمر مخجل!.. أنت تزعم أنك تظمأ إلى الحياة وتتعطش إلى حل القضايا الحيوية بكل هذه الثرثرات المنطقية المزعومة. وما أكثر ما تغضب غضباً لا مبرر له، ولا حد لوقاحته. وأنت رعديد جبان... وما أكثر ما تنفق علينا من حماقاتك وأنت عنها.. وما أكثر ما ترمينا بالإهانات ثم لا تلبث أن يتقطع قلبك هلعاً فتعتذر منها. وما أكثر ما تقسم أنك لا تخاف شيئاً، وأنت في الوقت نفسه تموت رغبة في معرفة ما نبيت لك وما ننوي أن نفعله بك. ثم إنك تزعم أنك تحرق الإرم غيظاً ولكن علام ترغب كل هذه الرغبة الجامحة في إضحاكنا بمزاحك؟ وأنت تعرف أن مزاحك غثّ بارد ولكنّك مسرور به راض عنه حين تكتبه. نعم إنك طالما تألّمت، وشدّ ما تألّمت ولكنك لا تحترم ألمك. في كلامك صدق ولكن ليس فيه طهر أبداً: إنك بغرورك المسكين تعرضه لكل ما في المحال العمومية من موبقات. في قلبك أمور تضطرم وتستحق أن تقال، ولكن الخوف يخرس

Twitter: @ketab_n

كلمتك الأخيرة الحاسمة. فأنت على رغم ما فيك من وقاحة دنيئة يعوزك العزم الوطيد الضروري لتعبر عن كلمتك الحاسمة هذه وتطلقها مدوّية عاصفة. تفخر علينا أنك إنسان ذو شعور ولكنك لا تفعل شيئاً غير الرياء والمواربة، فما يكاد ذكاؤك يستيقظ ويريد أن يعمل عملاً حتى يكبو قلبك في حمأة الرذيلة. لن تجد في الناس ضميراً صادقاً مفعماً لا يرافقه قلب صاف نقي. أما أنت فلست إلا رجلاً ألدّ ذا خصام. كلّ ما تقوله كذب ثم كذب!

ذلك ما تقولونه لي، والحق أنكم لم تقولوه لي قط، ولكنني أنا الذي اخترعته وتصوّرت أنه هكذا ينبغي أن يكون. تلك كلمات حَبِلَ بها سردابي ثم تمخّض فوَلَدها. تلك كلمات سمعتها طوال أربعين عاماً كاملة طويلة، سمعتها وأنا ألصق أذني بخصاص الباب. أو بثقب المفتاح، ثمّ أعطيتها هذا الشكل الأدبي. أليست هذه الكلمات كل ما أستطيع أن أتخيّله؟ فكيف تعجبون إذن من أني حفظتها عن ظهر قلب وأعدتها على مسامعكم كما حفظتها، ووهبت لها هذا الوجه الأدبي؟

ولكن أخبروني! هل بلغتم من السذاجة حداً تصدّقون فيه أني سأنشر عليكم كل ما شعرت به في سردابي، ثم أقول لكم: خذوه فاقرؤوه؟ هذا سؤال، له أخ مثله فاسمعوه: لِمَ أدعوكم «سادتي»؟ كيف أوجّه لكم كلامي كأني أخاطب قرّاء حقيقيين؟ يستحيل أن تنشر وأن يبعث بها إلى القراءة اعترافات مثل هذه الاعترافات التي أفكّر الآن بكتابتها. لست أستطيع أن أحزم أمري فأسلك هذا السلوك، بل لست أرى له ضرورة. ولكنكم ترون رأي العين أني ذو هوس وأني أريد أن أطمئنه فيسكت عني. ودونكم بيان ذلك:

Twitter: @ketab_n

في ذكريات كل إنسان أمور لا يأتمن عليها إلا حفنة من الأصدقاء الأوفياء، وأمور لا يستطيع أن يأتمن عليها حتى أصدقاءه هؤلاء، أمور لا يأتمن عليها إلا نفسه، بل لعله لا يأتمن نفسه عليها إلا سراً وفي كتمان. وإنها لذكريات تتجمع ويتراكم بعضها فوق بعض حتى يخشاها صاحبها ويخشى أن يستعرضها في قرارة نفسه. وكلما كان الإنسان شريف النفس مستقيم القصد تكاثرت عليه هذه الذكريات. أما أنا فقد قررت منذ عهد قريب أن أبعث بعض ما لقيت في حياتي من مغامرات من مرقدها السحيق. طالما واريتها ودفنتها في قلق غير قليل. وهأنذا اليوم أستعرضها وأحييها وأريد أن أكتب شيئاً منها، فأشعر وأنا أحاول ذلك، أني راغب رغبة جامحة في أن أجد جواباً على سؤال خطير:

أنحن نستطيع حقاً أن نكون صادقين حين نواجه تاريخ أنفسنا؟ أنستطيع حقاً أن نثبت أقدامنا أمام الحقيقة فلا نولي منها فراراً ولا نملأ منها رعباً؟

ذلك سؤال يذكرني بما قاله «هيني»:

«إن كتابة الأديب لتاريخ حياته كتابة دقيقة صادقة أمر لا يكاد يكون ممكناً. إن الإنسان يكذب كذباً متواصلاً حين يتحدث عن نفسه» بل لقد رأى هيني: أن «روسو»، عامداً متعمداً وفي غرور، ليكتب عن نفسه إلا الأباطيل حين كتب «اعترافاته».

وأعتقد أن «هيني» مصيب في رأيه هذا، وإني لأدرك إدراكاً تاماً كيف يستطيع الإنسان أن يحمّل نفسه أوزار جرائم ليرتكبها، ولكنه يدّعي غروراً وكبراً أنه ارتكبها وإني لأدرك تماماً طبيعة هذا الغرور.

Twitter: @ketab_n

ولكن «هيني» يحكم على الكاتب الذي يعترف للناس جميعاً، أما أنا فأكتب ذكرياتي لي وحدي. نعم لقد اتخذت اعترافاتي شكل حوار، فأنا أخاطب القرّاء والقرّاء يخاطبونني، ولكنني لا أفعل ذلك إلا تيهاً وفخراً، ثم إن الحوار يخفف عنّي أعباء الكتابة ويسهّل لي سبيلها. أفعل ذلك تيهاً وفخراً لأني أتصوّر أن لي قرّاء يسعون إليّ ويتزاحمون على بابي، فيا لهذه الشكليات ما أشد فراغها؛ وأنا الذي أعلم علم اليقين أني لن أجد قارئاً واحداً... ولقد أعلنت ذلك من قبل... ولن أرجع عما أعلنت.

لا أريد أن يزعجني في تأليف هذه الذكريات مزعج، كائناً ما كان: لن أرقب نظاماً، ولن أتقيّد بطريقة، بل سأسجّل ما أتذكّر.

ها أنتم هؤلاء تتصدّون لي وتردّون على أقوالي ردّاً مفحماً فتقولون:

«إذا كنت كما تزعم لا تنتظر القرّاء ولا تكتب للناس فلم عاهدت نفسك ألا ترقب نظاماً ولا تتقيّد بطريقة، وحسبك أن تسجّل ما تتذكّر.؟؟ بم تفسّر هذا العهد؟ وإلام يرمي اعتذارك؟»

ومع ذلك فأنا أجيبكم:

- آه! آه! المسألة هنا مسألة نفسيّة معقّدة. أنا كما تعلمون إنسان كثير الخوف، ولعلي من أجل ذلك أتخيّل وجود جمهور أمامي أخاطبه لكي يكون سلوكي سلوكاً مهذباً لائقاً عندما أكتب، ألوف من العوامل النفسية يمكن أن تتدخل.

وأنتم ما تزالون تصرّون على معارضتي وتتساءلون:

- ولم أنت راغب هذه الرغبة العنيفة في الكتابة؟ وعلام أنت

Twitter: @ketab_n

حريص عليها؟ وإذا زعمت أنك لا تنتظر جمهوراً من القرّاء أفلا تستطيع أن تحتفظ بذكرياتك في عقلك، فلا تهب لها الحياة على هذه الأوراق؟.

حسناً. ولكن الذكريات تصبح أكثر إشراقاً وفخامة حين تكتب. الواقع يفرض ذلك عليها فرضاً. عندما أكتب أكون أكثر دقة في الحكم على نفسي، ويزداد أسلوبي غنىً ويكتسب ألواناً. ثم إن في الكتابة عزاء لي وسلوىً. هنالك في حياتي ذكرىً بعيدة تعذبني، وها هي ذي تضطرم في نفسي واضحة أشد الوضوح منذ أيام، وتطاردني وتأخذ عليّ سبلي فكأنها نغمة موسيقية تأبى إلا أن تغني في جنبات نفسي، ولذلك فقط كان حتماً عليّ أن أتخلّص منها.

في حياتي ألوف الذكريات، ولكن ذكرىً واحدة منها تطفو عليها في كثير من الأحيان، فتؤرقني وتأخذ بخناقي. وأعتقد دون أن أعرف ما يبرر اعتقادي، أن خلاصي منها لا يكون إلا بأن أهب لها شكلها الأدبي. فلماذا لا أحاول هذه المحاولة؟ وأخيراً طالما استبدّ بي الملل وأرهقتني السآمة. أنا لا أقوم بعمل ما، وتأليف كتاب ربما عدّ عملاً أو ما يشبه العمل.

يقولون: إنّ العمل يجعل الإنسان صالحاً ونبيلاً، وربما أصابني الحظ فأصبحت من الصالحين الأخيار.

الثلج ينهمر اليوم... وإنه ثلج أصفر قذر يكاد يذوب وقد انهمر الثلج أمس، بل إنه منذ أيام لم ينقطع؛ ويُخَيَّلُ إليّ أن هذه العاصفة الثلجية هي التي بعثت تلك الذكرىً من مرقدها، عنيفة وطيدة، ذكرىً تلك الحادثة... حسناً، حسناً فليكن هذا الثلج الذي يذوب، ملهم هذه القصة التي أهمّ أن أنقلها إليكم.

Twitter: @ketab_n

ثلج يذوب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وكانت حياتي قاتمة سوداء مضطربة قلقة، وحيدة منفردة كأنها حياة وحش، لا أبحث عن إنسان وأفرّ من حديث الناس فراراً، وأخلد إلى زاويتي فأدفن فيها نفسي، وأحاول جاهداً حين أكون في مكتبي في المستشاريّة ألا تقع عيناي على أحد من الناس. ولاحظت أن زملائي يرون أني مخلوق ذو شذوذ، بل لعلهم كانوا يشمئزّون مني، وإلا فما بالهم ينظرون إليّ وحدي هذه النظرة الشزراء.

عندنا في المكتب موظف تملأ وجهه آثار الجدري، وإنه لعمري وجه قبيح كريه كأنه وجه لص، لو كان لي هذا الرأس لم أجرؤ قطّ على النظر إلى زميل.

وعندنا في المكتب موظّف آخر ذو ثياب رثّة بالية، كان طبيعياً لو اقترب الناس منه أن يخجل خشية أن يروها عليه. وعلى الرغم من ذلك فلم يكن ذو الوجه الكريه يخجل من وجهه، ولا ذو الثياب الرثة يستحيي من ثيابه، وأظن أنهما لم يستشعرا قطّ شيئاً من الحياء مهما كان منظرهما ومظهرهما، بل لعلهما لم يخطر لهما في بال أنهما يمكن أن يوحيا إلى الناس إثارة من النفور أو الاشمئزاز، فهما لا يرتبكان أمام أحد إلا أن يشعرا أمام رؤسائهم في المكتب بشيء من الضعة.

واليوم ظهر لي أني كنت أعاني غروراً لا حدود له، وأُحمِّل نفسي ما لا

Twitter: @ketab_n

تطيق وأرهقها من أمري عسراً، فأنا دائماً أنظر إليها في ريبة وحذر، بل في غضب وحقد يبلغان أحياناً حدّ التقزّز. وكنت أظنّ الناس يشعرون نحوي مثل الشعور الذي أشعر به نحو نفسي. وهكذا كنت أكره وجهي وأراه مخيفاً مرعباً وأشعر أن في سيمائه شيئاً من السفارة والانحطاط. ودفعني هذا الشعور إلى بذل جهد مؤلم كلّما دخلت المكتب لكي أكسوه شيئاً من مظاهر الاستقلال وعدم الاكتراث، فلعلّ في هذا المظهر ما يمنع الناس من رؤية ما عليه من دناءة، وربما بذلت جهداً أشد عنفاً لأكسو هذا الوجه أكبر قسط ممكن من ملامح النبل وسمات الشرف. وطالما ردّدت في نفسي هذا الكلام:

– سيّان عندي أن يكون وجهي جميلاً أو غير جميل، فالمهم أن يكون نبيل الملامح يحمل معاني الإيحاء والتعبير، وذكيّاً على الخصوص، ذكيّاً ذكاء حاداً.

ورغم ما أنفقته من جهد لأحمل نفسي على تصديق هذا الكلام الجميل فقد كنت في قرارة نفسي مقتنعاً قناعة تامّة ومؤلمة أن وجهي لم يحمل قطّ هذه الملامح العزيزة الكاملة، بل لقد كنت أجده، ويا للهول ما أجد، وجهاً أحمق بليداً بلادة موضوعيّة واضحة. لقد كنت أرغب في الذكاء رغبة جامحة حتى أنه ليرضيني تماماً أن يرتدي وجهي سيماء الخسة والدناءة شريطة أن يعتبرها الناس سيماء ذكاء حاد خارق.

وكنت طبعاً أكره موظفي مكتبنا جميعاً وألعنهم واحداً واحداً، ولا أستثني منهم أحداً. نعم لقد كنت أحتقرهم وأخافهم في وقت واحد؛ وربما انقلبت الآية أحياناً فرفعت منزلتهم فوق منزلتي وأعليت مستواهم فوق مستواي، والحق أن هذا التناقض كثيراً ما كان ينتابني فجاءة! فبينما أنا أحتقر نفسي كأنها دودة إذا أنا أرفعها فكأنها فوق السماكين، حقاً إن الإنسان

Twitter: @ketab_n

النبيل المثقّف لا يمكن أن تخامره الكبرياء ويداخله الغرور إلا حين يكلّف نفسه ما لا تطيق وإلا إذا احتقرها أحياناً احتقاراً يبلغ حدّ الحقد الأليم.

ولقد كنت دائماً أغضّ الطرف أمام زملائي وأقراني حين كنت أُعَامِلُ في كراهية أو أُعْلِي في غير اتّزان شأن من يجاورني ويقاربني. بل لقد كنت أقوم بتجارب كثيرة طريفة: أتراني أحتمل نظرة هذا المخلوق؟ وهأنذا أرفع نظري إليه فلا يكاد يرتفع قليلاً حتى ينخفض كثيراً؛ فأغضّ طرفي قبله كسير القلب أتألّم حتى يكاد يصبح ألمي غضباً وغيظاً.

وطالما خفت خوفاً مرضياً من أن أكون ذا منظر مضحك أو تصرّف يدعو إلى السخرية، ولذلك فقد خضعت كالعبيد لنمطيّة صارمة قاسية تحدّد علاقتي بالناس وبالعالم الخارجي تحديداً دقيقاً. ولقد أحببت العادات العتيقة والتقاليد الشعبية حباً جماً وخفت أن تبدو عليّ بادرة من البوادر فيها ما يستهجنه الناس أو يرونه أمراً إداً.

وإنّي لأتساءل اليوم: كيف استطعت احتمال مثل هذه العيشة المضنية؟

إنّ تطوّري الفكري مثل كلّ تطوّر فكري يختاره الإنسان المثقف في هذا العصر يثبت أنه تطوّر مرضي سقيم... أما كل هؤلاء الذين يحيطون بي فليسوا إلا ركاماً من الحمقى الأغبياء، ليسوا مثل أولئك المثقفين مطلقاً، ثم إنهم يشبه بعضهم بعضاً كأنهم قطيع من الأغنام.

ولعل أكبر تطوّر في كياني هو ظنّي أني ربما كنت بين موظّفي المكتب جميعاً، الإنسان الوحيد الذي يعتقد أنه عبد ووغد، وليس هذا الظن رجماً بالغيب ولا مجرّد فرض، ولكنه حق لا ريب فيه. نعم أنا عبد ووغد، أعترف بذلك دون جمجمة ولا تردد. والحق أن كل إنسان شريف في هذا العصر الذي نعيش فيه، عبد ووغد، ويجب أن يكون عبداً ووغداً. العبودية

Twitter: @ketab_n

والدناءة حالة طبيعية وأصيلة فيه، وأنا من ذلك على يقين. من أجل ذلك خلق وعلى ذلك ركب. لا علاقة للزمن ولا للظروف العرضية بما جبل عليه. الإنسان الشريف - طوال القرون - كان حتماً عليه أن يكون عبداً ووغداً. ذلك هو ناموس الطبيعة في كل ما على الأرض من نفوس شريفة نبيلة. وإذا استطاعت نفس واحدة منها أن تبدو في يوم من الأيام ذات شجاعة وحليفة بسالة، فلا يغرّنها هذا ولا تأخذنّها الحماسة، فهي لن تلبث أمداً طويلاً حتى تخرّ على ركبتيها أمام أعدائها صاغرة.

ألا إنّها العاقبة الوحيدة والنتيجة الخالدة على الدهر.

الحمير والبغال هم وحدهم الذين يبدون شجعاناً، ثم إن شجاعتهم لا تتعدى حداً معيناً وأجلاً مضروباً، عبثاً تعيرون هؤلاء الحمير والبغال انتباهكم مهما كان ضئيلاً فليسوا من الأمر في قليل ولا كثير.

ومسألة أخرى طالما عذبتني فلم أجد لها حلاً، هأنذا أعيش فلا أرى مخلوقاً يشبهني، ولا أراني أشبه أحداً. وهكذا كنت أردد وأنا سابح في تأملاتي: «أنا وحيد فريد أما هم فكثيرون».

يا له من دليل يثبت أني كنت ما أزال حتى في تلك السن الكبيرة صبياً غريراً.

وبدت في حياتي تغيرات: أصبحت أجد في الذهاب إلى مكتبي مشقّة وعسراً، فإذا خرجت منه خرجت مريضاً. ثم هأنذا فجأة ودون سابق إنذار أسقط في عهد من الريبة واللامبالاة (كل حياتي كانت ذات عهود دورية موقوتة) وإذا أنا أضحك من نفسي ومن تزمّتي وتقزّزي، وأهاجم «رومانطيقيتي» هجوماً عنيفاً.

أمس كنت لا أحب أن أكلّم أحداً، واليوم لم أعد كثير الكلام وكفى،

Twitter: @ketab_n

بل أصبحت راغباً شديد الرغبة في أن أصادق الناس جميعاً. وتبخّر كل ما في قلبي من غيظ وحقد. فيالها من معجزة! ومن يدري؟!

لعلّي لم أشعر قط بغيظ ولا نفور! لاشك أن غيظي كان مصطنعاً لا وجود له إلا في قصاصات من الورق. تلك مشكلة لم أجد لها حلاً منذ اليوم. كيف حدث ذلك؟ ولِمَ حدث؟ إنه سرّ عميق.

وكان في حياتي انقلاب أشد خطراً، كنت أمس أفرّ من الناس فراراً، أما اليوم فقد توطّدت بيني وبين زملائي صداقة شخصية جد صميمة. تبادلنا الزيارات والأنخاب وشربنا الفودكا وضحك بعضنا على ذقون بعض وتحدثنا حديثاً طويلاً عن ترفيعات الدائرة وأوسمة الدولة...

كل ذلك كان، ولكن هل تأذنون لي فأستطرد استطراداً غير بعيد... ليس بيننا نحن معاشر الروس جماعة من هؤلاء الحمقى الذين يحلمون بالنجوم، من هؤلاء الرومانطيقيين الألمان أو الرومانطيقيين الفرنسيين على الخصوص، الذين لا يتأثّرون بحادث ما، ولا يبالون بشيء على ظهر الأرض. فإذا ما انشقّت الأرض تحت أرجلهم لم يروها، وإذا ما انهارت فرنسا كلها بين استحكامات الثوار وخنادق الناقمين لم يسمعوا بها.

هؤلاء الناس من أصحاب الأحلام لا يتغيرون ولا يتحوّلون أبداً، حتى لو كان تغيّرهم مجاملة ومراعاة لآداب اللياقة.

وهم لا يكفّون عن إنشاد النجوم أغانيهم وإسماعها قصائدهم. بل يستمرون في الغناء والنشيد حتى الموت. ذلك لأنهم أغبياء.

أما أرضنا الروسية فليس فيها أغبياء؛ ذلك أمر معروف مشهور. وإنها لمزية تنفرد بها أرضنا دون البلاد الألمانية جمعاء، ومن أجل ذلك لا نجد

Twitter: @ketab_n

في روسيا أبداً هذه الطبائع الإنسانية الحالمة في حالتها العلوية الصافية إن صح هذا التعبير.

إن جماعة من أصحاب دور النشر وفئة من النقّاد «الموضوعيين» في بلادنا هم الذين توهموا أن «كونستنجو جولو» والعم «بيوتر ايفانوفتش» وأضرابهما يمثّلون مثلنا العليا نحن معاشر الروس أصدق تمثيل. وهم في هذا الوهم أغبياء لا يفهمون. ولذلك فهم ينسجون حول الرومانطيقيين منّا نسيجاً موشّىً من الأوهام، ويحيطونهم بهالة من الأخيلة ويصوّرونهم للناس «أبناء للنجوم» مثل أبناء النجوم في ألمانيا وفرنسا. وليس ذلك بصحيح، إن طبيعة الرومانطيقية الروسية معارضة تماماً لطبيعة شقيقاتها في أوروبا. ولا تستطيع المقاييس الغربية أن تنطبق عليها أبداً. (وأستميحكم عذراً إذا استعملت اسم «الرومانطيقية» هذا ولم أستبدل به غيره، ذلك أنه تعبير محتوم قديم، له مكانته الكبرىٰ، يعرفه الناس جميعاً).

وإذا قررنا أن الطبيعتين الرومانطيقيتين في روسيا وأوروبا متمايزتان وجب أن نفصل المزايا التي يتمتع بها الرومانطيقي الروسي. فما هي مزاياه؟ يتميز الرومانطيقي الروسي بأنه يدرك كل شيء، ويرىٰ كل شاردة وواردة، بل قد يرىٰ الأمور في وضوح لا تبلغه أكثر عقولنا موضوعية في كثير من الأحيان؛ ثم إنه لا يحني رأسه أمام شيء ولا أمام شخص، ولكنه في الوقت نفسه لا يحتقر شيئاً من الأشياء؛ إنه يدور حول العقبات ولا يقابلها وجهاً لوجه، ويسالم الناس جميعاً والأشياء جميعاً في لباقة، وهو أخيراً في أثناء ذلك كله لا تغيب عن نظره وغايته النفعية العملية لحظة واحدة: مسكن صغير علىٰ حساب خزينة الدولة يأوي إليه، ومعاش تقاعدي طيّب يُنفِق منه، وأوسمة متواضعة يفخر بها.

Twitter: @ketab_n

وإنها لغاية عملية يجعلها دائماً نصب عينيه، في نشاطه مهما كانت ألوان نشاطه، وحماسته مهما بلغت به حماسته، وفي كل تلك الدواوين الزاخرة بالشعر الغنائي. كل ذلك لا يحول بينه وبين أن يحافظ في قرارة نفسه، وحتى ظلمة قبره، على مثله الأعلى فيما هو «جميل وعظيم» دون أن يغادر لحظة مكانه الدافئ في ثنايا القطن المندوف الناعم الذي يلف به نفسه كأنما هو جوهرة ثمينة، ودون أن يخالجه شك في أنه إنما يفعل ذلك كله طلباً لمصلحة «الجميل والعظيم» الكبرى وحرصاً عليها.

إن صاحبنا الرومانطيقي في بلادنا واسع الذمة وهو نذل يحتل أجمل مكان بين أنذالنا جميعاً... وأنا أعرف ذلك حق المعرفة... أعرفه بالتجربة. كل ذلك صحيح عند الرومانطيقي الروسي الذكي؛ ولكن ما لي أقول الذكي؟: أليس الرومانطيقي ذكياً دائماً؟

وأحب أن أسجّل هنا ملاحظة واحدة: لنفرض أننا وجدنا بيننا نحن معاشر الروس رومانطيقيين أغبياء، فلن يغيّر وجودهم بين ظهرانينا شيئاً من رأينا، ذلك أن هؤلاء الروس قد انقلبوا منذ نعومة أظفارهم ومن أخمص أقدامهم إلى قمة رؤوسهم، إلى ألمان. وهم من أجل ذلك لا يسكنون روسيا، بل يغادرونها حفاظاً على فضائلهم، وإنها لدرة مصونة وجوهرة مكنونة، إلى مكان ما في «ويبار» أو في «شويرز وولد» يقضون حياتهم هناك.

ولأضرب لكم مثلاً وذكرت نفسي: أنا أحتقر في صدق مهنتي، وإذا كنت لا أبصق عليها فما ذلك إلا لأني أتقاضى عليها أجراً. واعلموا أني غير باصق عليها حتى إذا لم تكن لي مصدر رزق. ذلك أن الرومانطيقي منا قد يفقد عقله (وذلك قلّ أن يحدث) ولا يبصق على مهنته إن لم تكن هنالك مهنة أخرى نصب عينيه وإنهم لن يطردوه منها طرد الكلاب بأرجلهم فما

Twitter: @ketab_n

عليه إن بقي فيها؟ وإذا ما حبسوه في مستشفى للمجاذيب وأطلقوا عليه لقب «ملك إسبانيا» فلن يحدث ذلك حقاً إلا إذا جنّ جنوناً مطبقاً.

لا يضيع صوابه في بلادنا إلا هيف القدود وشقر الشعور، أما أصحابنا الرومانطيقيون فإن عدداً لا يحصى منهم يعمّرون ويظلّون سالمين حتى يعلقوا على صدورهم أعلى أوسمة (التشين)[1] قدراً وأرفعها ذكراً.

ما أكثر تلوّن القيم التي يؤمنون بها وما أشدّ اختلافها! وما أقدرهم على معاناة أشد العواطف تناقضاً وتعارضاً! لقد كانت هذه الحقائق المقررة تعزيني أمس وهي اليوم ماتزال تطمئنني. أعرفتم الآن ما يجعلنا نملك هذا العدد الوفير من أصحاب «الطبائع الواسعة» الذين لا يفقدون مثلهم العليا وهم في الشوط الأخير من سقوطهم وانحدارهم؟ ولئن كانوا لا يحرّكون ساكناً ولا يشيرون بأصبع في سبيل الدفاع عن هذه المُثُل العليا وإذا كانت وجوههم وجوه قطّاع طريق ولصوص إقطاعيين فليس في ذلك كلّه ما ينال من قدرهم، فهم مايزالون يحترمون «الجميل والعظيم» وهم ما يزالون يحبونها، وهم قادرون على أن يذرفوا عليها آخر دمعة من دموعهم الغالية. وهم في قرارة أنفسهم يظلّون أشرافاً شرفاً فذّاً ماله مثيل. وأحب أن أقرّر بيننا - فلا حاجة إلى إذاعة هذا السر بين الناس - أن أكثر اللصوص قحة وخبثاً يمكن أن يكون شريفاً شرفاً تامّاً كاملاً في قرارة نفسه في الوقت الذي لا يزال فيه يسلك سلوك السفلة الأوغاد.

أعود فأكرر القول: إن كثيراً من الرومانطيقيين في بلادنا يتحوّلون في كل زمان وفي كل مكان إلى فئة من الأوغاد (وأنا أستعمل هذه الكلمة

---

[1] - مرتبة مدنية أو عسكرية.

Twitter: @ketab_n

ونادى فيرفتشكين بصوته الحاد النافذ:

- في مثل هذه الحالة يجب أن نكسر شدقه.

وغمغم سيمونوف:

- يجب أن نطرده.

وقال زفيركوف في صوت هائل، يحاول تهدئة الأمور والقضاء على الغضب العام الشديد:

- يا سادتي.. كفى.. كفى.. لا تزيدوا كلمة واحدة.. ولا تأتوا بحركة واحدة.. أشكركم جميعاً. أنا قادر على إبداء رأيي في كلماته..

وهتفت:

- أيها السيد فيرفتشكين.. عليك أن تعتذر لي عما بدا منك.

كان صوتي قوياً ولهجتني خطرة.

- إذن فأنت تدعوني إلى البراز.. ولك ما تريد.

كنت وأنا أصوغ دعوتي إلى المبارزة متناقضاً تناقضاً بعيداً:

أما كلماتي فصاعقة تبضّ بالكبرياء، وأما سحنتي فمضحكة، وهكذا دعاهم هذا التناقض إلى الضحك فلم يلبثوا أن ضحكوا مني جميعاً. ثم قال ترودوليوبوف مشمئزاً:

- دعوه.. إنه سكران.

وتمتم سيمونوف:

- لن أغفر لنفسي تسجيل اسمه في عدادنا.

وأما أنا فما أزال مطرق الرأس أفكّر: «تلك هي اللحظة المناسبة لأحطّم هذه الزجاجة على رؤوسهم».

Twitter: @ketab_n

وأمسكت بالزجاجة فعلاً ثم.. ملأت قدحي الفارغ. «كلا.. خير لي ألا أبقى في مكاني حتى النفس الأخير، أيها السادة ستكونون حقاً سعداء إذا ذهبت عنكم.. لا. لا.. لن أذهب، سأبقى هنا عامداً، ولن أكفّ عن الشراب.. سأبقى هنا وأشرب.. لأننا في خمارة.. وقد دفعت حصتي.. نعم سأبقى وسأشرب.. ما أنتم إلا طواويس.. طواويس صغيرة.. طواويس ليس لها وجود.. سأبقى وسأشرب.. بل سأغنّي إذا أردت.. فلي مطلق الحق في الغناء.. اسمعوا».

ورفعت عقيرتي ولم أغنّ..

وأجهدت نفسي كيلا أرى منهم أحداً، وكي أشعرهم أني بهم غير مكترث، وترقّبت نافذ الصبر أن يبدؤوني بالكلام، أن يتحرّشوا بي فلم يبدؤوني ولم يكلّموني. شدّ ما تمنيت أن أصالحهم. ألا إن الصلح سيد الأحكام.

والساعة تدق الثامنة.. ثم التاسعة.. وها هم هؤلاء يتركون كراسيهم على المائدة ويجلسون على الديوان.. وزفيركوف يستلقي على مقعد ويمدّ قدميه إلى منضدة صغيرة.. وها هي ذي الشمبانيا تُقَدَّمُ إليهم هناك.. حقاً إنها ثلاث زجاجات من الشمبانيا ولم يدعوني إليها طبعاً.

كانوا يحيطون بزفيركوف إحاطة السوار بالمعصم. ويشربون كلماته في شره، لا شك أنهم يحبونه. وأنا أسائل نفسي: «لماذا؟ لماذا؟»

وربما تعانقوا في نشوة الخمر؛ وهم بين هذا وذاك يتحدثون عن القفقاس؛ وعن العواطف، وعن المراكز الطبية في الخدمة العسكرية؛ وتحدّثوا أيضاً عن ثروة بودخارجفسكي، وليس فيهم واحد يعرفه، وصرّحوا أنهم جدّ سعداء بهذه الثروة الضخمة، وتحدثوا عن جمال الأميرة

Twitter: @ketab_n

وحدا بي حسدي له إلى دخول المشرب، وقلت في نفسي وأنا ألج قاعة البلياردو: حسناً، لأضربنّهم وليضربنّني، وليقذفن بي من النافذة قذفاً.

لم أكن ثملاً ولا سكران، وماذا تريدون؟ ألا تستطيع السوداء أن تجعلك مجنوناً؟.. ولكني ويا للأسف لم أكن أهلاً لأن يُلْقَىٰ بي من النافذة وهكذا خرجت دون قتال... ولم أُضْرَبْ...

لم أكد أدخل القاعة حتىٰ وجدتني وقد كدت أشتبك في شجار كان خصمي فيه ضابطاً.

وجدتني قرب البلياردو، أعوق اللاعبين ولا أشعر بذلك. وأراد الضابط أن يمرّ، فلم ينذرني ولم ينبهني بكلمة، بل أمسك بي من كتفي وحملني هكذا من مكاني فوضعني في مكان آخر، ثم مضىٰ في لعبه كأنّي لم أكن.

قد أعفو عن ضربات أتلقّاها وصفعات يتعرّض لها حرّ وجهي، أمّا أن أُحْمَلَ حملاً، علىٰ هذا الشكل، أمّا أن أُعَامَلَ كأني بيدق في شطرنج، أما هذا فأمر لا أطيقه أبداً ولا أحتمله.

لست أدري ولا المنجم يدري، بل لعل الشيطان وحده يدري ما كان يمكن أن أفعله بهذا الضابط لو أن نزاعنا كان نزاعاً حقيقياً منظماً أكثر مراعاة لقواعد اللياقة وأكثر «أدباً» لو جاز لي أن أستعمل هذا التعبير. ولكنه لم يكن نزاعاً أبداً، لقد عوملت معاملة الذباب...

كان الضابط طويل القامة، وكنت امرأ هزيلاً معروق العظام منهوك القوىٰ، وهأنذا أثيرها شعواء؛ ولعمري أن إثارتها لتتعلّق بي وحدي: أستنكر ما فعل فَيُلْقَىٰ بي فوراً من النافذة.

ولكني فكرت وقدّرت... ثم إذا أنا أزحف وأنزلق خارج المشرب وأنا أتميّز غيظاً وأتفطّر غضباً.

Twitter: @ketab_n

خرجت مرتبكاً مضطرباً ومضيت رأساً في طريقي إلى البيت... وجاء الغد فتابعت حوادث عهري الحقيرة دون اطمئنان وفي شيء من الحزن أكثر مرارة، أشعر أني كلب مضروب، وتملأ الدموع عيني.. ولكني مع ذلك مستمر في دعارتي وعهري، لا تظنوا أن النذالة هي التي حملتني على الفرار أمام الضابط، فلست، في قرارة نفسي، برعديد ولا جبان، رغم أن القيام بالعمل كان دائماً يخيفني ويرعبني.

لا تضحكوا يا سادتي مني، فالمسألة لها تفسير، وتأويل، واعلموا أن عندي لكل حادث تعليلاً ولكل مسألة تأويلاً...

حبّذا لو كان هذا الضابط ممن يقبل البراز، ولكنه من تلك الطبقة من السادة (الذين انقرضوا ويا للأسف) والذين يفضّلون المضاربة بأعقاب عصي البلياردو على المبارزة بالسيوف، أو على رفع عقيرتهم بالشكوى إلى رؤسائهم، على نحو ما فعل زميلهم الملازم بيروجوف في رواية «غوغول».

وهذه الطبقة من السادة لا تقبل البراز، ولا سيما مبارزة أمثالنا نحن معاشر الحثالة... إنهم يعتبرون البراز عملاً غير معقول ولا مبرر له، عملاً فيه ثورة على التقاليد وتحرّر منها، وسنّة جاءتنا من فرنسا؛ وموقفهم هذا من المبارزة يتيح لهم دائماً إهانة الناس، ولاسيما إذا كانوا طوال القامة مثل صاحبي الضابط.

لم يكن فراري خوفاً ولكنه كان غروراً وكبرياء لا حد لهما. لم تخفني قامة خصمي الطويلة ولا إمكانية أن أُضرَب وأن أُقذَف من النافذة. إن لي من الشجاعة الجسدية ما يكفيني، ولكن الشجاعة الأخلاقية تنقصني، خفت أن أرى الحاضرين يسخرون مني: إنهم ليسوا أهلاً لفهم حججي الدامغة ولغتي الأدبية الراقية: ابتداء من ذلك الوقح الذي يضع النقاط على

Twitter: @ketab_n

اللوح الأسود وانتهاء بهذا الموظّف الصغير، الذي يحمل وجهاً من زاج، ويجري في شرايينه دم متفسّخ، ويضطرب حولي بياقة قميصه الدسمة.

الواقع أن الناس لا يستطيعون أن يتحدثوا عندنا إلا حديثاً أدبياً عن نقاط الشرف لا عن الشرف نفسه، نعم عن نقاط الشرف[1]. أما في اللغة الدارجة فلا مجال أبداً لمسألة «نقاط الشرف».

وعلى الرغم من رومانطيقيتي كلها فقد كنت قانعاً أنهم جميعاً سوف يفطسون، بكل ما في الكلمة من معنى، ضحكاً وهزءاً. زد على ذلك أن الضابط لن يرضيه أن يضربني ضرباً هيناً في غير قسوة ولا عنف، بل سيكيل لي ضربات مبرحات وسيحطم جسمي هذا الهزيل الأعجف حول البلياردو تحطيماً، فإذا أدركته الرحمة بي حملني فقذف بي من النافذة.

ولكن. هل تعتقدون أن هذه الحادثة المشؤومة مرّت ولم تخلّف لها ذيولاً؟ كلا! فطالما لقيت الضابط بعد ذلك في الشارع. لست أدري إن كان قد عرفني فعرف بي ذلك الذي أهانه واحتقره ذات يوم، وأغلب الظن أنه لم يعرفني... أما أنا فلم أنس إهانته، فكنت أنظر إليه شزراً، وأنا حاقد أشد الحقد، غاضب أعظم الغضب، وظللت أرمقه شزراً بضع سنوات!...

ولمتدت جذور حقدي في قلبي وزادتها الأيام سعة وعمقاً. واستقصيت أخباره، وكان استقصاؤها عليّ عسيراً فلست أعرف أحداً أسأله عنه. كنت أمشي ذات يوم وراء عدوّي اللدود وكأني معلّق بساقيه فإذا صديق له يدعوه باسمه فما أشد ما فرحت. أليس عيباً أن يكون لك عدو ثم أنت تجهل اسمه. وتبعته يوماً آخر إلى منزله، وجئت إلى البواب فدفعت له عشرة كوبكات ثم

---

[1] – بالفرنسية في النص.

Twitter: @ketab_n

سألته عنه فعرفت عنه في أي طابق يسكن وكيف يعيش، وهل هو وحيد أو ذو أسرة، عرفت في اختصار كل ما يمكن أن يُعْرَفَ من بوّاب.

وذات صباح شعرت - رغم أني لم أفكّر قط في الكتابة - بالرغبة في تصوير هذا الضابط تصويراً كاريكاتورياً كأنّما هو متّهم بين يدي العدالة. وقررت أن يتّخذ تصويري له شكل قصة صغيرة. وكتبت أقصوصتي في فرح ونشوة؛ وكانت ضبط اتّهام جدّ منظم، ولكني لم أتركه دون تزويق فافتريت عليه افتراء يسيراً، غيّرت اسمه بادئ ذي بدء تغييراً غير بعيد يدلّ عليه دون عسر، ثم بدا لي بعد أن أمعنت في التفكير وقلبت وجوه الرأي أن أغيّره تغييراً تاماً فغيّرته، وأرسلت الأقصوصة إلى «جريدة الوطن» ولكن الهجاء في ذلك العهد لم يكن أمراً مألوفاً ولا طرزاً متبعاً فلم تنشر. وزادني ذلك حقداً ونقمة وشعرت أني أكاد أختنق غضباً.

وعزمت على التحرّش بعدوّي وإثارته، فكتبت إليه كتاباً منمّقاً تفعمه التعابير المنتقاة وتكتنفه التراكيب المتنخلة، رجوته فيه أن يمنّ عليّ فيقدّم إليّ اعتذاره. ولمّحت في غير تردّد إلى المبارزة إذا رفض أن يعتذر. ولقد كان كتابي إليه جيد الأسلوب رائق الديباجة، فلو كان الضابط يفهم جزءاً مما فيه «من جمال وعظمة» لأسرع إليّ يعانقني ويعرض عليّ صداقته ويقدّم إليّ فروض ولائه.

وما أحلى ذلك لو كان حدث! لو حدث لعشنا، عشنا ساعات سعيدة هنيئة. «لو حدث ذلك لاتخذت من ضخامة جسده درعاً أحمي به ضآلة جسدي.. ثم أنميت خصائصه بذكائي وطوّرتها بأفكاري... ثم قمنا معاً بمعجزات، وهل يمتنع علينا أمر لو أنا أصبحنا أصدقاء؟»

ولكن هذا الكتاب لم تدبجه يراعتي إلا بعد سنتين كاملتين من حادث

Twitter: @ketab_n

المقهى، ودعوتي إلى البراز كانت غلطة تاريخية سخيفة، ومع ذلك فقد بذلت كل ما أملك من براعة ومهارة لأعلّل سبب هذا التأخير وأخفيه.

وأخيراً ولله الحمد لم أرسل هذه الرسالة [هذي دموعي تغرورق بها عيناي، وما أزال أحمده سبحانه وتعالى وأثني على آلائه]، وما أزال - إذا ذكرت ما كان يمكن أن يحدث لو أني أرسلت هذه الرسالة - أتجمد خوفاً وهلعاً.

وهأنذا أنتقم لنفسي فجأة انتقاماً سهلاً عبقرياً. يا لها من فكرة نبغت فكانت لامعة.

كنت في أيام العيد أروّح عن نفسي في ساحة نفسكي حوالي الساعة الرابعة، أغدو وأروح في الجهة التي تسطع فيها أشعة الشمس فتحمل إليّ شيئاً من الدفء، بل إنها لم تكن نزهة على التحقيق. كنت أشعر بآلام لا نهاية لها وخجل لا مزيد عليه ونوبات حادة في الكبد. ولعلّي كنت في حاجة أكيدة إليها. كنت أتسلّل بين صفوف المارين في حذر وأتلمس طريقي بينهم في حيطة كأني جري(1) يبتغي في الماء سبيله، وأمحي أمام الجنرالات وضباط الحرس الملكي والسيدات، وكان مجرّد تفكيري في ملابسي الحقيرة، وشخصي الكريه التفه، وأنا أمشي بين الجموع، كافياً لكي يجعلني أختلج تبرّماً وأرتجف ضيقاً.

وتبلورت في ذهني فكرة أصبحت عندي إحساساً ثابتاً مباشراً، يعذّبني عذاباً مقيماً ويحمل إليّ إهانة دائمة لا تزول: لست إلا ذباباً في هذا العالم الفسيح، ذباباً قبيحاً لا خير فيه ولا نفع له؛ نعم إنه دون ريب أكثر ذكاء ونماء ونبلاً من الناس جميعاً ولكنه يبقى رغم ذلك كله ذباباً يخلي الطريق للناس جميعاً إذا مروا به عابرين، ويتلقّى احتقارهم وإهانتهم في كل حين.

---

[1] - الحنكليس - سمك الحيات.

Twitter: @ketab_n

ولكن علامَ أمشي عامداً إلى لقاء هذه المكاره جميعاً؟ علامَ أروح وأغدو في ساحة نفسكي..؟ لست أدري، ولكني أراه دائماً يطبيني ويغويني.

وشرعت أشعر بتلك الموجات من الشهوات التي تحدثت عنها في مطلع هذه الذكريات. أصبحت رغبتي في السير في ساحة نفسكي بعد حادثة الضابط رغبة جامحة لا سبيل إلى ردّها أبداً، هنا كنت ألقاه في كثير من الأحيان وهنا كنت أُعجَبُ به. وهو مثلي يهرع إلى هذا الشارع في أيام الأعياد، وهو مثلي يتسلّل بين الجموع كأنه جري ويمحي أمام الجنرالات والموظفين الكبار؛ ولكنه لقاء ذلك يسحق الأشخاص الذين هم من طبقتي سحقاً، ويشقّ طريقه بينهم شقاً، حتى لو كانوا أكثر مني نظافة وأحسن هنداماً.

كان ينصبّ عليهم انصباباً أو يمشي إليهم على خط مستقيم كأنّما يمشي في مكان رحب ليس فيه أحد؛ لا يتزحزح خطوة واحدة ولا قيد أنملة. ونقمت منه أن أراه و... أنحّي أمامه كلّما مرّ بي؛ وأزعجني ألا أستطيع حتى في الشارع أن أكون له نداً. وطالما رددت في نفسي: «علامَ أُخلِيّ له الطريق»؟ ثمّ يتتابني غضب هستيري.

وأيقظني غضبي ذات يوم في الساعة الثالثة صباحاً. «لِمَ تبدأ أنت فَتُخلِيّ له الطريق ولا يبدأ هو فيخليه لك؟» ليس هنالك قانون يتناول هذا الموضوع وينظمه. الناس سواسية في هذه المسألة يحلّونها فيما بينهم كما تقتضي الأعراف والعادات، وهكذا فإنّ الناس من أصحاب التربية الرفيعة إذا تلاقوا: أخلى أحدهم نصف الطريق، وأخليت أنت نصفه ثمّ مررتما معاً وقد حرص كلاكما على احترام صاحبه.

ذلك ما كان ينبغي أن أفعله؛ ولكني لم أفعله، بل ظللت أنحّي أمامه وظلّ غير شاعر بي. وهكذا انبثقت في ذهني فكرة رائعة «وما عساه

Twitter: @ketab_n

يفعل... إذا لم أفسح له الطريق؟ لن أتزحزح عن موضعي قيد أنملة، وسأدفعه بمنكبي دفعاً إذا اقتضى الأمر... ما عسى أن يحدث؟» وأرهقتني هذه الفكرة ومنعت عيني الرقاد وحرمتني الهدوء. وجعلت أحلم بهذا اللقاء وأتصوّره مخيفاً مرعباً، وجعلت أتعمّد الذهاب إلى شارع نفسكي وأمثّل دوري في الصدام القريب يوم أمضي إلى تنفيذ الخطة المرسومة. وكنت أتحرّق شوقاً وأضطرم حماسة وبدا لي الأمر يوماً بعد يوم أقرب متناولاً وأدنى إلى التحقيق.

وقلت في نفسي «لن أدفعه دفعة شديدة ولا شك» وشعرت سلفاً أني أصبحت طيب النفس مسروراً، لن أتزحزح أبداً.. وسأصدمه ولكني لن أوجعه.. كتف بكتف... هكذا تقضي قواعد اللياقة.. ضربة بضربة.. والبادئ أظلم.

وأخيراً أجمعت أمري واتخذت قراراً لا سبيل إلى ردّه أبداً. ولكن مرحلة الاستعدادات استغرقت زمناً طويلاً. كان عليّ أن أبدأ قبل كل شيء فأجعل لباسي خيراً مما كان. «لنفرض أن المعركة نشبت بيننا... الجمهور كثير الأناقة حسن الهندام... هاهنا كونتيسة... وأمير... وزمرة من الأدباء» إذن فعلي أن أستبدل لباسي هذا العتيق لباساً جديداً، إن لباسك يفرض احترامك على الناس فرضاً ويدعم شخصيتك دعماً، ويجعلك فوراً مساوياً لكل إنسان أيّاً كان، في نظر المجتمع الراقي.

وهكذا طلبت سلفةً على راتبي واشتريت قفّازاً أسود، وقبّعة مناسبة من محلات «تشوركين» وبدا لي القفاز الأسود ملائماً ولعلّه أن يكون أكثر ملاءمة من القفاز الأصفر الذي فكّرت من قبل فيه. وقلت في نفسي: «إنه جميل.. إنه لائق» وجعلت أصطنع مظهر من يحب أن يكون موضعاً لملاحظة الناس. ثم

Twitter: @ketab_n

فكّرت فعدلت عن اصطناع هذا المظهر، وكنت قد أعددت منذ أمد بعيد قميصاً ذا أكمام وأزرار من عاج.. ولم تبق إلا مشكلة واحدة هي مشكلة المعطف، وإنها معضلة لا أجد لها حلاً. معطفي هذا لا بأس به وهو يدفئني ولكنه ويا للأسف قطني ذو نسيج مضاعف، وله ياقة من جلود صغار الفئران[1] ولعلّه أن يكون في الحقيقة معطف خادم. وكان علي أن أستبدل بهذه الياقة واحدة مصنوعة من جلود كلاب الماء[2]، فالضباط جميعاً يلبسون هذه الجلود. ومضيت إلى محلات (غوستيني دفور) وسقطت بعد لأي على واحدة من نوع ألماني رخيص. نعم إن هذه البضائع الألمانية سرعان ما تهترئ فتهب لصاحبها مظهراً من البؤس والإملاق، ولكنها إذا كانت جديدة تؤثر تأثيراً طيباً، ثم إني لست في حاجة إليها إلا مرة واحدة: وسألت عن الثمن وإذا هو رغم ذلك باهظ، فقررت أن أبيع ياقتي من جلود الفئران الصغار وأستدين ما تبقى من المبلغ من مدير المكتب «انطون انطونوفتش سيتوشكين»؛ والحق أن رئيس مكتبنا رجل رقيق الحاشية جدّي رزين؛ ولكنه لم يكن يقرض أحداً مالاً، ولكنني عندما عيّنت في المكتب أوصاه بي رجل ذو مكانة وصية حسنة.

ها هنا بدأت أشعر بآلام جديدة: أليس عيباً أن أسأل انطون انطونوفيتش مالاً؟ وأرقتني هذه الآلام ليلتين أو ثلاث ليال رغم أني كنت لا أنام نوماً حسناً خلال ذلك العهد كله. كنت محموماً وخيّل إلي أن قلبي يكف عن الخفقان حيناً ثم يعود فيثب في صدري وثباً.

وتولت الدهشة انطوان انطونوفتش بادئ ذي بدئ ثم حلّ حاجبيه وفكر قليلاً، وأخيراً وافق على أن يقرضني المبلغ. ووقعت ورقة أتعهّد فيها برد

---

[1] – المراتون.

[2] – الكاستور.

Twitter: @ketab_n

الدين خلال أسبوعين على أن يحسم من راتبي. وهكذا تم كل شيء، وحلّ الجلد الكلبي الجديد الجميل محل الجلد الفأري القديم القبيح؛ وعدت إلى دراسة خطة العمل ومنهاج الصدام جزءاً جزءاً لا أترك فيهما شاردة ولا واردة.

قد يقول السفهاء من الناس: أما كفاك بحثاً وتنقيباً؟ ولكن: أليس يستحيل علي أن أقوم بعملي رأساً دون أن أتخذ للأمر أهبته؟ يجب أن تضرب ضربتك وأن تحسب في دقة وتؤدة وتأنّ حساب كل شيء.

وقمت بمحاولات أولية فأخفقت وأصرّح أني كدت أيأس. لم نستطع أن نصطدم. إذن فلعلّي لم أستعد كما كان ينبغي لي أن أستعد، ولعلّي لم أستكمل أهبتي؟ ولكن أتراني لا أريد الصدام؟ كلا! فها نحن أولئك نوشك أن نصطدم.. بل لقد اصطدمنا فعلاً.. ورأيتني أتخلّى له عن الطريق خاسئاً حسيراً.. ورأيته يمرّ بي فلا يلحظني ولا يشعر بوجودي...

وجعلت أتضرّع إلى الله وأصلّي وأدعوه أن يجعل لي من أمري يسراً وأن يهب لي الحزم والعزم. وأخيراً أدركت أني مستعد للأمر استعداداً كاملاً، ومضيت إليه وكدت أُلقي نفسي عليه ولكني لم أُلقِ بها إلا بين ساقيه... لقد خانتني الشجاعة قبل خطوتين اثنتين منه. خانتني في اللحظة الأخيرة... ورأيته يمرّ إلى جانبي في هدوء ورأيتني أرتمي عن يمينه وكأني كرةٌ صغيرة..

واستبدّت الحمّى بي في تلك الليلة الليلاء. وجعلت أهذي... وفجأة تمّ كلّ شيء على خير ما يرام.

قررت في صباح تلك الليلة المشؤومة أن أتخلّى نهائياً عن ذلك المشروع المنحوس، وأن أكفّ عن كلّ محاولة.. ومضيت مرة أخرى إلى شارع نفسكي كي أشهد دفن مشروعي هذا إلى الأبد. ولكن هأنذا على بعد خطوات ثلاث من عدوّي اللدود.. وهأنذا أتّخذ قراري الرهيب...

Twitter: @ketab_n

وأغلقت عيني. وكان بيننا صدام قوي... كتفاً بكتف... لم أتراجع قيد أنملة واحدة، وغدوت له نداً... ولم يلتفت إليّ.. وتظاهر أنه لم يلحظ شيئاً... ولكنّي على يقين من أنه أراد أن يخفي عن أعين الناس ما حدث له.

أما أنا فأصابني من الألم فوق ما أصابه، لقد كان أشدّ مني قوّة، ولكن مالي أذكر ذلك؟ المهم أني أدركت غايتي وحفظت كرامتي ولم أتراجع قيد أنملة.

وأخيراً أصبحت له نداً أمام الناس جميعاً.

وعدت إلى بيتي، وقد انتقمت من كل شيء، عدت وأنا أشعر بالفرح والحماسة.. أنا منتصر ظافر.. وأنشدت أناشيد إيطالية حماسية. ومضت أيام ثلاثة: عبثاً أحاول أن أذكر لك ما شعرت به، ولكنك لو قرأت الفصل الأول من «السرداب» لاستطعت إدراكه وعرفت كنهه.

ونُقِلَ الضابط إلى قطعة ثانية... ولم أره منذ أربعة عشر عاماً.. ماذا تصنع اليوم أيها الصديق العزيز؟ ومن عساك تسحق؟.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

وتنتهي فواحشي الصغيرة، فإذا أنا أجدني كسير الفؤاد أكثر مما كنت في كل وقت.

أرهقني تأنيب الضمير فأخرسته وخنقت صوته ولكني بقيت كسير الفؤاد. ثم ألفت ألمي شيئاً فشيئاً، إن كان يمكن أن يألف المرء كسر قلبه، وما أظن ذلك صحيحاً. ووطنت نفسي على الصبر على الأحداث ورأيت لي منفذاً ينقذني من ألمي: أن أفرّ إلى «الجميل والرفيع» فراراً، لا في اليقظة، فاليقظة لا أجد فيها لهما أثراً، ولكن في الأحلام. وهكذا جعلت وأنا قابع في عقر ركني الحقير أحلم ثم أحلم، وامتدت أحلامي طوال ثلاثة أشهر متتابعات. صدقوني إذا قلت لكم إني كنت في تلك الأيام لا أشبه قط ذلك السيد الذي وضع لمعطفه ياقة جديدة من جلود كلاب البحر؛ وخيّل إلي أني بطل من الأبطال لو عرض عليه صاحبه ذلك الضابط الكبير زيارته في بيته لما رضي بها ولردّها رداً عنيفاً؛ بل إني نسيت ذلك الضابط فلم يكد يخطر لي في بال.

إذن فما عسى أن تكون أحلامي؟ وكيف كنت بها راضياً؟ عسير علي أن أجيب اليوم، ولكني أقرر أنها كانت آنذاك تكفيني، ولعلها اليوم ما تزال لي كافية....

Twitter: @ketab_n

كانت أحلامي تنتابني أشد عنفاً وأكثر لذّة بعد عمل من أعمال التعهّر. ممزوجة بنوبات من التوبة، ودفقات من الدموع وسيل من اللعنات وموجات من الحماسة وأقسم لكم أني عرفت آنذاك لحظات كنت فيها نشوان وكنت فيها سعيداً وكانت نشوتي وسعادتي كاملتين لا يعكّر صفاءهما معكّر. وليس يخالطهما أثر ما من آثار السخرية الباطنية. لقد عشت الإيمان والأمل والحب. وتوقعت في إيمان أعمى أن تحلّ بي معجزة أو تحدق بي ظروف خارجية جديدة تمسك بهذه الآفاق التي أتخبط فيها فتردها عني إلى وراء، وتوسعها أمام ناظري فتغدو طلقة رحيبة.

وبدت أمام عيني ساحة فاعلية مديدة الجنبات تلائم حاجاتي، فاعلية منتجة مبدعة جميلة «وجاهزة» على الخصوص [أنا لا أعلم نوع هذه الفاعلية ولكن المهم عندي أنها كانت «جاهزة» سلفاً].

وهأنذا فجأة أدخل ميدان العالم الكبير وأخوض معمعان معاركه. وعلامَ لا أفعل ذلك؟ وقد امتطيت صهوة جواد أبيض وكللت رأسي بتاج من الغار. لن أرضى في حياتي الجديدة بدور ثانوي مغمور، وإن كنت أرضى بآخر الأدوار قيمة في الواقع، بطل عظيم أو مخلوق تعس: لا توسط بين الحدّين. ذلك الذي أضاعني وقضى علي، فما كنت هذا ولا كنت ذاك، ولكني كنت وأنا غريق في الطين أجد عزاء لي وأنا أظن أني قد كنت أحياناً بطلاً.. إن البطل يستطيع أن ينسينا الدناءة... والإنسان العادي يشعر بشيء من المهانة إذا أصابته الأقذار، أما البطل فيرتفع ثم يرتفع عالياً حتى يستطيع الطين أن يغمره كله. إذن فأنا أستطيع أن أتمرّغ في القذارة ثم لا أخشى شيئاً.

Twitter: @ketab_n

ما أغرب هذا الأمر: لم تكن نوبات «الجميل والعظيم» تزورني إلا بعد حوادث دعارتي وذلك حين أكون في قعر الهاوية. كانت تفجؤني متقطعة متواترة كأنها تريد أن تذكرني بوجودها، ولكنها كانت عاجزة رغم ذلك عن القضاء على سودائي، بل لعلها كانت على عكس ذلك تُهيِّجُ رغباتي عناداً منها ومشاكسة، فهي لها مثل التوابل في الطعام. وهذه التوابل مجموعة من التناقضات والآلام والتحليلات النفسية الموجعة. ولقد كانت هذه الألوان من العذاب، وهذه الضروب من التفجّعات تهب لمسراتي لذعاً كأنه وخز الإبر بل ربما وهبت لها شيئاً من المغزى؛ حقاً لقد كانت تلعب دورها وهو دور المرق الذي لا فائدة فيه ولكنه يجعل الطعام لذيذاً.

كان كل ما في حياتي لا يخلو من عمق غير قليل. أأقبل دعارة عادية مسطحة، دعارة صادقة خالية مما يستحق أن يسجّل في الكتب، ثم أحمل هذا الطين كله؟! كلا ثم كلا... لو كان ذلك كذلك لم يستطع شيء من الأشياء أن يغويني ويستهويني ويخرج بي عن الصراط المستقيم، ولعمري إني لأشعر في أعماق روحي بنبل يتفتّح للحياة.

يا إلهي! كم من حب، أجل، كم من حب عشته في أحلامي تلك، خلال شطحاتي في عالم «الجمال والعظمة» وإنه لحب خيالي جموح ليس فيه عنصر من عناصر الجسد، ثم إنه كثير كثرة لا أشعر فيها بالحاجة إلى تحقيق هذا الحب تحقيقاً عملياً. ذلك أن تحقيقه ترف زائد لا نفع فيه.

كان كل ما في حياتي يتم في تبدّل كسول مثير: كأنما حياتي أثر فني جميل. ولقد كنت أجد هذه التعابير الفنية في شكولها الجاهزة أستعيرها من

Twitter: @ketab_n

الشعراء والكتّاب الروائيين، فتَطْمَئِنُ كلّ ما في روحي من أشواق وحاجات...

وهكذا أنتصر مثلاً على العالم كله. لقد سحقت الناس سحقاً فهم يعترفون بفضائلي صاغرين، وأنا أعفو عنهم جميعاً عفو القادرين.

وهكذا أغدو شاعراً عظيماً، شاعر البلاط، وأصبح عاشقاً ولهان... وتلك الملايين والملايين من الدنانير التي تَرِدُ إلى خزائني من كل جانب أهبها هبة خالصة للناس جميعاً، وهأنذا وقد تجمهروا حولي زرافات زرافات يتلقّفون هباتي، هأنذا أقف خطيباً فيهم فأعترف أمامهم بكل ما اقترفت من آثام وبكل ما ارتكبت من موبقات. وآثامي هذه ليست مثل آثام الناس عادية أرضية ولكن فيها كثيراً من «الجمال والعظمة».

والناس يهرعون إليّ من كل صوب وهم يبكون ويتحبون، ويعانقونني في حب وحنان [وهم إن لم يفعلوا ذلك كله كانوا هم الأغبياء]. وهأنذا أمضي في طريقي حافي القدمين، ميتاً من الجوع، أبشّر بالأفكار الجديدة وأدعو الناس إليها وأَرُدُّ إلى جادة الخير والحق كل العقول الرجعيّة في أوسترليتز[1]. وسنمضي من هناك جميعاً فنغزو العالم كله وتنتهي غزوتنا بعقد هدنة عامة. البابا يوافق على أن يغادر روما إلى البرازيل... وإيطاليا كلها تحيي حفلة راقصة كبرى في قصر بورجيز على ضفاف بحيرة «كوم»[2]،

---

[1] – مدينة في مورافيا حدثت فيها معركة الأباطرة الثلاثة أباطرة فرنسا وروسيا والنمسا وتمّ فيها النصر لنابليون. [المعرّب]

[2] – كوم: بحيرة في لومبارديا شمالي إيطاليا. [المعرّب]

Twitter: @ketab_n

ذلك أن هذه البحيرة نقلت إلى روما احتفاء بهذه المناسبة... وتنتهي الحفلة بتمثيل رواية رائعة بين أدغال القصب... وهلمّ جراً... أخبروني: ألا تعرفون هذا كله؟ ألم تتوقعوا حدوثه؟

وستقولون لي: أحلامك هذه التي تعلنها عالياً فيها حماقة وفيها دناءة ولاسيما بعد تلك الاعترافات التي بلّلتها دموعك وحفت بها شهواتك. وأنا أسائلكم! لماذا تكون هذه الأحلام دنيئة؟ أتظنون أني أستحيي منها؟ وهل تعتقدون يا سادتي أن أحلامي أكثر حماقة وغباوة من الحوادث التي صنعت منها حياتكم؟

صدقوني إذا قلت لكم: إن أحلامي كلها، كانت مرتبة ترتيباً دقيقاً، فما على ضفاف بحيرة «كوم» وحدها تحدث كل الأحداث... ومع ذلك فأنتم على حق... وأنا أعتقد كما تعتقدون أن أحلامي غبية دنيئة ولكن! هل تعرفون ما هو أكثر دناءة منها؟ أن أحاول تبرير موقفي أمامكم.. ثم هل تعرفون ما هو أشد غباوة منها: أن أضيف هذه الملاحظة الأخيرة... كفى كفى.. ما أرى إلا أنا لن نتهي من هذا الحديث أبداً.. وإنه لعمري تدهور مستمر من نذالة إلى نذالة...

لم تمتد بي هذه الفترة من الأحلام إلا ثلاثة أشهر ثم شعرت برغبة جامحة لا سبيل إلى ردّها تدعوني إلى الانغماس في هذا العالم والغرق في مشكلات الناس. وانحصرت هذه الرغبة في زيارة مدير مكتبنا انطون انطونوفيتش سيتوشكين. ولقد كان هذا الرجل طوال حياتي، الصلة الوحيدة التي تربطني بالناس. وما تزال هذه الصلة تدهشني.

ولم أقم بزيارته إلا بعد أن عشت لذاتي الداخلية جميعاً وتذوّقت

Twitter: @ketab_n

السعادة في أحضان أحلامي، وشعرت بحاجة قتّالة مطلقة إلى أن أعانق أمثالي من الناس، بل إلى أن أعانق الإنسانية جمعاء. ومن أجل ذلك كان ينبغي أن أجد إنساناً واحداً حقيقياً من لحم ودم. ولم أستطع زيارة انطون انطونوفيتش فوراً، فهو لا يستقبل الناس إلا يوم الثلاثاء، ولذلك فقد اضطررت إلى أن أرجئ إلى مثل هذا اليوم إرواء غليلي: أن أعانق الإنسانية جمعاء.

كان انطون انطونوفيتش يقطن في حيّ «الزوايا الخمس» منزلاً في الطابق الرابع ذا حجرات أربع واطئة صغيرة، مظهرها بائس ولونها قذر أصفر. وكانت له بنتان: واحدة في الثالثة عشرة من عمرها والأخرى في الرابعة عشر، ووجدت عمّتهما تعدّ المائدة. وقد أثارت ارتباكي هاتان الطفلتان بأنفيهما الأفطسين ولم تكفّا لحظة واحدة عن الوشوشة في الآذان وعن الضحك ضحكات صغيرة مكتومة.

وجلس ربّ البيت حسب عادته في غرفة عمله على ديوان جلدي أمام منضدة، يرافقه موظف ذو شعر أبيض. لست أدري إن كان موظفاً في مكتبنا أو في مكتب آخر. ووجدت هنالك ضيفين اثنين أو ثلاثة يتحدّثون عن الضرائب غير المباشرة وعن جلسات مجلس الشيوخ، وعن الرواتب والترفيعات. وعن أمور تتعلّق بسيدنا الأمير... وعن الطرق المؤدية إلى إدراك رضا الرؤساء. وصبرت صبر أيوب فبقيت جالساً في مكاني أربع ساعات كاملات وأنا أصغي إليهم في غباوة، لا أجرؤ على الحديث وأبحث عن موضوع أقول فيه كلمتين فلا أجده، وغدوت بليد الإحساس وغسلني العرق مرات عديدة متلاحقة، وخُيِّلَ إلي أني سيصيبني الشلل عما قريب..

Twitter: @ketab_n

ولكن ذلك كان نافعاً لي، فقد عدت إلى بيتي وعزمت على تأجيل تحقيق رغبتي في عناق الإنسانية جمعاء.

وكانت لي صلة عجفاء بزميل قديم في المدرسة يدعى سيمونوف. لو أردت لكان لي في بطرسبرج زملاء كثيرون، ولكني كنت لا أزورهم بل كنت إذا التقينا في الطريق لا ألقي عليهم السلام منذ عهد بعيد. ولعلّي لم أطلب نقلي إلى مكتبي الجديد إلا لكيلا ألقاهم ولكي أفصم كل ما يصلني بذكريات طفولتي الكريهة فصماً تاماً. ولقد لعنت مدرستي ولعنت سنوات الدراسة وما كانت غير سنوات سجن رهيب، ولم أكد أتحرر من حياة الدراسة حتى قطعت علاقاتي بزملائي جميعاً ما عدا اثنين أو ثلاثة منهم ظللت أحييهم حين ألقاهم، ومنهم سيمونوف هذا.

لم يكن صاحبي ذا مزية في المدرسة، كان دائماً لطيفاً معتدل المزاج، ولكنه أدهشني بما في سجاياه من حرية ونبل، وما أظن أن تفكيره كان محدوداً جداً؛ وتذوّقنا معاً ساعات قصيرة طيبة، ولكنها ويا للأسف لم تدم طويلاً فسرعان ما لفّها الضباب.

ولعل سيمونوف كانت تزعجه ذكريات الطفولة كما تزعجني فيخشى أن نستعيد أواصر الماضي، ولعله كان ينفر مني بعض النفور ومع ذلك فقد كنت أزوره الفينة بعد الفينة.

وهكذا فكّرت في زيارته ذات يوم من أيام الخميس، وقد عجزت عن حمل وحدتي وعرفت أن مدير مكتبنا يوصد بابه في هذا اليوم.

وهأنذا أصعد الأدوار الأربعة وأرى أني ربما أزعجت هذا الرجل وأني مخطئ إن زرته، ولكن مالي ولهذه التأمّلات والأفكار؟! لقد عودتني

Twitter: @ketab_n

دائماً أن تنتهي بي إلى استثارة رغبتي وإضرام حاجتي إلى المواقف المتناقضة ذات الشبهات. وهأنذا أقرع الباب. أين سيمونوف؟ إني لم أره منذ سنة تقريباً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

وجدت عند سيمونوف زميلين من زملائي القدماء. وبدا لي أنهم يبحثون في أمر خطير. ولم يهتم أحد بدخولي ولم يرحب بي أحد. ما أغرب هذا الموقف، ونحن الذين لم نلتق منذ سنوات. لا شك أنهم جميعاً يعتبرونني دودة ليست ذات قيمة أو ذباباً ليس بذي خطر. الحق أني لم ألق أبداً مثل هذه المعاملة. حتى حين كنت في المدرسة تلميذاً يكرهه الناس أجمعون.

الظاهر أنهم يحتقرونني ويزرون بي، وأنا أعلم حق العلم أن احتقارهم راجع إلى أني مُنيت بالإخفاق فلم أنجح في عملي ولا وظيفتي، وإلى طريقتي في الحياة، وإلى هذه الثياب الرثّة البالية التي ألبسها، كل هذه الأمور تدل في نظرهم على أني إنسان ليس بذي كفاية ولا هو ذو قيمة.

ولم أكن أتوقع مثل هذا الاحتقار العنيف، أما سيمونوف فقد استغرب زيارتي، ولكنه كان دائماً لا يستطيع سبيلاً إلى إخفاء دهشته حين أدخل عليه في غرفته، وارتبكت قليلاً ثم أخذت مكاني وأنا غارق في سودائي، وجعلت أصغي إلى نقاشهم.

كان حديثهم فيه جد ولعله كان شائقاً حماسياً. إنهم يريدون أن يقيموا حفلة عشاء على شرف زميل لهم يدعى «إيفرنوف» وهو ضابط في

Twitter: @ketab_n

الجيش سيغادر بطرسبرج إلى الأقاليم صباح غد. وكان السيد[1] ايفرنوف هذا زميلي أيضاً كما كان زميلاً لهم. كان في الصفوف الأولى من المدرسة ولداً نشيطاً طيباً يحبه الناس جميعاً ولكني بدأت أكرهه عندما انتقلنا إلى الصفوف العليا. بل لعلي كنت أكرهه قبل ذلك لسبب واحد هو أنه كان كثير اللطف، كثير المرح، ولقد كان كسولاً لا يجتهد ولكن كسله لم يحل دون نجاحه في المدرسة نجاحاً باهراً لأنه ذو صلات وعلاقات.

وفي أواخر عهود المدرسة ورث ايفرنوف وراثة طيبة: مائتين من الأقنان وكنّا جميعاً فقراء فجعل يزهى علينا ويتخذ مظهر الرجل ذي القيمة. ولقد كان غبياً غباء تاماً ولكنه مع ذلك «صبي باسل» حتى فيما يثير حوله من ضجة فارغة ودعاوى جوفاء. وكنا نحن الطلاب رغم ما ندّعيه من إحساس بالشرف وحرص على الكرامة الشخصية، وإنها لعمري مظاهر خارجية موهومة، كلها ثرثرة ونفاق؛ نتمسّح به في ذلّة ونسعى وراءه في خضوع، ونبغي رضاه. ويشعر صاحبنا بموقفنا فيستغلّه ويزهو علينا كالطاووس المنفوش. وكان الطلاب يطيفون به ويدورون حوله لا لأنهم يبتغون من ورائه الربح ويرجون الاستفادة، ولكن لأنه كان ذا هبات وهبتها له الطبيعة فأحسنت فيما وهبت. ثم إنهم كانوا يرونه خبيراً بشؤون الحياة وطرائق العيش ومقتضيات السلوك؛ وإنها لخبرة كانت تثيرني وتلقي بي في غضب أسود ليس له مثيل. كنت أكره صوته الحاد، ولهجة حديثه المطمئنّة الواثقة بذاتها. والكبرياء التي تبدو في خطوط تفكيره، والتي كان يحاول أن يخفيها فتأبى إلا أن تظهر بليدة حمقاء، رغم جهوده ورغم ما في حركاته من رشاقة ولباقة.

---

[1] – بالفرنسية في النص.

Twitter: @ketab_n

كنت أفرق من وجهه الجميل الغبي (وطالما سرّني أن أعارض هذا الوجه الغبي بوجهي الذكي)، وكنت أجزع من حركاته الحرة وسكناته الطلقة «لقد كان حقاً نموذجاً من نموذجات الضباط حوالي سنوات 1840». وكنت أكره على الخصوص كل ما كان يتبجّح به من نجاحات باهرة منتظرة في علاقاته بالنساء، وفي ما يتوقعه من مبارزات لا يمكن أن يتجنبها مع أزواجهن الغيارى (نعم إنه حتى الآن لم يجرؤ على مغازلة النساء، لأنه لم يضع على كتفه أشرطة الضباط، ولكنه ينتظرها في صبر فارغ).

وما أزال أذكر كيف نشب بيني وبين ايفرنوف نزاع عنيف، وأنا التلميذ الصامت أبداً الذي لا يكاد ينطق بكلمة.

ها هو ذا يقضي فرصة كاملة بين درسين وهو يقصّ على زملائه قصة مغامرة سوف يخوضها في المستقبل؛ وأصابته فجأة نوبة من الحماسة فأصبح كالكلب الأوبر يتقلّب في الشمس. وأقسم أنه لن يترك صبية واحدة من صبايا قريته تفلت من بين يديه. إن هذا حق من حقوقه «كسيد إقطاعي ذي أملاك» وإذا ما تجرأ الفلاحون فعارضوا مشيئته، فوالله ليسحقنّهم سحق عزيز مقتدر، وليفرضنّ على هؤلاء الأنذال البرابرة ضريبة مزدوجة... وصفّق له الطلاب الأوباش، أما أنا فقد انفجرت غضباً. لم أغضب شفقة على أولئك الفتيات، ولا رحمة بآبائهن ولكنني انفجرت لأن مثل هذه الحشرة الحقيرة تستطيع أن تحظى بهذا التصفيق. ولقد تمّ لي النصر في ذلك اليوم المشهود. ولكن ايفرنوف، على ما فيه من غباوة، استطاع بمرحه وقحته وبما له من مهارة أن يقوم بتعديل موقفه تعديلاً جنح به إلى

Twitter: @ketab_n

مصلحته، وأحال نصري الساحق إلى نصر غير كامل وجعل الطلاب الساخرين يلتزمون جانبه ويدافعون عنه.

وبدا بعد ذلك، مرات، أكثر قوة مني، ولكني في غير خبث، ودون أن يمسّني، وهو مرح دائماً ضاحك أبداً. أما أنا فالتزمت جانب الصمت المحتقر الماكر.

وحاول في نهاية دراستنا أن يتقرّب إليّ، فكنت أتردد وأقاوم قليلاً لأن في هذه المقاومة ما يداعب أنانيتي ويرضيني. ولم نلبث أن افترقنا في شكل طبيعي. وسمعت بعد ذلك أنباء نجاحه في الجيش وعند النساء... وترامت إليّ أصداء عن تقدّمه السريع وترفيعه المتواصل. وكان إذا تلاقينا في الشارع لا يحييني ولعله كان لا يريد أن يقع في ورطة مع مخلوق مثلي ليس بذي شأن، ورأيته مرة في المسرح في غرفة خاصة في الدور الثالث، وكان يزيّن صدره بالأوسمة والنياشين، ويجهد نفسه في خدمة بنات جنرال عجوز كان هنالك.

ومضت ثلاث سنوات بعد ذلك لم أره فيها، ثم رأيته وقد تغير تغيراً كبيراً! كان ما يزال جميلاً أنيقاً ولكنه أصبح سميناً بل لعله أصبح ثقيلاً مترهّل اللحم في الثلاثين من عمره.

إذن فزملائي يريدون أن يقيموا حفلة وداع لـ«إيفرنوف» هذا عشية سفره؛ وعلمت من أحاديثهم أن علاقاتهم لم تنقطع به طوال تلك السنوات الثلاث، وأنهم مايزالون يعتبرون أنفسهم أدنى منه منزلة وأقل شأناً، فهم ليسوا له بأنداد ولا نظراء.

أما أحد الزميلين اللذين وجدتهما عند سيمونوف فهو «فيرنتشكين» وكان أيام كنا في المدرسة طالباً بليداً يسخر منه الناس جميعاً، وكان ألد

Twitter: @ketab_n

أعدائي منذ سنوات المدرسة الأولى. إنه صلف مدّع، ودنيء وقح، وحسود إلى درجة الجنون، وجبان رعديد أمام الحياة. وكان من الذين أعجبوا بايفرنوف وأصبحوا له أنصاراً يقترضون من أمواله. ولست أدري إن كانوا يعيدون له ما يقترضون منه، وأما الآخر فكان «ترودو ليوبوف» وهو لا يتمتع بمزية ما: عسكري ذو جسم ضخم، وسيماء باردة حيية على وجه العموم، ولكنه يزحف زحف المستكين أمام كل نجاح، وهو لا يتحدث إلا عن المراتب والأوسمة، وكانت تربطه بايفرنوف صلة قرابة بعيدة فتهب له في أعيننا شيئاً من المكانة، وكان موقفه مني موقفه من مخلوق لا شأن له. ولكن سلوكه معي سلوك لا غبار عليه إن لم أقل إنه كان مهذباً.

وقال ترودو ليوبوف:

– إذن فإن المبلغ الذي سندفعه نحن الثلاثة واحد وعشرون روبلاً، من كل واحد سبعة روبلات، وهو مبلغ كاف لعشاء جيد. ولم يدفع ايفرنوف شيئاً. هذا مفهوم.

وقاطعه سيمونوف قائلاً:

– لن يدفع طبعاً فنحن الذين دعوناه.

وهنا تدخّل فيرفتشكين في الموضوع فقال في تبجّح وقوّة كأنه خادم يفتخر بأوسمة سيده، ولعل سيده أن يكون لواء:

– ولكن أتظنون أن ايفرنوف سوف يتركنا ندفع؟ قد يقبل منا دفع ثمن الطعام لطفاً وذوقاً، ولكنه سيقدّم لنا نصف اثني عشرية من زجاجات الشمبانيا.

وقال ترودو ليوبوف وهو يحلم بزجاجات الشمبانيا:

Twitter: @ketab_n

– نصف اثني عشرية من الشمبانيا لنا وحدنا ونحن أربعة!؟. هذا كثير. وعاد سيمونوف فعرض ملخّصاً للجلسة فقال:

– نحن ثلاثة.. ورابعنا سيمونوف. واحد وعشرون روبلاً في «فندق باريس». غداً في الساعة الخامسة مساء...

وفجأة صحت في تأثّر كأني تلقّيت إهانة:

– مالكم تقولون: إن المبلغ واحد وعشرون روبلاً، وهو ثمانية وعشرون روبلاً إذا أدخلتموني في حسابكم؟

ووجدتني جميلاً في هذا الغضب الفجائي الذي جاء في غير موضعه، وصعقت هذه الضربة رفاقي فتطلّعوا إليّ في احترام. وقال سيمونوف في غير رضا وهو لا ينظر إليّ كأنما يعرفني عن ظهر قلب:

– إذن فأنت تريد أن تتعشّى معنا؟

ورأيتني مغيظاً محنقاً: كيف استطاع هكذا أن ينفذ إلى نفسي ويعرضني على النور؟ وأسرعت أجيب:

– ولم لا؟ لقد كنت له زميلاً كما كنتم، وقد أحنقني نسيانكم لي.

وقال فيرفتشكين:

– وأين نجدك لو ذكرناك؟

وأضاف ترودو ليوبوف، وهو يفرك حاجبيه:

– ولكن علاقتك بايفرنوف لم تكن طيبة.

وقلت في صوت ملجلج كأن الأمر جلل:

– لا يحق لأحد أن يحكم هذا الحكم. أنا مصرّ على الاشتراك في تكريمه ولعل ذلك أن يكون لأن علاقاتنا لم تكن وثيقة وطيدة.

Twitter: @ketab_n

وقال ترودو ليوبوف وهو يبتسم:

- من ذا الذي يستطيع أن يكتنه سرك وما تنطوي عليه من أفكار نبيلة؟ وأعلن سيمونوف قراره:

- سنكتب اسمك. غداً في فندق باريس. الساعة الخامسة. لا تتأخر... وسأل فيرفيتشكين سيمونوف في صوت خافت وهو يغمزه:

- والدراهم؟

ولم يتم كلامه فقد بدت الحيرة على سيمونوف.

- ووقف ترودو ليوبوف قائلاً:

- كفى، ما دام يريد الاشتراك فليشترك.

- وتناول فيرفتشكين قبعته وقال في حنق:

- ولكنا في حلقة صغيرة.. من الأصدقاء، ولسنا في اجتماع رسمي، وقد لا نريدك.

وخرجا، أما فيرفتشكين فلم يحيني، وأما ترودو ليوبوف فلم يرفع عينيه إلي، واكتفى بإيماءة من رأسه.

وبقيت أنا وسيمونوف وحيدين، وبدا لي حائراً غضبان، يلقي عليّ نظرات غريبة، وظلّ واقفاً ولم يسألني أن أجلس، وتمتم مضطرباً:

- هم.. نعم... إلى الغد. ولكن أتدفع اليوم اشتراكك؟ لكي نطمئن...

وانفجرت، وتذكرت وأنا أنفجر، أني مدين لسيمونوف منذ سنوات. إن له عندي خمسة عشر روبلاً. لم أنسها قط ولكني لم أدفعها قط.

- ولكن ما كنت لأتكهن بالوليمة وأنا في طريقي إليك.. ولقد نسيت ويا للأسف...

Twitter: @ketab_n

- نعم... حسناً.. لا بأس.. ستدفع المبلغ غداً ونحن على المائدة.. قلت ذلك لأعرف.. أرجو...

وكفّ عن الكلام فجأة وذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يضرب الأرض في قوة وعزم. وقلت بعد صمت قصير:

- لعلّي لا أزعجك؟

وجلس وهو يقول:

- كلا!

ثم أضاف معتذراً في خجل:

- ولكن.. نعم... أرأيت؟ عليّ أن أنجز عملاً... وأن أزور مكاناً غير بعيد..

وقلت وأنا أمسك بقبعتي، وكأن عبئاً ثقيلاً تزحزح عن قلبي:

- ولكن لِمَ لَمْ تخبرني؟

وقادني إلى الباب وهو يصطنع سيماء المشغول فلا تكاد تناسبه:

- المكان غير بعيد... على قيد خطوتين.

وهتف بي وأنا أهبط السلّم مسروراً برحيلي:

- إلى الغد... في الساعة الخامسة تماماً.

أما أنا فكنت لا أملك نفسي غيظاً وحنقاً:

- يا للشيطان.. كيف ألقيت بنفسي في هذه المغامرة؟

وقرعت سني ندماً وصحت وأنا أقطع الشارع:

- أكلّ هذا في سبيل ذلك السافل، ذلك الخنزير الذي يدعى ايفرنوف؟ لن أذهب... أنا حر... سأبصق على هذا المشروع... غداً سأكتب إلى سيمونوف معتذراً.

Twitter: @ketab_n

وزادني غيظاً على غيظ يقيني أني سوف أذهب.. سوف أذهب غداً طائعاً مختاراً.. سوف أهرع.. إلى الحفلة... ولن أكون قليل الذوق.. لن أكون فظاً غليظاً.

ولكن هنالك عثرة مالي بها طاقة: لست أملك مالاً، تسعة روبلات في جيبي... سبعة منها يجب أن أدفعها غداً إلى خادمي ابولون وهي أجره الشهري... وسيضمن بهذا المبلغ طعامه في دكان ما. أنا أعرف طبعه اللعين: يستحيل علي ألا أدفع له روبلاته السبعة.. دعوني من الحديث الآن عن هذا النذل... عن هذا الطاعون... ولعلّي سأحدّثكم عنه ذات يوم.

وألحّت علي الأحلام تلك الليلة إلحاحاً. وكانت مخيفة مزعجة. وكيف لا تكون كذلك؟ تذكّرت حياتي المدرسية. ولقد كانت سلسلة متتابعة من صور حقيقية لسجن رهيب، ليس من سبيل إلى الخلاص منها.

لقد ألقى بي بعض أقاربي الأبعدين الذين كانوا هم المسؤولين عن مصيري كله، بين جدران هذه المدرسة. ولست أدري ما حلّ بهؤلاء الأقارب.

كنت يتيماً كئيباً، وطفلاً حالماً، صامتاً، يتطلّع إلى الأشياء والأحياء بعيني صبي متوحش صغير. واستقبلني زملائي خبثاء ساخرين، لا يشفقون عليّ ولا يرفقون بي وأنا الطفل اليتيم الذي لا تشبه حياته حياتهم. ولم أكن قادراً على احتمال سخريتهم والصبر على أذاهم. وشعرت أيضاً أني لا أستطيع ملاءمة الحياة الحقيرة التافهة التي استطاعوا أن يلائموها راضين بها حريصين عليها. إذن فقد كرهتهم مباشرة وأنضجتني كبريائي التي لا تحد، هذه الكبرياء الجريح الخائفة، وأسخطتني فظاظتهم وغلظتهم،

Twitter: @ketab_n

وسخريتهم بي سخرية إجرامية لا تطاق ولا تغتفر. كانوا يسخرون مني ومن وجهي ومن شكلي الثقيل- والله يعلم أن وجوههم أكثر بلادة وأشد غباوة - لقد كانت الوجوه في مدرستنا تتغير ملامحها تغيراً سريعاً عجيباً، وسرعان ما تصبح بلهاء بلهاً لا نظير له. ولطالما رأيت أطفالاً يدخلون المدرسة وهم كالورد جمالاً وروعة، وما هي إلا سنوات، وإذا أنا لا أستطيع رؤيتهم دون أن أشعر باشمئزاز شديد. لقد أخذتني الشفقة عليهم وأنا ما زلت يافعاً في السادسة عشرة من عمري، حين كنت أرى كيف يعيشون. وأنكرت ما في أفكارهم من صغار، وما في نفوسهم من ضعة وما في أتعابهم ومشاغلهم وأحاديثهم من بلادة.

لم يكونوا يفهمون شيئاً من الحياة ولا مما هو عندي عميق أصيل، ولا يهتمون بأمور هي عندي خطيرة عظيمة، وهكذا وجدتني رغم أنفي لا أستطيع إلا أن أشعر أني أسمى منهم منزلة وأعلى منهم قدراً.

لم تكن أنانيتي الجريح هي التي ولدت في نفسي هذا الوضع الفكري: أستحلفكم بالله ألا تقاطعوا كلامي باعتراضات نابية شبعت منها حتى الغثيان؛ها أنتم هؤلاء تقولون: «أما أنت فقد قنعت بأحلامك فلم تفعل شيئاً غيرها، وأما هم فقد مضوا في غمار الحياة الحقيقية.» كلا يا سادتي إنهم لم ينغمسوا في حقيقة ما، وأقسم لكم أن هذا النقص الذي فيهم هو الذي كان يثيرني ويغيظني. لقد كانوا على عكس ما تزعمون يرون حقيقة الحياة، وإنها لعمري حقيقة واضحة بيّنة، حقيقة تفقأ العيون، في شكل خرافي كلّه حمق وكلّه سخف.. إنهم، وهم الذين اعتادوا، منذ نعومة أظفارهم، أن يحنوا رؤوسهم ويطأطئوا هاماتهم للنجاح في الحياة وحده، كانوا يسخرون سخرية وقحة

Twitter: @ketab_n

قاسية من كل ما على ظهر الأرض من حق وعدل وجمال، ما دامت هذه المُثُل العُليا منسيّة ضائعة محتقرة بين الناس. لقد كانوا يرون في كل منصب مدني أو عسكري، مهما كان، دليلاً على الذكاء ومقياساً للنبوغ. كانوا وهم هادئين مطمئنين. كان الغباء هو الذي ينطق بألسنتهم يشاركه في حديثه ذلك المثل السيئ والقدوة الخبيثة التي طبعت طفولتهم بطابعها ثم مضت إلى عهود المراهقة فلم يستطيعوا خلاصاً منها ولم يجدوا لهم منها ملاذاً.

هذه الدعارة، على ما فيها من أنواع وأشكال، يقومون بها في غلظة وقبح. قد تقولون «ولكن هذه الدعارة نفسها ليست إلا مظهراً خارجياً فضفاضاً، ومجوناً عابراً مصطنعاً. ثم إن الشباب، بل أن الغضارة لتبدو واضحة حتى في هذه الدعارة». وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكن نضارة الشباب لا تلبث أن تبدو كريهة قبيحة لأنها تعيش في جو كله كذب وكله نفاق.

ولقد كرهت هؤلاء الأطفال كرهاً عنيفاً رغم أني أكثر شراً منهم وأضل سبيلاً، وكانوا يكيلون لي كرهاً بكره ونفوراً بنفور. ولم أطلب حبهم ولا حرصت على رضاهم بل كنت على عكس ذلك فريسة رغبة جامحة مجنونة: أن أهينهم إلى أبعد حد وأن أحتقرهم إلى أقصى غاية.

ولم أجد وسيلة تنقذني من سخريتهم غير أن أكبّ على الدراسة في جدّ وحماسة. وما هي إلا أيام حتى أصبحت في أوائل الصف، فاعترفوا بنجاحي وفرضته عليهم فرضاً وأنوفهم راغمة، ثم لم يلبثوا أن فهموا أني قرأت كتباً، فوق مستواهم الفكري، وأني سمعت أموراً لم يسمعوا بها مطلقاً (أموراً لم تكن من برنامج المدرسة).

وكان إقرارهم يحمل معاني السخرية وينبض بالوحشية، ولكني

Twitter: @ketab_n

ظللت أجتهد ثم أجتهد حتى أثرت انتباه أساتذتي فأقبلوا عليّ معجبين. وعند ذلك وحده كفّ هؤلاء الأطفال عن الهزء بي، وأمعنوا في كرههم لي، وظلّت علاقتنا باردة فلا هم يسعون إليّ ولا أنا أسعى إليهم.

ولم أستطع احتمال هذا الجو الرهيب، وشعرت في سنوات دراستي الأخيرة بالحاجة إلى أن أسعى إلى الناس، إلى أن يكون لي بينهم أصدقاء. وتقرّبت إلى بعض الرفاق ولكن اندفاعي الذاتي كان قصير المدى وسرعان ما انهارت صداقاتي، إلا صداقة واحدة وجدتها بعد لأيٍ وجهد.

ولقد كنت مستبدّاً بهذا الصديق المسكين: أردت أن أسيطر على عقله سيطرة تامة، وأن أنفخ في روعه احتقار بيته، وأصررت على انقطاعه انقطاعاً نهائياً عن كل ما يحيط به من أحياء. وكانت صداقتي له عاطفية هوجاء فأثارت خوفه، وجعلته يرتجف هلعاً، وأجرت دموعه، وأصابته بنوبات عصبية. ولقد كانت روحه روح طفل ساذج كثير الثقة عامر بالإيمان، ولم يكد يسلمني زمام أمره حتى كرهته ثم نبذته نبذ النواة. لكأنّ حاجتي تنحصر في انتصاري على صديقي وإخضاعه لأمري فإذا تم لي النصر عليه لم تبق لي فيه حاجة.

ولكني لم أنتصر على زملائي جميعاً، بل لعل انتصاري على هذا الصديق المسكين لم يكن انتصاراً حقيقياً، ذلك أنه لم يكن يشبه واحداً من هؤلاء الرفاق ولكنه كان نسيج وحده.

وأخيراً أنهيت دراستي: وفي نفسي غاية واحدة طاغية: هي أن أفرّ منها فراراً؛ أن أقطع علائقي بهذا الماضي اللعين أن أغرقه بالماء، أن أطمره بالتراب والرماد.

Twitter: @ketab_n

فماذا حدث اليوم لي؟ مالي أركض وراء سيمونوف؟

وطلع الصباح فقفزت من سريري قفزاً وأنا مضطرب ثائر: لقد دقّت ساعة هي أكثر ساعات حياتي خطراً. وخُيِّلَ إليّ أني سأشهد اليوم انقلاباً أساسياً في مجرى حياتي. أنا لم أتعود إقامة المآدب وحضور الحفلات. فهل يكون هذا الشعور وليد ما أنا مقدم عليه مساء هذا اليوم؟ طالما عبث بي القدر هذا العبث: كل حدث في حياتي مهما كان ضئيلاً يبدو لي وكأنما هو انعطاف كلّي في مجرى حياتي.

ومضيت إلى المكتب ولكني هربت منه قبل ساعة من نهاية الدوام لأستعد للحفلة. المهم ألا أصل أول الناس: سيتصورون إذن أني بهم سعيد. وغمرتني في البيت مشاغل خطيرة هدّت قواي: مسحت حذائي بيدي. نعم لقد مسحه أبولون عند الصباح، ولكن يستحيل أن يعيد مسحه، وإلا عد ذلك انقلاباً ليس له ما يبرره. وكان عليَّ فوق ذلك أن آخذ الفرشاة إلى البهو في حيطة بالغة وحذر شديد: فأنا لا أريد أن يراني أنظف ثيابي بيدي فيحتقرني ويزدريني. وفحصت ثيابي جزءاً جزءاً، رأيتها عتيقة مهترئة، وكانت ثيابي الرسمية ماتزال مناسبة، ولكن منذا الذي يلبس ثيابه الرسمية في حفلة عشاء تقام بين أصدقاء؟. ورأيت ويا لهول ما رأيت: لطخةً كبيرةً سوداء فوق الركبة، آه لقد قضت هذه اللطخة على تسعة أعشار كرامتي. نعم إن هذه الفكرة معيبة «ولكن القضية ليست قضية فكرة وإنما هي قضية واقع يفرض نفسه فرضاً».

وانهارت أعصابي وانهدّت شجاعتي ولكني عدت فتماسكت: أنا أبالغ كثيراً في خطر هذه اللطخة. كلا لست مبالغاً... ماذا أصنع؟ لست أستطيع التجلّد والصبر.. أنا أصارع الحمّى... أنا محموم.

Twitter: @ketab_n

وتصوّرت في غمرة من غمرات اليأس، ايفرنوف: إن هذا النذل يستقبلني بارداً ويطلّ عليّ من سماء عظمته، وترودو ليوبوف: إن هذا الوحش يراقبني في حقد بهيمي يستحيل عليّ أن أردّ عليه بمثله، وفيرفتشكين: إن هذه الحشرة الحقيرة تصفع وجهي بضحكة شريرة وقحة، وسيمونوف: إنه يراني هذا كله ويفهمه ويحتقرني لأني مغرور غروراً دنيئاً وأناني أنانية كلها نذالة.

ما أشد ما في هذا الموقف من هول وما أقلّ ما فيه من شعر. الحق إني أستطيع أن أبقى في بيتي لا أبرحه، ولكن لا... إن بقائي أكثر استحالة من المستحيلات الثلاثة معاً. إني حين يغويني أمر من الأمور أشعر بكياني كله يندفع نحوه اندفاعاً وينصبّ عليه انصباباً، وبرأسي يندفع أول ما يندفع.

أنا إن لم أذهب قضيت عمري كله أسخر من نفسي: «أرأيت لقد خفت؟!. أرأيت لقد انهزمت؟!. أرأيت إنه الجزع من الواقع؟.. الهرب من الحقيقة؟». كلا لن أفرّ ولن أنهزم. إني لأشعر بهوىً عاصف يريد مني أن أبرهن لهذه الحثالة القذرة من الناس أني لست ذلك النذل الصغير الذي أتصوّر نفسي فيه؛ بل لقد خُيِّلَ إليّ وأنا في نوبة الحمّى، أني سأربح المعركة، ما في ذلك شك، سوف أغلبهم جميعاً.. وأسحرهم جميعاً، وأرغمهم على حبي إرغاماً بما أتمتع به من «سمو في الفكر وحصافة في الرأي» ولسوف أراهم ينبذون ايفرنوف نبذ النواة فيبقى في زاوية من زوايا الفندق مهيناً، صامتاً، وحيداً. نعم سوف أسحقه سحقاً. ولكن مالي أقسو عليه هذه القسوة كلها؟ قد أصالحه بعد ذلك ثم نشرب نخبنا: فيقول لي في صيغة المفرد: أنت وأقول له: أنت.

Twitter: @ketab_n

ولم ترضني هذه الانتصارات مطلقاً. بل لقد هاجتني وأثارتني. أنا أعرف حق المعرفة أني لست في حاجة إلى هذا النصر أبداً، لا أريد أن أسحقهم، ولا أريد أن أسيطر عليهم ولا أريد أن أسحرهم. ولن أدفع ثمن هذا النصر حتى إذا تم لي أكثر من كوبك واحد.

- آه: ربّ اجعل هذا اليوم قصيراً.

وأفعم قلبي قلق لا سبيل إلى وصفه، فمضيت إلى النافذة وفتحت الحاجز الخشبي ووقفت أتأمّل:

الثلج يسقط كثيفاً فيهز...

على الجدار دقّت ساعتي البائسة بصوتها الأجش خمس دقات.. وأمسكت بقبعتي، وبذلت ما أستطيع من جهد لكي أغادر البيت دون أن أرى وجه أبولون خادمي! إنه ينتظر منذ الصباح معاشه، ولكنه يأبى أن يتحدّث عنه أوّل من يتحدّث.

مررت به ثم وجدتني خارج المنزل، واستأجرت عجلة عن عمد، فأنفقت عليها خمسين كوبكاً هي كل ما بقي في يدي من مال.. وهأنذا أمام فندق باريس أغادر العجلة كما يغادرها السيد الجليل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

عرفت منذ الصباح أني سأكون أوّل من يصل إلى الفندق والحقّ أن لم يكن وصولي إليه أوّل الناس أمراً ذا خطر.

وصلت فلم أجد في الفندق أحداً من زملائي، بل لم أستطع معرفة المكان الذي خُصِّصَ لنا إلا بعد جهد. الغطاء لم يُمَد على المنضدة. ما معنى هذا، وجعلت أسأل الخدم واحداً بعد واحد، حتى عرفت أخيراً أن العشاء قد حُدِّدَ في الساعة السادسة مساء لا في الساعة الخامسة، ولقد أكّد مدير المطعم هذا القول.

وأخجلني أني سألت الناس جميعاً لأعرف موعد حفلة أشترك فيها داعياً لا ضيفاً. الساعة الآن الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرون. لقد كان من واجب زملائي حين قاموا بتعديل موعد العشاء أن يخبروني.. والبريد يتولّى عنهم هذه المهمة.. ولكنهم لم يفعلوا ذلك، ولكنهم عرضوني للمهانة والسخرية: «في عيني... وفي عيون... الخدم».

وجلست... هذا خادم يمدّ الغطاء على المنضدة، وأحسست أمامه أني أكثر خجلاً ومهانة، وحوالي الساعة السادسة جاؤوا بالشموع فأشعلوها وكانت القاعة تضيئها القناديل وحدها حين دخلت إليها. لعلهم نسوا تلك الشموع.

Twitter: @ketab_n

وفي زاوية من زوايا القاعة يجلس رجلان يتعشّيان في صمت، كل منهما أمام مائدة، ولكن ملامح وجهيهما قاتمة ناقمة.

وهناك في قاعة بعيدة تتصاعد صرخات وضحكات وكلمات فرنسية في لهجة غير مستقيمة... وأصوات نساء..

وشعرت بقلق قلّ أن شعرت بمثله... وأخيراً جاء زملائي جميعاً في الساعة السادسة تماماً... وكانت فرحتي فرحة غريق أنقذه المنقذ من موت أكيد... ونسيت في هذه الفرحة إهانتي...

وكان ايفرنوف أول من دخل القاعة دخول قائد حملة عسكرية، وكان يضحك ويشاركه رفاقه في ضحكه، ولم يكد يراني حتى توقف قليلاً ثم تقدّم إليّ على مهل، وانحنى ملاطفاً ومدّ إليّ يده في رقّة. لقد بقي أدبه يقظان ساهراً لا يكاد يرقى إليه أدب لواء، وبدا لي وهو يمد يده كأنه يتّقي خطراً أو يدرأ عن نفسه أذى.

وكنت أحلم بلقاء يخالف هذا اللقاء، كنت أظنّ أنه لا يكاد يدخل حتى ينفجر ضاحكاً ضحكته تلك التي تتخللها الصرخات ثم يتبعها بنكات مكشوفة ومزاح ماجن. نعم لقد كنت أتوقع ذلك كله، وكنت أستعد منذ الصباح للرد على هذا الموقف المتظر رداً محكماً. ولكن لطفه الرفيع وأدبه الجم قلبا خططي رأساً على عقب.

إذن فهو يرى نفسه اليوم أسمى مني سمواً لا حدّ له، في كل ميدان من ميادين الحياة؛ وإذا كان لا يريد في اتخاذه موقف القائد الأعلى إلا أن يهينني ويحتقرني فلا عليه، سوف يرى أني سأرد له بضاعته وأوفي له الكيل صاعاً بصاع أو يزيد، هكذا أو هكذا.

Twitter: @ketab_n

ولكن: لعلّه لا يريد إهانتي، فماذا عليّ أن أفعل؟ ماذا أفعل إذا كانت قناعته بمركزه قد ملكت عليه سبله وملأت برديه، وأغرته بمخاطبتي في لهجة رجل يريد حمايتي، ولا يسعى إلى إهانتي.

وشعرت آنئذ أن الغضب يخنقني خنقاً.

وقال لي وهو يجرّ ألفاظه جراً ويبدّل مخارج الحروف، وذلك ما لم يكن من قبل يفعله:

- أدهشتني رغبتك في مشاركتنا عشاءنا... فنحن لا نلتقي أبداً، وأنت الذي تتجنبنا، وأنت في تجنبنا مخطئ، فلسنا مخيفين إلى هذا الحد الذي تتصوّره. وعلى كل حال... فأنا سعيد بتجـــــدد...يد صداقتنا..

واستدار في غير ما كلفة وعلّق قبعته عند النافذة. وسألني تروودو ليوبوف.

- أتنتظرنا منذ بعيد؟

وقلت في قوّة وغضب ينذر بانفجار شديد قريب:

- كنت هنا في الساعة الخامسة تماماً كما اتفقنا أمس.

وسأل سيمونوف:

- أولم تخبره بتأجيل موعد الحفلة؟

وأجاب سيمونوف غير آسف ولا نادم:

- كلا. لقد نسيت.

ولم يعتذر وخرج ليشرف على تدبير المقبلات.

وصرخ زفيركوف هازئاً:

- آه.. يا مسكين... إذن فقد انتظرتنا ساعة كاملة.

Twitter: @ketab_n

حقاً إن انتظاري كان مبعث ضحكه وسروره، ومن خلفه رأيت فيرفيتشكين النذل يبتسم ابتسامة صفراء شريرة كأنها تكشيرة كلب، وبدا لي وضعي داعياً إلى السخرية والتسلية في آن واحد.

وزعقت في وجه فيرفيتشكين وأنا أحدّق في عينيه غاضباً:

- ليس في انتظاري ما يضحك، لست أنا المسؤول عنه، ولكنكم أنتم المسؤولون. لم تخبروني.. وتلك هي السفاهة بعينها..

وقال ترودو ليوبوف يدافع عني:

- بل هي فوق السفاهة.. أنت رقيق الشعور.. إنها شتيمة ولكنها غير مقصودة طبعاً.. وكيف لم يخبرك سيمونوف؟.. أفٌّ.. له. وأبدى فيرفيتشكين ملاحظة ثم لم يتمها:

- لو أنهم عبثوا بي هذا العبث لكنت...

وقال زفيركوف:

- كان عليك أن تطلب صحن طعام واحد على الأقل أو أن تتعشّى دون أن تنتظرنا...

وصرخت في صوت حاسم:

- كان في استطاعتي دون أن أطلب إذنك.. وإذا كنت قد انتظرت فما ذلك إلا لأني..

وصاح سيمونوف وهو عائد إلى القاعة:

- إلى المائدة.. إلى المائدة أيّها السادة.. كل شيء جاهز.. الشمبانيا باردة..

ثم قال لي فجأة ودون أن ينظر إليّ:

- أنسيت أني لا أعرف عنوانك؟ فأين أجدك؟

Twitter: @ketab_n

لعله تعمّد هذا العبث ولعلّه نبش علاقاتنا الماضية جميعاً.

وأخذوا مجالسهم وأخذت مجلسي، المنضدة مستديرة، هذا تروردو ليوبوف عن يساري، وسيمونوف عن يميني، وزفيركوف قبالتي وإلى جانبه فيرفيتشكين.

وهذا زفيركوف يهتم بأمري اهتماماً جدياً، ويلاطفني ويشجعني، كأنما هو يرى في هذا الإيناس وذلك التشجيع واجباً يقوم به. وهذا هو يقول:

- أخبرني.. أما تزال في الوزارة؟

وقلت في نفسي «حبذا لو حطمت هذه الزجاجة على رأسه» ثرت، وأثارني أني لم آلف محادثة الناس، وقلت فجأة وأنا أرمق صحني:

- نعم.. في المستشارية نـ..

- لعلك واجد فيها فائدة وخيراً؟! وما الذي اضطرك إلى ترك مكتبك القديم؟

- لقد لقيت ما فيه الكفاية.. من ذلك المكتب.

كنت ألوك كل كلمة ثم أقذف بها قذفاً، وأنا لا أكاد أمسك نفسي غضباً.

ونشق فيرفيتشكين مخاطه في صخب؛ ورماني سيمونوف بنظرة ساخرة. ووقف تروردو ليوبوف عن الأكل، وتطلّع إليّ في استغراب..

وارتجف زفيركوف وأظهر أنه لم ير شيئاً، ثم عاد إلى سؤالي:

- وراتبك؟

- أي راتب؟

- معاشك؟

- آه معاشي؟.. إذن فهذا تحقيق مفتوح.

Twitter: @ketab_n

ولكني مع ذلك ذكرت مقداره، وقد احمرّ وجهي خجلاً.

وقال زفيركوف جاداً:

- لست غنياً.

ولاحظ فيرفيتشكين في قحة:

- يستحيل على مثله أن يأكل في مطعم محترم.

وقال ترودو ليوبوف:

- هذا هو البؤس.

وتطلّع إليّ زفيركوف وقال لي وهو لا يريد بي سوءاً، قال لي في شفقة تكاد تكون وقحة، وهو يفحصني ويفحص ثيابي:

- ما أكثر تحولك! شدّ ما تغيّرت!.

وصرخ فيرفيتشكين مكشّراً:

- حسبك.. حسبك.. أنت تربكه.

وزعقت في وجهه:

- أيها السيد.. اعلم أني غير مرتبك أبداً. أسمعت؟ أنا أتعشى هنا في هذا المطعم الفخم وأدفع ثمن عشائي من مالي.. مالي... لا مال غيري.. لا تنس هذا يا سيد فيرفيتشكين.

- ولكن مالك!! ومن الذي يتعشى منا على حساب غيره؟ يظهر..

واحمرّ وجهه كأنه السرطان ورمقني في غضب.

- لقد قلت ما قلت، وأعتقد أني قد ذهبت بعيداً، ومع ذلك يُخيَّل إليّ أنا نستطيع أن نتحدّث عن قضايا أكثر ذكاء.

- إذن فأنت تريد أن تعرض ذكاءك.

Twitter: @ketab_n

– لا تقلق، فالذكاء هنا لا فائدة منه.

– وعلامَ تحارب زملاءك يا سيدي العزيز؟ لقد أضعت رشدك في مكتبك.

وصرخ زفيركوف في لهجة آمرة:

– كفى.. كفى يا سادة.

وغمغم سيمونوف:

– هذا هو السخف.

وأعلن ترودو ليوبوف، وهو لا يوجّه كلامه إلا إليّ وحدي:

– نعم هذا هو السخف بعينه. نحن فئة من الأصدقاء جئنا نودّع رفيقنا الباسل.. وها أنتم هؤلاء تنفضون أضغانكم وتصفّون حساباتكم.. ألست أنت الذي عرضت علينا مشاركتنا في حفلتنا؟ إذن فلا تفسد علينا ما نحن فيه من انسجام ووفاق. وعاد زفيركوف يصرخ مرّة أخرى:

– حسبكم.. حسبكم يا سادتي.. هذا أمر غير لائق.. أصغوا إليّ، سأقصّ عليكم قصة طريفة: كدت أتزوّج منذ يومين.

ومضى يقصّ حكايةً قذرة حقيرة تتعلّق بزواج له لم يتم، ولكن الحكاية خلت من المجون. ثم مضى فجعل يتحدّث عن الضبّاط والقوّاد من ألوية وعقداء وفرسان... وكاد يكون وحده محور الحديث، وضحكوا ما شاء لهم أن يضحكوا وهزّوا رؤوسهم يوافقونه ما شاء لهم أن يوافقوه، وندت من فم فيرفتشكين صرخات إعجاب وزعقات فرح... وبقيت أنا في مقعدي لا يفكّر بي أحد ولا يهتم بي أحد، محطماً محتقراً.

وجعلت أفكّر في نفسي وأقول: «يا رب: أصحيح أن هذا المجتمع

Twitter: @ketab_n

القذر مجتمعي؟ لقد كنت حقاً أحمق في موقفي منهم، ولقد كنت ضعيفاً حقاً في وجه فيرفتشكين... يا لهم من أغبياء سخفاء! أيظنّون أنهم شرّفوني حين جعلوا لي مكاناً على مائدتهم؟ ألا يعلمون أني أنا الذي أشرّفهم بوجودي فيما بينهم؟. ما هذا الهزال الذي أصابني؟.. وما هذه الثياب التي ألبسها؟ قبّح الله وجه هذا السروال اللعين... لقد رأى زفيركوف تلك البقعة المشؤومة الصفراء فوق الركبة... وعلام أتردد ولا سبيل إلى التردّد؟ ينبغي أن أقف فوراً دون تأخير، وأن أتناول قبعتي... وأمضي دون أن أنبس ببنت شفة... ينبغي أن أقذف احتقاري لهم قذفاً في وجوههم. وإذا دعوني للبراز فأهلاً به. يا للأنذال... سوف يحسبون أني آسف على الروبلات السبعة ولست عليها بآسف... لعنهم الله.. هأنذا أقوم وأذهب».. وبقيت طبعاً.

أغرقت ألمي في أصناف الخمور مما تنتجه بوردو في فرنسا وكسيرس في إسبانيا، وسرعان ما استبدّت بي النشوة لأني لم أتعوّد الشراب، وكنت كلّما ازدادت نشوتي تفاقمت نقمتي، وفجأة شعرت أني أرغب رغبة جامحة في أن أقف فأشتمهم جميعاً وأهينهم جميعاً إهانة لا تلحق بها إهانة؛ ثم أتركهم وأمضي في طريقي غير مكترث بهم.

ولم يسق عليّ وقد قررت ذلك، إلا أن أختار الظرف المناسب، واللحظة الملائمة... يجب أن أبدي كلّ ما أملك من وقار وقيمة. وسيقولون عندئذ «حقاً إنه مضحك... ولكنّه متوقّد الذكاء... نعم.. نعم... لعنهم الله».

وسقطت نظرتي القلقة الوقحة عليهم، فعلمت أنهم نسوني نسياناً مطلقاً. وجدتهم يصرخون ويمرحون ويضجون حيناً بعد حين وهم

Twitter: @ketab_n

يصغون إلى زفيركوف وهو وحده يتكلّم. وأعرته سمعي: إنه يتحدّث الآن عن امرأة جميلة اضطرها اضطراراً إلى الاعتراف بحبه (إنه كذاب أشر دون شك) وقد أعانه على أمرها صديق من الحرس الملكي يدعى كوليا، وهو أمير يملك ثلاثة آلاف من الأقنان.

– ولكن... كوليا هذا صاحب الآلاف الثلاثة من الأقنان لم يهرع إلى وداعك.

وأخرسهم تدخّلي الفجائي في الحديث فبهتوا حيناً وأبلسوا.

وأخيراً قال ترودو ليوبوف:

– أنت سكران.

لقد تنازل فاعترف بوجودي. وإن كان وجود سكران، وألقى عليّ نظرة شزراء، وحدجني زفيركوف بنظرة أخرى كأنما هو يراقب دودة غريبة؛ وغضضت طرفي...

وأسرع سيمونوف فملأ الأقداح، ورفع ترودوليوبوف كأسه. وتبعه زملاؤه جميعاً فرفعوا كؤوسهم وبقيت وحدي ساكناً لا أتحرك.

وصرخ يخاطب زفيركوف:

– هيا نشرب نخب صحتك وسلامتك. سفراً سعيداً.

– على ذكرى سنواتنا الماضية... يا إخوان، ونخب مستقبلنا الآتي.

وأفرغوا جميعاً كؤوسهم، وهرعوا إلى زفيركوف يعانقونه ويقبّلونه وبقيت دون حراك، وكأسي أمامي مترعة ملأى.

ودوى صوته مهدّداً متوعّداً؛ وقد عيل صبره:

– مالك لم تشرب نخبه؟

Twitter: @ketab_n

- أريد أن ألقي كلمة أشرب بعدها نخبة يا سيد ترودوليوبوف.

ودمدم سيمونوف: - يالك من طاعون.

وانتصبت واقفاً في مكاني وأمسكت كأسي، وتأهبت لإلقاء كلمات خارقة للعادة... كلمات لم ينطق بها أحد قبلي... ولم أعرف ماذا أريد أن أقول...

وقال فيرتشكين: - صمتاً.. صمتاً.. الذكاء يهم أن يتكلم.

وانتظر زفيركوف كلماتي في جد وصرامة، كأنه يعرفها سلفاً... وشرعت أتكلم:

- أيها الملازم زفيركوف... إعلم أني أكره التشدّق والمتشدّقين، والجمل المحفوظة. تلك هي المسألة الأولى: وإليك المسألة الثانية؛ ثم إني أحبّ الحقيقة والصراحة والنبل...

كنت أتحدث فيما يشبه الآلية، وشعرت أن الرعب جمد أطرافي، ولست أدري كيف كنت جريئاً فقلت ما قلت.

- أنا أحب الفكر يا سيدي زفيركوف، وأقدّر الصداقة الصافية الخالصة التي تقوم على أساس المساواة بين الأصدقاء.. نعم.. أنا أحب.. وأنا أقدر.. ومع ذلك لم لا؟. أنا أشرب أيضاً نخب صحتك يا سيدي زفيركوف.. قد يلج طريق الغواية من استطعت فتيات القفقاس، وجندل برصاصك من استطعت من أعداء الوطن.. و.. و.. هذا نخب صحتك يا سيدي زفيركوف.

ووقف زفيركوف فحيّاني قائلاً:

- أشكرك شكراً جزيلاً.

واصفر وجهه فقد أحسَّ بالإهانة القاسية المريرة.

- وضرب ترودوليوبوف المنضدة بقبضة يده وهتف:

- لعنة الله عليه.

Twitter: @ketab_n

ونادى فيرفتشكين بصوته الحاد النافذ:

- في مثل هذه الحالة يجب أن نكسر شدقه.

وغمغم سيمونوف:

- يجب أن نطرده.

وقال زفيركوف في صوت هائل، يحاول تهدئة الأمور والقضاء على الغضب العام الشديد:

- يا سادتي.. كفى.. كفى.. لا تزيدوا كلمة واحدة.. ولا تأتوا بحركة واحدة.. أشكركم جميعاً. أنا قادر على إبداء رأيي في كلماته..

وهتفت:

- أيها السيد فيرفتشكين.. عليك أن تعتذر لي عما بدا منك.

كان صوتي قوياً ولهجتني خطرة.

- إذن فأنت تدعوني إلى البراز.. ولك ما تريد.

كنت وأنا أصوغ دعوتي إلى المبارزة متناقضاً تناقضاً بعيداً:

أما كلماتي فصاعقة تبضّ بالكبرياء، وأما سحنتي فمضحكة، وهكذا دعاهم هذا التناقض إلى الضحك فلم يلبثوا أن ضحكوا مني جميعاً. ثم قال ترودوليوبوف مشمئزاً:

- دعوه.. إنه سكران.

وتمتم سيمونوف:

- لن أغفر لنفسي تسجيل اسمه في عدادنا.

وأما أنا فما أزال مطرق الرأس أفكّر: «تلك هي اللحظة المناسبة لأحطّم هذه الزجاجة على رؤوسهم!».

Twitter: @ketab_n

وأمسكت بالزجاجة فعلاً ثم.. ملأت قدحي الفارغ. «كلا.. خير لي ألا أبقى في مكاني حتى النفس الأخير، أيها السادة ستكونون حقاً سعداء إذا ذهبت عنكم.. لا. لا.. لن أذهب، سأبقى هنا عامداً، ولن أكفّ عن الشراب.. سأبقى هنا وأشرب.. لأننا في خمارة.. وقد دفعت حصتي.. نعم سأبقى وسأشرب.. ما أنتم إلا طواويس.. طواويس صغيرة.. طواويس ليس لها وجود.. سأبقى وسأشرب.. بل سأغنّي إذا أردت.. فلي مطلق الحق في الغناء.. اسمعوا».

ورفعت عقيرتي ولم أغنّ..

وأجهدت نفسي كيلا أرى منهم أحداً، وكي أشعرهم أني بهم غير مكترث، وترقّبت نافذ الصبر أن يبدؤوني بالكلام، أن يتحرّشوا بي فلم يبدؤوني ولم يكلّموني. شدّ ما تمنيت أن أصالحهم. ألا إن الصلح سيد الأحكام.

والساعة تدق الثامنة.. ثم التاسعة.. وها هم هؤلاء يتركون كراسيهم على المائدة ويجلسون على الديوان.. وزفيركوف يستلقي على مقعد ويمدّ قدميه إلى منضدة صغيرة.. وها هي ذي الشمبانيا تُقَدَّمُ إليهم هناك.. حقاً إنها ثلاث زجاجات من الشمبانيا ولم يدعوني إليها طبعاً.

كانوا يحيطون بزفيركوف إحاطة السوار بالمعصم. ويشربون كلماته في شره، لا شك أنهم يحبونه. وأنا أسائل نفسي: «لماذا؟ لماذا؟»

وربما تعانقوا في نشوة الخمر؛ وهم بين هذا وذاك يتحدثون عن القفقاس؛ وعن العواطف، وعن المراكز الطبية في الخدمة العسكرية؛ وتحدّثوا أيضاً عن ثروة بودخارجفسكي، وليس فيهم واحد يعرفه، وصرّحوا أنهم جدّ سعداء بهذه الثروة الضخمة، وتحدثوا عن جمال الأميرة

Twitter: @ketab_n

د... ولطفها رغم أنهم لم يروها، وبالغوا في وصف ذلك الجمال وهذا اللطف. بل أنهم وصلوا إلى شكسبير وأعجبوا به لأنه خالد..

وأنا ابتسم لهم وأحتقرهم، وأذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وأكاد أحتك بالديوان، وأمضي من المنضدة إلى المدفأة، ومن المدفأة إلى المنضدة.. واشتهيت شهوة عارمة بكل قواي أن أبرهن لهم أني لا أعبأ بهم ولا ألقي لهم بالاً. وكنت، وأنا أمشي، أضرب الأرض بعقب قدمي عامداً.. عبثاً.. عبثاً.. أحاول. لست موجوداً عندهم.. أنا غير موجود. وصبرت على هذه الحال ساعات من الساعة الثامنة إلى الساعة الحادية عشرة، أمرّ دائماً أمامهم من المنضدة إلى المدفأة ثم من المدفأة إلى المنضدة.. «نعم أنا أمشي، وما من أحد يستطيع أن يمنعني من المشي». ووقف الخادم مراراً ينظر إليّ..

وانتابني الدوار من هذا السير وخُيِّل إليّ أني أهذي، وشعرت في هذه الساعات الثلاث أن العرق بلّلني ثلاث مرات، وأني قد يبست ثلاث مرات.

وأرهقتني هذه الفكرة المعذّبة المسمّمة: مرّت بي عشر سنوات وعشرون سنة ثم أربعون. وأنا ما أزال أذكر هذه الدقائق من حياتي فتشمئزّ نفسي مني. أنها أشد لحظات حياتي نذالة وسخرية وقسوة.. يستحيل أن يستطيع إنسان أن يحتقر نفسه كما احتقرت نفسي، وأن يهينها كما أهنتها.

– آه! آه! حبذا لو عرفتم ما يتأجّج في قلبي من عواطف، حبذا لو أدركتم ما في عقلي من فكر، حبذا لو عرفتم كم أنا مثقف.

هكذا كنت أخاطب أعدائي في قرارة نفسي، وهم جلوس على الديوان. أنهم يعيشون ويتصرّفون كأني لست في القاعة أبداً، كأني اختفيت

Twitter: @ketab_n

عن أنظارهم. مرّة واحدة.. مرّة واحدة فقط تلفّتوا إليّ: كان زفيركوف يتحدّث عن شكسبير.. وضحكت عندئذ ضحكة كلها احتقار. وكانت ضحكة شريرة مغتصبة جعلتهم يقطعون حديثهم فجأة، وإذا هم يتبعونني أنظارهم في انتباه وفي جد وأنا أمشي على طول الجدار من المنضدة إلى المدفأة.. إذن فقد أرغمتهم على رؤيتي وأنا أعيش وأعمل كأنهم لا وجود لهم. وكانت النتيجة صفراً: لم ينبس واحد منهم بكلمة.. وعادوا فنسوني مرة أخرى... ودقّت الساعة إحدى عشرة دقة.

ونهض زفيركوف وهو يقول:

– والآن يا سادتي.. هيا بنا. إلى هناك..

– حسناً.. حسناً..

كنت تعبان مرهقاً، وشعرت أني سحقت سحقاً، وأني قادر على قتل نفسي لأتخلّص من هذا الموقف. كنت محموماً، وشعري وهو يكاد يقطر ماء يلتصق بجبيني وصدغي، وتطلّعت إلى زفيركوف، وقلت له في صوت أجش حازم:

– زفيركوف.. أعتذر إليك.. وأطلب عفوك يا فيرفتشكين.. أعتذر إليكم جميعاً فقد أهنتكم..

وصاح فيرفتشكين في خبث ومكر:

– إذن فلم تحتمل أعصابك البراز؟

وقلت له، وكأن في قلبي مدية تحزّه حزاً وتقطع نياطه:

– كلا... لم يخفني البراز يا فيرفتشكين. وأنا مستعد للقائك غداً.. ولكن يجب أن نتصالح.. إني أصرّ على الصلح.. وما أظنكم تستطيعون أن

Twitter: @ketab_n

تأبوا عليّ أن أصالحكم، أريد أن أبرهن لكم أني لست أخشى البراز.. أنت أوّل من يطلق النار.. أما أنا فسأطلق نار مسدسي في الهواء.

ودندن سيمونوف: - هذا أمر يلذ له.

وقال ترودو ليوبوف: - مجنون.

وصاح زفيركوف في احتقار: - دعنا نذهب... أنت تسدّ علينا طريقنا... كانوا جميعاً يقفون وقد احتقنت وجوههم ولمعت عيونهم: لقد شربوا فأسرفوا في الشراب.

- أسألك صداقتك يا زفيركوف... لقد أهنتك ولكن...

- أمثلك يهين مثلي... أأنت... أأنا... اعلم يا سيدي العزيز أنك لا تستطيع إهانتي أبداً...

وزعق ترودو ليوبوف:

- خلّ الطريق.. هيا بنا.

وصاح زفيركوف:

- «أولمبيا» لي وحدي.. هل أنتم موافقون؟

وصاحوا جميعاً وهم يضحكون.

- اتفقنا.. اتفقنا..

وظللت في موضعي مهيناً حقيراً.. ها هم أولئك يخرجون في جلبة وضوضاء.. وترودو ليوبوف يدمدم أغنية سخيفة. وسيمونوف يقف قليلاً ليعطي الغلام جعالته.. وتقدمت نحوه فجأة وقلت له:

- سيمونوف. أعطني ستة روبلات.

كانت لهجتي عنيدة يائسة.

Twitter: @ketab_n

ونظر إليّ صعقاً زائغ العينين، لقد كان ثملاً.

- أتريد أن ترافقنا إلى «هناك»

- نعم. وضحك ضحكة احتقار وخرج وهو يقول:

- لا مال عندي.

وأمسكت به من معطفه.. يا لهذا الكابوس المرعب.

سيمونوف.. لقد رأيت المال.. فلماذا تأبى أن تقرضني؟ هل أنا شقي؟ حذار أن ترفض.. لو فعلت ذلك. لو شعرت بما دفعني إلى طلب المال... مستقبلي... مشروعاتي... حياتي... كلها تتعلّق به.

وأخرج سيمونوف النقود، وعدها وأوشك أن يقذف بها في وجهي ثم قال في وحشيّة:

- خذ... خذ ما دمت غير ذي كرامة.

وأسرع يجري ليلحق بجماعته.

وبقيت وحيداً دقائق معدودات... ما هذه الفوضى حولي؟... بقايا المائدة. كأس محطمة. خمر مراقة. أعقاب سجاير..، وما هذا الذي يثقل على عقلي وقلبي؛ لعله القلق.. أو الثمل.. أو الهذيان.. وهذا الغلام الذي يقف عند الباب وينظر إليّ في استغراب: لقد رأى كل شيء.. وسمع كل شيء..

وصرخت:

- هناك.. هناك.. سوف يخرّون أمامي رُكّعاً وسجوداً..

سوف يقبّلون أقدامي.. ويستجدون صداقتي. وإلا... فوالله لأصفعنّ زفيركوف.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

«الآن ألقيت عصا التسيار.. الآن أتلقّى تلك الصدمة التي طالما انتظرتها وارتقبتها لأصحو من رقدتي. إنها صدمة الواقع» هكذا تمتمت وأنا أهبط سلّم الفندق مهرولاً.

«ليست المسألة الآن مسألة البابا وهو يغادر روما إلى البرازيل، وليست مسألة إقامة حفلة راقصة على ضفاف بحيرة كوم».

وفكّرت في نفسي وقلت لها: «ما أكثر ما أنا غبي! أفي مثل هذه اللحظة أسخر من تلك الأحلام؟ سواء عليّ أن يكون الأمر جداً أو هزلاً أفلم أفقد كل شيء؟ فعلى أي أمل أبكي؟»

لم أجد أثراً يدلّ على أصدقائي.. ولكن لا بأس: أنا أعرف أين هم! ورأيت أمامي زحافة واحدة لها حوذي ذو فروة واسعة جعلها الثلج بيضاء، لعل فيها دفئاً. الطقس رطب خانق، والحصان الصغير يضرب الأرض بحافره، وفروته المنفوشة تغطيها طبقة كثيفة من الثلوج، وهو يعطس حيناً بعد حين. ما أزال أذكر كل هذا في وضوح. وأسرعت نحو الزحافة.. ولم أكد أضع فيها قدمي حتى تذكّرت سيمونوف وكيف ألقى إليّ بروبلاته الستة.. وارتميت في قاع الزحافة سقيماً سحيقاً.

Twitter: @ketab_n

- «نعم. لسوف أشتري بالغالي كل هذا.. نعم سأشتريه بدمي.. وسأموت الليلة».

وتزحزحت الزحافة، وجاشت في رأسي أفكار وأفكار.

«كلا.. لن يسجدوا لي ولن يستجدوا صداقتي استجداء.. تلك سخافة رومانطيقية موهومة خرقاء. إنها مثل تلك الحفلة الراقصة على ضفاف بحيرة كوم، شيء واحد يجب أن أفعله هو أن أصفع زفيركوف، يجب أن أصفعه. هذا قرار ليس منه مناص، وهأنذا أطير إليه طيراناً لأهب له هذه الصفعة»..

- هيا.. أسرع.. أسرع.

وشدّ الحوذي لجام الحصان.

- أدخل وأصفعه.

ولكن لعلّ من الواجب أن أنطق بكلمات قبل الصفعة. تكون تمهيداً لها؟! كلا. لا ضرورة لهذه الكلمات. أدخل وأصفع.

سأراهم جميعاً جلوساً في القاعة.. وسأجده يداعب «أولمبيا» فوق الديوان، لعنة الله عليك يا أولمبيا.. لقد سخرت من وجهي ذات يوم وأشرت إليك أن تلحقي بي فأبيت.. أما الآن فسأجرّها من شعرها جرّاً، وأفرك أذني زفيركوف.. لا. لا يجب أن أمسك به من شحمة أذنيه وأضطره إلى الدوران حول القاعة.. سيضربونني وسيلقون بي إلى الشارع، هذا أمر لابدّ منه.. ولكن لا بأس: سأكون أنا البادئ بصفعه.. وحسبي هذا إذا تمسكنا بما تقتضيه قواعد الشرف. ولعمري لأَسِمَنَّهُ وَسْمَ شنار ليس يعدله وسم.. وسم بالحديد الحامي.. ولن يجد سبيلاً إلى غسل عاره بغير المبارزة..

Twitter: @ketab_n

نعم سيكون مرغماً على القتال «وسيهجمون جميعاً عليّ وأنا وحيد فيالهم من أنذال، وسيكون ترودو ليوبوف أشدّهم ضرباً وأقساهم لكماً، وإنه لقوي حقاً. أما فيرفيتشكين فسيضربني عن جنب ويشد شعري. سيّان عندي.. لقد قررت وعليّ أن أحتمل عواقب قراري. ووجوههم تلك التي كسيت بجلود الغنم الصفيقة ستضطر عندئذ إلى الاعتراف بما في قصتي من معنى فاجع ومغزى عميق. ولقد قلت إنهم سيقذفون بي إلى الشارع. ولكني سأشبعهم شتماً وسأصرخ في وجوههم تلك البليدة. أنتم أقل قيمة من خنصري هذا».

- أسرع أيها الحوذي أسرع.

واختلج الحوذي وهزّ سوطه، إن في صرختي إثارة الوحشية «وسنلتقي في ميدان القتال عند الصباح. هذا أكيد. أما مكتبي فلن أزوره أبداً.. ولكن من أين آتي بالغدارة؟ ما هذا السخف!؟ أشتريها بسلفة على الراتب، ومن أين آتي بالبارود وبالرصاص؟ إن الشاهد مطالب بهما.. ولكن هل يكفي وقتي لتنظيم هذه الأمور جميعاً خلال الليل؟ ليس لي صديق.. إنها لسخافة جديدة» وازددت هياجاً «سخافات متصلة الحلقات. إن أول عابر في الشارع إذا لقيته وطلبت منه أن يكون لي شاهداً، قبل الشهادة مرغماً. من يغرق يجد من ينقذه. إن أكثر التصرفات بلاهة مسموح بها في مثل هذه الظروف. ولو أني طلبت إلى مدير المكتب حضور هذا البراز لقبل حضوره شاهداً تدفعه إلى ذلك روح الفروسية، ولاحتفظ بالسر.. ولكن انطون انطونوفيتش..».

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كنت أفهم فهماً مباشراً شديد

Twitter: @ketab_n

الوضوح لا يعدله فهم في وضوحه وصفائه، أن حساباتي كلها حسابات سخيفة، وفروضي جميعاً فروض غير معقولة.. فأنا لا أرى الموقف إلا من جانبه الأسود وزاويته القاتمة. ولكن..

- أسرع أيها السائق، أسرع يا وغد.

وقال لي يعاتبني:

- آه يا سيدي!

وأحسست ببرد شديد يجمّد مفاصلي «أليس من الخير لي أن أعود إلى بيتي حالاً؟ يا رباه! ولم تدخّلت أمس في الحفلة ودعوت إليها نفسي تطفّلاً وفضولاً؟ ذلك هو القدر المحتوم. وهذه المشية من المنضدة إلى المدخنة ما بالها؟ لقد امتدت ثلاث ساعات كاملات. كلا كلا.. إن عليهم وحدهم أن يدفعوا لي ثمن هذه المشية. إن عليهم وحدهم أن يغسلوا عني هذا العار.

- أسرع أيها السائق.. أسرع.

«وماذا أصنع إذا هم طلبوا من الشرطة توقيفي؟ إنهم لن يجرؤوا على ذلك أبداً، فهم يخشون الفضيحة.. وماذا أفعل إذا أبى زفيركوف أن يبارزني احتقاراً لي؟ هذا أمر أكيد.. ولكني سأعرف كيف أدمغه دمغاً. سأهرع غداً إلى عربة البريد عندما يغادر المدينة وسأقبض عليه من ساقيه وسأخلع عنه رداءه وهو يهم بركوب عجلة البريد.. وسأعضّ يده بأسناني عضاً عميقاً.. هكذا يدفع اليأس الإنسان، يدفعه إلى أقصى حد من حدود الجنون.. وعندئذ سوف يضربني على أمّ رأسي.. وسيضربني زملاؤه جميعاً على ظهري.. وعندئذ سوف أصرخ بالجماهير المحتشدة هائجة مائجة:

Twitter: @ketab_n

– أيها الناس.. انظروا إلى هذا الغلام. إنه مسافر إلى القفقاس لكي يغوي الصبايا هناك.. وهو يحمل على وجهه بصقتي! عندئذ سينتهي كل شيء.. وسَيَمَّحي مكتبي من على ظهر الأرض.. وسَتُوقِفُني الشرطة وتُقدّمني إلى المحكمة. والمحكمة ستقرّر طردي من وظيفتي.. السجن! سيبيريا! النفي.. لن أعرف معنى الحاجة هناك.. وتنقضي خمس عشرة سنة وإذا أنا أخرج حراً طليقاً، ثيابي بالية، وأنا شحاذ.. ولسوف أبحث عنه حتى أكتشف مقرّه في مدينة من مدن الأقاليم. ها هو ذا غريمي. لقد تزوج وأصبح سعيداً، بل إنه أصبح أباً لفتاة صبية ناهدة الثديين. ولسوف أراه فأقول له: انظر إليّ أيها الشقي.. هاتان وجنتاي وقد غارتا.. وهذه ثيابي رثة بالية.. لقد أضعت في سبيلك كل شيء: مستقبلي وسعادتي وفني وعلمي وحبيبة قلبي.. إليك هذه الغدارة.. خذها.. فسأفرغ غدارتي و.. أسامحك. وهأنذا أطلق النار في الهواء وأختفي فلا أخلّف ورائي أثراً..».

وكدت أبكي.. ومع ذلك فقد لاحظت – ويا لرسيس الذكرى ما أحلاه – أني أتلو مقاطع من قصة «سيلفيو» أو من «مساخر» الشاعر ليرمنتوف.. ولم أكد ألاحظ ذلك حتى شعرت بخجل مخيف عنيف.. خجل اضطرني إلى أن آمر السائق بالوقوف فوقف.. وهبطت من الزحافة ووقفت لا أبدي حراكاً.. قدماي غائصتان في الثلج وسط الشارع، والسائق ينظر إليّ في رعب ويصعد زفرات عميقة.

ماذا أصنع؟ يستحيل عليّ أن أذهب إلى هناك.. ما وراء ذلك غير السخف.. فهل أتراجع؟.. يستحيل عليّ أن أتراجع.. ما معنى هذا.. يا رب!.. أأتخلّى عن الثأر بعد تلك الإهانات؟

Twitter: @ketab_n

وصرخت بالسائق وأنا ألقي بنفسي مرّة أخرىٰ في قعر الزحافة:

- هذا هو القضاء.. ذلك هو القدر.. أسرع أيها السائق إلىٰ «هنالك».

ووكزت ظهر الحوذي فصاح:

- ولِمَ تضربني؟

وضرب حصانه، وجعل الحصان يضطرب في سيره.

الثلج يسقط قطعاً قطعاً.. فتحت معطفي ونسيت الثلج.. نسيت كل شيء.. أنا لا يشغل بالي غير تلك الصفعة واختلجت وأنا أشعر أن هذا الأمر سوف يتم.. وأنه لا مناص منه أبداً، بل ليس في العالم كله قوة تستطيع أن تمنع حدوثه. والقناديل المفردة في الشوارع تلقي أضواءها الباهتة فوق الثلج كأنها مصابيح المقابر عند دفن الأموات، والثلج يتغلغل في ثنايا معطفي وسترتي.. ثم يمضي إلىٰ ما تحت ربطتي ثم يذوب.. ولم أزر أزراري.. لقد ضاع مني كل شيء فعلام أخاف؟

ووصلنا أخيراً.

خرجت من الزحافة لا أتمالك نفسي. وقفزت السلّم قفزاً.. وقرعت الباب بيدي ورجلي معاً.. وشعرت بضعف في ساقي وعند ركبتي علىٰ الخصوص. وفتح الباب في سرعة غريبة: إذن فقد كنا علىٰ ميعاد (لقد أخبرهم سيمونوف إذن أن هنالك زبوناً آخر.. ثم طلب منهم أن ينبئوه بقدومه إذا قدم. وطلب منهم اتّخاذ بعض الاحتياطات. وكان هذا البيت «مخزناً» من «المخازن» المشهورة في ذلك العهد، والتي أغلقتها الشرطة منذ زمن بعيد. كان في رائعة النهار «مخزناً» حقاً، ولكنه إذا جاء الليل انقلب، واستطعت أن تقضي فيه ليلتك إذا طاب لك، واخترقت المخزن المعتم في

Twitter: @ketab_n

سرعة ودخلت القاعة التي أعرفها تمام المعرفة.. هناك شمعة واحدة تنيرها.. ووقفت صعقاً: ليس في القاعة أحد..

وسألت: أين هم؟

لقد غادروا جميعاً هذا المكان.

وجاءت صاحبة المنزل فوقفت إلى جانبي وابتسمت في غباء.. وانقضت دقيقة وفتح الباب ودخل زبون..

لم أنتبه إلى أحد.. وجعلت أذرع القاعة طولاً وأذرعها عرضاً، وأعتقد أني أكثرت من حديثي مع نفسي، فأنا أحاورها وهي تحاورني.

لكأني إنسان نجا من موت محقق. لقد امتدّ كياني كله فرحاً وغبطة. لا جرم أني سأصفعه صفعاً دون تريّث ولكنهم ليسوا هنا.. ولقد امّحت الآن معالم الأشياء وتبدّلت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء.

ونظرت حوالي.. أنا لا أستطيع أن أتبيّن ما يجري على قيد خطوتين منّي، ورفعت عيني آلياً إلى المرأة التي دخلت.. هذا وجه فيه شباب.. وفيه نضارة وفيه صفرة.. وهذان الحاجبان فاحمان دقيقان.. وهذه نظرات تمتزج فيها الدهشة والجد.. ما أحلى هذا الوجه.. لقد رضيت به فوراً.. ولو أنه ابتسم لي لكرهته فوراً. وأجهدت نفسي في التطلّع إليه: وأنا لا أستطيع أن أسلسل أفكاري، إنه وجه يوحي بالبراءة والطيبة.. ثم إنه في الوقت نفسه يبضّ رزانة وحصافة.

أنا على يقين من أن تعبير مثل هذا الوجه لا يجدي في هذه البيوتات العامة ولا ينفع، وأن ليس في هؤلاء الأغبياء جميعاً من يفهمه. كان لباسها غير ذي كلفة؛ ولم تكن «خارقة الجمال» رغم أنها طويلة القوام قوية البنية،

Twitter: @ketab_n

منسجمة الأعضاء. وشعرت بغصّة في صدري وتقطّع في قلبي واقتربت منها.

وتطلّعت إلى المرآة عن غير قصد فراعني أن أرى وجهي.. ولقد كان وجهاً منقلب الملامح كريهاً إلى حد بعيد.. شاحباً.. وقبيحاً خبيثاً وراعني أن أرى شعري وقد وقف كشعر القنفذ وأصبح منفوشاً.

«سيّان عندي قبح وجهي وحسنه، بل أنا بقبحه سعيد.. يسعدني أن أبدو لهذه الفتاة كريهاً.. بل ويلذّ ذلك لي».

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

ومن وراء الجدار دقّت الساعة دقّات غريبة، لكأنها حشرجة إنسان يموت، ثم دقّت دقّات حادة مثيرة سريعة، لكأنها إنسان يقفز قفزاً، نحن في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

ولملمت شتاتي، على أني لم أنم: كنت في غيبوبة.

والليل يكاد يُخيِّمُ على الغرفة الواطئة الضيقة، وقد ملأت الخزانة جانباً منها، وغطّى الورق المقوّى والخرق البالية من كل نوع، أرضها، لولا شمعة ضئيلة تحترق فوق منضدة وتلفظ آخر أنفاسها فلا تكاد تقول: إنها انطفأت، حتى تعود إليها الحياة فجأة وتغمر الغرفة بالنور. ولقد بقيت فيها خفقة أو خفقتان ثم يسود الغرفة ليل قاتم حالك السواد.

وتمالكت نفسي فتذكّرت فوراً ودون عناء كل ما مرّ بي.

يخيّل إليّ أن حوادث الحياة قد سالمتني أمداً من الدهر متربّصة متوقّعة، وها هي ذي الآن تسرع إليّ من كل جانب وتهاجمني من كل صوب.

ورأيت طوال غيبوبتي نقطة ثابتة تدور حولها أحلامي.. أما حين رجعت إلى اليقظة فقد بدا لي كل ما حدث لي منذ ساعات وكأنه حدث منذ زمن بعيد بعيد.. في زمن تبخّر وانقضى فكأنه لم يكن له وجود.

Twitter: @ketab_n

الضباب يلفّ بمناديله البيض كل ما حولي؛ وكأن فوق رأسي طواحين تطحن ودواليب تدور، والقلق والغضب يغليان في قلبي غلياناً، ويبحثان لهما عن مخرج، ورأيت فجأة عينين تحدّقان بي في عناد وفضول، ونظراتهما باردة غير مكترثة وقاتمة غريبة: شدّ ما أزعجتني هذه النظرات.

ولمعت في ذهني فكرة سوداء: أن أمضي فأقبع في سرداب بارد خانق.. وإذن فلماذا تمتحنني هاتان العينان هذا الامتحان الشاذ العجيب.

مضت ساعتان اثنتان، وهذا المخلوق الذي يعيش إلى جانبي لم أقل له كلمة ولم يقل لي كلمة؛ بل لم أر ما يدعو إلى مبادلته الكلام. لقد كان الصمت ضرورياً لي. وهأنذا أشعر فجأة بفكرة حمقاء كريهة كأنها العنكبوت تنسج خيوطها في زوايا نفسي.

يا للدعارة: إنها قادرة في قحّة وعنف ودون عاطفة أن توصل صاحبها إلى مرحلة العمل الجنسي الذي ينبغي أن يتوّج الحب الحقيقي وحده.

ونظرت إليها ونظرت إليّ أمداً طويلاً، لم تخفض عينيها وظلّ تعبير وجهها ساذجاً بريئاً كما كان: وبدأت أشعر بشيء من القلق.

وسألتها فجأة:

- ما اسمك؟

فقالت وأدارت عينيها، في لهجة غير رقيقة:

- ليزا.

وأمسكت قليلاً ثم قلت:

- ما أقسى هذا الطقس اليوم. الثلج.. كأن الطبيعة في حداد..

Twitter: @ketab_n

وخيّل إليّ أني أخاطب نفسي، وقد توسّدت يدي وحدّقت في السقف. ولم تجب. ما هذا السخف.

- أأنت من أهل البلد؟

- عدت أسألها في شيء يشبه الغضب وقد أدرت قليلاً إليها رأسي.

- كلا.

- إذن فمن أين؟

- من ريغا.

- كانت تنتزع الكلمات انتزاعاً.

- ألمانية؟

- روسية.

- أأنت من عهد بعيد هنا؟

- أين؟ هنا.

- في هذا المحل.

- منذ أسبوعين.

وصوتها يرتجف ويتقطّع.. وانطفأت الشمعة.. لست أستطيع أن أميّز وجهها في الظلام.

- وأبوك وأمك.. أهما حيّان؟

- نعم.. لا.. مايزالان.

- وأين هما؟

- هناك في ريغا.

- وماذا يعملان؟

Twitter: @ketab_n

- أو و ه!

- ماذا تقولين؟ لم أسمع، ما صناعتهما؟

- برجوازيّان صغيران.

- أكنت تعيشين في منزلهما؟

- نعم.

- ما عمرك؟

- عشرون عاماً.

- ولِمَ تركت والديك؟

- أو و ه:

ومعنى أووه هذه: «دعني وشأني، أسئلتك تزعجني». وعدنا نلوذ بالصمت.

لماذا لا أذهب؟ الله يعلم، وقلقي واضطرابي يزدادان لحظة بعد لحظة.. وذكريات اليوم تتلو بعضها بعضاً مشوّشة مختلطة. وتذكّرت فجأة حادثة رأيتها في الشارع وأنا في طريقي إلى مكتبي. وقلت في صوت عال وكأني آلة تتكلّم في غير رغبة:

- رأيتهم اليوم يحملون تابوتاً إلى المقبرة.

- تابوت!

- نعم هناك في حي سيفنايا.. كانوا يخرجونه من قبو تحت الأرض.

- من قبو!

- نعم من طابق تحت الأرض. وأخيراً، أنت تعلمين: أنه منزل ذو سمعة سيئة.. كانت تحيط به القاذورات والقمامة والقشور.. شيء فظيع..

Twitter: @ketab_n

وكان الصمت.

– ما أبشع أن يدفن المرء في مثل هذا اليوم!

بدأت أتكلم ويستحيل أن أسكت

– ولماذا؟

– الثلج.. الرطوبة..

– وتثاءبت.

وسألتني فجأة بعد صمت قصير:

– وما وجه البشاعة فيه؟

– كلا.. إنه مخيف.. وتثاءبت مرّة أخرى.. الحفّارون أنفسهم سوف يصيبهم الطاعون من طول ما هطل الثلج فوقهم.. والماء سيملأ القبر دون شك..

– الماء يملأ القبر. ولماذا؟

لقد شرعت تسأل في تطلّع وفضول، وأصبح صوتها أكثر قسوة وتقطعاً. وشعرت أني أكثر ثورة واضطراباً...

– الماء... نعم إن الماء يغمر الأرض في مقبرة فولكونو... وليس فيها رمس واحد لم يغمره الماء..

– ولماذا؟

– لماذا؟! لأن الأرض موحلة... والمستنقعات تملأ الرحب.. لقد وضعوا التابوت وسط المياه... رأيته بعيني...

والحق أني لم أره قط، بل أنا لا أعرف مقبرة فولكوفو... ولكني سمعت بها.

Twitter: @ketab_n

- أو ألا يزعجك أن تموتي؟

- ولماذا أموت؟

وكأني بها تتجمّع لتدافع عن نفسها.

- لابدّ أن تموتي عاجلاً أو آجلاً... كما ماتت تلك المرأة. صباح هذا اليوم. لقد كانت هي كذلك صبية... ثم أصابها السل.

- الفتيات.. يمتن في المستشفى.

وقلت في نفسي: «إذن فهي تعرف الخبر... لقد قالت إنها «فتاة» ولم تقل «صبية»».

ومضيت أقول وكلماتي تثيرني وتهب لي اندفاعاً وحماسةً.

- كان عليها دين «للأم» ولم تترك عملها حتى آخر يوم رغم أنها كانت مسلولة... رأيت هنالك جماعة من الشرطة والجند يتحدّثون ويقصّون حكايتها. لعلهم أصدقاؤها القدماء. كانوا يضحكون ويتأهبون للاحتفال بذكراها في حانة من الحانات...

كان أكثر القصة اختراعاً... وتلا ذلك صمت عميق... لعلها صعقتها الحكاية وسحقتها.

- ألم يكن موتها في المستشفى خيراً لها؟

قالت ذلك في همس ثم أردفت في غضب:

- سيّان أن يموت المرء هنا أو هناك... ولكن لماذا أموت؟

- لن تموتي اليوم.. عما قليل!

- نعم: عما قليل!

- ما أقسى القدر. أنت اليوم صبية، جميلة، نضرة، يحبك الناس

Twitter: @ketab_n

ويتهافتون عليك... ولكن ما هي إلا سنة... إلا سنة واحدة في مثل هذه الحياة... ولسوف تذبلين كما تذبل الزهرة وتموتين كما تموت.

- ما هي إلا سنة... سنة واحدة...

ومضيت أقول في خبث ومكر:

- على كل حال... سوف تفقدين رواءك وبهاءك يوماً بعد يوم. ستتركين هذا المنزل بعد حين إلى منزل آخر أقل قيمة وأدنى شأناً... وتنقضي سنة أخرى فتنتقلين إلى منزل ثالث... وهكذا كلما طال الزمن هبطت القيمة... وربما انتهى بك الأمر إلى قبو من أقبية سيفنايا... ولن تكون هذه النهاية السيئة أشد ما يمكن أن يكون سوءاً. فقد يشاء القدر - ولا رادّ لما يشاء - أن تقعي فريسة مرض من الأمراض... الصدر... العصبي... وأمراض هذا اللون من الحياة التي تحيينها عسيرة مستعصية على الشفاء: إنها إن علقت بك لم تغادرك حتى تسلّمك إلى قبرك.

وصرخت غضبى وقد تملكتها الرعدة:

- حسناً... سأموت.

- يا للخسارة.

- ولماذا؟

- الحياة مأسوف عليها.

وسكتنا.

- ألك خطيب؟

- ما أكثر فضولك.

- لست أسألك. قد تكونين ضحية... من ضحايا الحياة... ولكني أشفق...

Twitter: @ketab_n

- على من.

- عليكِ.

- لست أستحق هذا العناء.

قالت هذا في صوت واطئ وهي تختلج. وشعرت أني ناقم. ومع ذلك فقد كنت بها رفيقاً.

- وأخيراً: أتظنين أنك تسلكين الصراط المستقيم.

- لا أظن شيئاً.

- الشر كله في عدم التفكير. عودي إلى سواء السبيل قبل فوات الأوان. وأرى أن الأوان لم يفت. أنت صبية وجميلة. وتستطيعين أن تحبي وتتزوجي وتكوني سعيدة.

وقاطعتني في صوت سريع مفاجئ.

- ولكن المتزوجات لسن جميعاً سعيدات.

- هذا صحيح، ولكن الزواج، مهما كان، خير لك من أن تعيشي هنا، خير لك إلى حد لا تجوز فيه المقارنة بين الحياتين. قد يعيش المرء دون سعادة إذا كان يحب. بل إن الحياة جميلة حتى حين نتألم... ما أجمل الحياة كيف كانت... أما هنا فلا شيء غير التفسّخ والتعفّن... يا للهول.

لست ممن يفكّرون في برود، ولذلك فقد أدرت وجهي في اشمئزاز حقيقي، وجعلت أؤمن بما أقول. وأهتاج وأنا أتحدث. لقد كنت متعطّشاً إلى تطوير أفكاري. تلك الأفكار التي تأملتها طويلاً وقلبتها كثيراً وأنا في زاويتي... واشتعلت في قلبي نار وتجسّمت أمام عيني غاية:

- لا تنكري وجودي في هذا المكان. فلست لك قدوة.. ولعلي أن

Twitter: @ketab_n

أكون شراً منك. لقد كنت سكران - وأنا أعتذر - ثم إن الرجل ليس للمرأة قدوة أبداً... ولا له بها علاقة... هأنذا أصبح قذراً وسخاً ولكني لست عبداً... أدخل متى شئت، وأخرج متى شئت... فكأني لم أكن.. أنفض عني القذر... وهأنذا نظيف... أما أنت أيتها المرأة فأَمَةٌ مُستعبدة... نعم أنت أَمَة.. تقودها السلاسل وتتحكّم في عنقها أغلال العبودية... وإذا أردت يوماً تحطيم قيودك لم تستطيعي إلى تحطيمها سبيلاً.. إن تحطيمها مستحيل... بل إن ثقلها يزداد يوماً بعد يوم... لعنة الله على هذه القيود... لقد عرفتها... ولن أحدّثك عن أمور أخرى أشدّ هولاً، ولو أني حدّثتك عنها لم تفهمي ما أقول... ولكن أخبريني: أعليك «لألم» ديون كثيرة؟ - ولم تجب بل بقيت صامتة تصغي إليّ بكل جوارحها ومضيت أقول:-

- أرأيت: ألا إن هذا القيد ثقيل... ولن تتحرّري من حديده أبداً... وسيدبّر المدبّر أمره فلا تستطيعين الخلاص من أغلاله... لقد بعت روحك للشيطان بيعاً رخيصاً... قد أكون أكثر شقاء منك وأضلّ سبيلاً، فأنت لا تعرفين من أمري شيئاً... لماذا وأنا صريع سوداوي لا أغمس نفسي في هذا الحمأ المسنون؟ الناس يشربون الخمرة ليُغرِقُوا فيها آلامهم وهمومهم... وآلامي هي التي قذفت بي إلى هذا المكان. أرأيت... وهل وجدت في هذا المكان خيراً؟ هل استطاع أن يخفف من ألمي ويهدهد من همي؟ ما أظن ذلك أبداً... لقد اتصل جسدها... منذ حين... لم أعرفك من قبل ولم تعرفيني... ولم أقل لك كلمة واحدة... ولم نكد ننتهي حتى رحت تنظرين إليّ كما تنظرين إلى وحش وتمتحنين أمري... وعندئذ نظرت إليك.. أهكذا يكون

Twitter: @ketab_n

الحب؟.. أهكذا ينبغي أن يتّحد الإنسان الحيّ بالإنسان الحيّ؟.. كلا. لم يكن أمرنا كله غير سماجة منكرة و..

وقاطعتني قائلة:

- نعم.

ولقد أدهشتني «نعم» هذه ترسلها عفواً عن غير قصد. إذن فهذه المرأة استطاعت أن تشعر بما شعرت به، وأن تفكّر فيما فكّرت فيه... وهي تحدّق في وجهي... إذن فهي أهل للتفكير!. يا للشيطان! يا للغرابة... إذن فنحن نسيبان قريبان! وكدت أفرك يدي فرحاً. إذن فمن الممكن أن ننقذ هذه الروح الفتية ونرشدها إلى طريق الخير والجمال؟

وهذا العبث يستولي عليّ شيئاً فشيئاً، وهذه اللعبة تغويني رويداً رويداً.

وأدارت رأسها ومشت خطوات... وخُيِّل إليّ - والظلام شديد - أن يدها تلمسني... أتراها تمتحنني؟ ليتني كنت أستطيع أن أرى عينيها وأعرف ما فيها من معان.. وسمعتها تتنهّد...

وسألتها في شيء من السلطة:

- لِمَ دخلت هذا المنزل؟

- هكذا.

- كم كان منزل أبيك خيراً لك، وكم كنت فيه هادئة: الدفء ورغد العيش... إنه عشّ العصفورة... عشّك أنت.

- لقد كنت فيه أكثر شقاء.

«آه. الآن يجب عليّ أن أجد كلمة تهزّ أعماقها هزاً. فلن أصل بالعواطف وحدها إلى ما أبتغيه».

Twitter: @ketab_n

تلك فكرة لمعت في رأسي... لعمري إن هذه المرأة يهمّني أمرها، ويشغلني مصيرها... لقد كانت روحي سقيمة ضعيفة تتقبّل شاكرة ولادة مثل هذا الاهتمام الجديد... ألا يستطيع المكر أن يرافق في يسر عاطفة حقيقية؟ وسمعت الجواب:

- هذا ممكن. كل شيء ممكن.

وأرضتني هذه الفكرة وأسرعت أقول لها:

- أعتقد أنهم أهانوك... وجنوا عليك. لست أعرف شيئاً عن حياتك، ولكن صبية مثلك لا يمكن أن تدخل هذا المنزل طائعة مختارة.

وتمتمت الفتاة:

- ومن أنا؟

ولكني سمعتها وقلت في نفسي «لعنة الله عليك... أنت تمدحها وقد يسيء إليها مدحك؟ ومن يدري؟ لعله يحسن إليها».

ولم تتابع قولها فعادت تلتزم الصمت وعدت أقول:

- أصغي إليّ يا ليزا... أريد أن أحدّثك عن نفسي. لو كانت لي أسرة وأنا طفل. لم أصبح هكذا وأنا رجل... طالما فكّرت وقدّرت: مهما لقي الطفل في أسرته من عذاب واضطهاد فإنه لا يرى في أبويه عدوين له، ولا غريبين عنه. إنهما على الأقل يظهر حبهما لك مرة واحدة في سنة كاملة. ثم إنك تشعرين أنك ماتزالين تعيشين بين أهلك وفي أسرتك، وتحت سقف بيتك. أما أنا فلم أجد لي أسرة قط ولذلك فقد أصبحت غير ذي شعور.

ونظرت إليها وقلت في نفسي: «لعلها لم تفهم... ثم إن هذا الحديث عن الأخلاق سخيف».

Twitter: @ketab_n

وتابعت قولي لها في صوت عال، لا أعرض للقضايا عرضاً مباشراً. وكأني أريد تسليتها وكفى، وأنا أشعر بالخجل الشديد:

– لو كنت أباً وكان لي بنون وبنات لأحببت البنات أكثر مما أحب البنين.

– ولماذا؟

«آه إنها تصغي إليّ».

– لست أدري يا ليزا... أنا أعرف أباً قاسي القلب، شديد الحزم، ومع ذلك فهو يركع كل يوم تحت قدمي ابنته؛ ويقبّل يديها ورجليها ولا ينقطع عن الإعجاب بها والثناء عليها... إنها ترقص في مرقص... وهو ينتظرها خمس ساعات كاملات واقفاً في موضعه لا يريم ولا يتحرّك... يشرقها بعينيه... إنه بها مجنون وأنا أدرك جنونه... وإذا ما نامت في الليل ظلّ هو ساهراً عليها يقبّلها وهي نائمة ويدعو الله صادقاً أن يحفظها ويرعاها... لو رأيته لرأيت رجلاً بخيلاً يضنّ على نفسه ويضنّ على الناس جميعاً ويلبس ثياباً بالية ولكنه يبدّد أمواله ذات اليمين وذات الشمال في سبيل مرضاتها ويهدي لها هدايا غالية نفيسة... ولا تسلي عن مقدار فرحه إذا علم أنها كانت راضية عن هداياه... الآباء يحبّون البنات أكثر مما تحبهن الأمهات!. ويخيّل إليّ أني لو كانت لي بنت لم أزوّجها أبداً.

– ولماذا؟

وطافت بشفتيها ابتسامة ناعمة.

– أقسم لك أني سأكون غيوراً حسوداً... ها هي ذي تستقبل إنساناً آخر... وتحب رجلاً غريباً غير أبيها. يؤلمني حقاً أن أتصوّر تصوّراً مجرّداً

Twitter: @ketab_n

إمكانية وقوع هذا الأمر. أنا أعرف طبعاً أن من السخف أن توسوس لي نفسي هذه الوساوس... وأني لابد أن أصبح أكثر تعقلاً ووعياً... حين تتزوج.

ولكني قبل أن أهبها لغيري سأغربل الشباب غربلة وأنخلهم نخلاً، حتى أظفر بمن يحبها حباً صادقاً فأزوجها. أتعرفين أي إنسان هو أثقل الناس ظلاً على الأب وأشدّهم تعرّضاً لكراهيته ومقته: ألا إنه ذلك الذي يحبه ولده. وها هنا تجدين الأسباب العميقة لتلك المآسي التي تهزّ الأسر هزاً.

وقالت فجأة:

– من الآباء من يسعدهم بيع بناتهم... إنهم يرمون بهن في غرف شرف. «حسناً حسناً... لقد أدركت الآن ما وراء تلك الأكمة».

وعدت أقول في حماسة واندفاع:

– أصغي إليّ يا ليزا... لقد ذكرت أموراً تقع في أسر ملعونة، لا تؤمن برب ولا تشعر بحب. وحيث لا تجدين حُباً لا تجدين عقلاً... ومثل هذه الأسر موجودة فعلاً وربما كانت كثيرة.. ولكني لا أتحدث الآن عنها. إنك لم تذوقي السعادة عند أبويك فأنت لذلك ترددين هذا القول. لقد كان حظك تعساً حقاً؛ وأعتقد أن مسئولية ذلك راجعة إلى الفقر...

– بل ليس الأمر عند السادة خيراً منه عند العبيد. الناس الشرفاء سعداء حتى حين يكونون فقراء.

– نعم! نعم! يا ليزا... هذا صحيح. ولكن الإنسان يذكر شقاءه وينسى سعادته... وحظه من السعادة موفور... لو كانت لك أسرة يبارك

Twitter: @ketab_n

لك الله فيها ويجعل زوجك ممتازاً ويجعلك أثيرة عنده، فهو لا يفارقك ولا يستطيع البعد عنك. وما أحلى هذا الجو الفوّاح... ما أحلى ذلك الدفء العائلي.

ولنفرض أن كارثة أصابتكما - ومن ذا الذي لا تصيبه نوائب الأيام؟ - فسيخفف من وقع الكارثة أنكما في أسرة منسجمة يسودها الحب والوئام. تزوجي يا ليزا تزوجي تعرفي هذا كله. وتأملي قليلاً في الأشهر الأولى من حياتك مع من تحبين: يا لهذه السعادة الغامرة... إنها لكثيرة... كثيرة جداً.

حتى النزاعات والخصومات تنتهي بين الزوجين الحبيبين أطيب نهاية. هنالك نساء كلما ازددن حباً زدن خصاماً. أعرف واحدة منهن: «نعم أنا أحبك حباً جماً عجيباً... ولهذا فأنا أعذبك وأزعجك. أفهمت؟» أفلا تعلمين أن في استطاعة الإنسان أن يعذّب إنساناً آخر لسبب واحد هو أنه يحبه؟ والنساء يفعلن ذلك على الخصوص. وعندما تعذب المرأة حبيبها تفكّر في أمره وكأنها تقول له:

«لأضاعفنَّ حبي لك بعد هذا الخصام، ولأداعبنّك عما قليل دعاباً ينسيك تعذيبي لك».

كل من في الدار يشاطرك أفراحك في جو ترفرف عليه السكينة والمرح والثقة والسلام.

وهناك نساء غيورات... ربما كنت أنت منهن... أعرف واحدة... إذا خرج زوجها قفزت من سريرها قفزاً لتجري وراءه... أين هو؟ لعله هناك مع امرأة أخرى... ولعمري إن الغيرة حمقاء، وهي تعرف ذلك وتريد

Twitter: @ketab_n

ألا تكون غيرى، وقلبها معذب، وعقلها يقرر الحكم عليها، ومع ذلك فهي عاجزة لا تقدر على شيء... إنها تحبه وحبها يدفعها دفعاً إلى الغيرة... ما أحلى الوئام بعد الخصام: ... أن تطلب العفو عنك وأن تعفو عمن سواك... من عفا ومن عفي عنه سعيدان، لكأنهما التقيا بعد غياب طويل وتزوجا من جديد وهام كل منهما بصاحبه كرّة أخرى... لا يجوز لشخص أياً كان.. أن يَطّلع على ما يجري بين زوجين سيّان أحبّ أحدهما صاحبه أو لم يحبه. وإذا هما تنازعا فلا يجوز أن يحكم بينهما إنسان حتى إذا كان الحكم أماً لهما. وليس ينبغي لواحد منهما أن يتحدّث عن الآخر إلى أحد من الناس: إنهما هما الخصم والحكم. إن الحب سر إلهي يجب أن يُخفَى عن عيون الناس جميعاً، وخفاؤه أجدر أن يشد أواصره ويحفظ طهارته، والحياة الزوجية توطّد الاحترام المتبادل بين الزوجين، وكم من بناء شامخ بُني على أساس هذا الاحترام. وإذا كان الحب هو الذي ألّف بين قلبين وإذا بُني الزواج على الحب فأيّة قوة تستطيع هدم هذا الحب والقضاء عليه؟.. إن الرجل قادر على حمايته إلا في حالات نادرة قليلة، وليس من سبيل إلى انهيار العاطفة ما دام الزوج طيب القلب شريف النفس.

قد يغفو الحب الأول ليحل محله حب جديد أعلى منه منزلة وأكثر سمواً. إن الزوجين ليتحدان اتحاداً روحياً. كل شيء بينهما مشترك، ولا يكتم أحدهما شيئاً من أمره عن صاحبه.. وهاهما هذان في انتظار مولود... إن أصعب الساعات عندئذ تكون أحفلها بالسعادة...

هنا يجتمع الحب والشجاعة في ساعة الولادة... ولن يجد الأبوان في عملهما عناء وإنما يجدان فيه الفرح والغبطة... والأبوان ينتزعان في سرور

Twitter: @ketab_n

لقمتها من فمها ليزقا بها مناقير العصافير الصغار... وسيحبك أبناؤك لأنك أحببتهم... وأما أنت فتلمين ثروة تخبئينها لغدك المجهول، والأولاد يكبرون وأنت تشعرين أنك عون لهم وسند.. وإذا متّ كانت مشاعرهم وأفكارهم ملكاً لك، لأنك أنت التي غرستها في نفوسهم وعقولهم. وسيشعرون ويفكّرون كما شعرت أنت وفكّرت.

وكيف لا يزداد الزوجان بعد أن يصبحا أبوين التحاماً والتصاقاً؟ يقولون: إن الأولاد يحملون إلى الأسرة زيادة في المشكلات. ولئن قال الناس ذلك فأنا الذي أقول: إن الأطفال هم سعادة السماء حين تهبط إلى الأرض. أتحبين الأطفال يا ليزا؟ أما أنا فأعبدهم.

انظري: هذا طفل مورّد الخدين يرضع ثديك؟ أي زوج لا يهزّه هذا المنظر هزّاً: زوجته وعلى ركبتيها ولده... ولد مورّد الوجنتين. أشقر الشعر... ولد من لحم ودم... ولد مبغوم النداء يناغي ويبتسم... يداه سمينتان، ورجلاه عبلتان، وأظفاره صغيرة نظيفة دقيقة... حتى تكاد تكون مضحكة... وعيناه صغيرتان ولكنهما تفهمان...

إنه يرضع ويخرمش ثديك... ثم لا يلبث أن يعبث به... والأب يقترب... والطفل يترك الثدي. ويتقلّب على ظهره، ويردّ رأسه إلى الوراء، ويرى أباه ويبتسم له... الله يعرف قدر هذا الفرح... ثم ها هو ذا يلتقم ثدي أمه ويعود إلى الرضاع...

وتمضي شهور وإذا هو ذو أسنان... هاهو ذا يعض ثدي أمه، وأمه تصرخ وتستجير... وعيناه أصبحتا خبيثتين ماكرتين: «أرأيت يا أماه! هأنذا أعضك».

Twitter: @ketab_n

والسعادة أن يجتمع هذا الثالوث: الأب والأم والطفل. أي شيء لا يعفو عنه الإنسان ولا يغتفره لقاء هذه اللحظات من الحياة! ليزا... يجب أن نبدأ نحن بتعلم الحياة قبل أن نتهم الناس...

وقلت في نفسي: عليك أن تجد صوراً وأن تعرض ألواحاً. ومع ذلك فقد كنت أتحدث في حرارة. وفجأة رأيت وجهي يحتقن دماً: «ماذا عسى أن أصنع إذا انفجرت ضاحكة ساخرة؟» ولقد أثارت هذه الفكرة غضبي. لقد استبدّت بي في نهاية حديثي سورة من الحمق، والصمت يستمر وأنانيتي تنتظر وتتألم... ورغبت في أن أدفعها دفعاً إلى الكلام. وها هي ذي تبدأ الكلام:

- إذاً فلماذا...؟

ثم تسكت.

لقد فهمت كل شيء. هناك أمر آخر في صوتها وجد التعبير عنه في اختلاجة هزت كيانها هزاً، ليس في هذا الصوت أثر من آثار صوتها الماضي بما فيه من جفاء وغلظة وعناد. ولكن فيه عاطفة عذبة طاهرة نقية جعلتني أشعر فجاءة أني آثم مجرم...

وسألتها في تطلّع رفيق ناعم.

- ماذا تقولين.

- إنك...

- ماذا.

- يخيل إليّ أنك كنت تقرأ في كتاب مفتوح.

أتراها تسخر مني؟ وآلمتني هذه الملاحظة فقد كنت لا أتوقعها. لم

Twitter: @ketab_n

أفهم آنذاك أنها إنما اتخذت هذه اللهجة الساخرة لتخفي وراءها عاطفتها... تلك هي الحيلة السامية التي تألفها القلوب العذراء الطاهرة، وترد بها على المحاولات التي يبذلها الناس ليتغلغلوا في أعماقها في غلظة ووقاحة؛ هذه القلوب التي لا تستسلم حتى اللحظة الأخيرة كبراً منها وخوفاً من أن تظهر للناس حقيقة ما تشعر به.

إن الحياء الذي رددت فيه كلماتها الساخرة مراراً، هذا الحياء وحده كان ينبغي أن يفتح عيني، فأرى نور الحقيقة التي تكتمها. ولكني لم أفهم شيئاً.. واستبدّت بي عاطفة شريرة وإذا أنا أقول في نفسي:

«انتظري قليلاً».

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

لا بأس يا ليزا، لا بأس! تقولين أني أقرأ في كتاب، وأنا الذي أتألّر ولا أجد لي قريباً ولا صديقاً. ولكن مالنا ولهذا الحديث؟.. لقد استيقظت في نفسي منذ الليلة أشياء وأشياء...

ولكن أخبريني: ألا تشعرين أنك في هذا المحل حزينة حزناً مخيفاً؟ أتقولين: لا؟. إذن فهذا دليل جديد يثبت مدى ما في العادة من قوّة وتأثير. إبليس وحده يعرف ما تستطيع العادة أن تفعله بالإنسان. قولي لي: أتعتقدين أنك ستظلّين هكذا جميلة كما أنت الآن جميلة، وأنك لن تهرمي أبداً؟ أتعتقدين أنهم سيحرصون عليك هنا سنوات كثيرة... لست أتحدّث عما في هذا المكان من وحل وطين... ولكني أكتفي بذكر ما يتعلّق بحياتك الحاضرة: أنت الآن صبية فتّانة طيّبة... لك عواطف ولك روح... ولكن هل تعرفين أني رغم هذا كله، وفي اللحظة التي عدت فيها إلى نفسي بعد أن فعلت ما فعلت، ورجعت إلى صوابي، صعب عليَّ أن أراني في هذه الغرفة معك؟ ذلك أن الرجل لا يمكن أن يسقط في هاوية هذا البيت إلا إذا كان سكران ثملاً. صدقيني إذا قلت لك: لو أني رأيتك في مكان غير هذا المكان، تعيشين كما يعيش الشجعان من الناس لما سعيت وراءك أغازلك... بل... لأحببتك حبّاً يملك عليّ كل سبيل، ولسرّني لا أن أسمع صوتك فحسب بل أن تُلْقِي عليَّ نظرة واحدة.

Twitter: @ketab_n

لو رأيتك في غير هذا البيت لانتظرتك على الباب وركعت على ركبتي أمامك ورأيت في أحلامي أنك خطيبتي... وكان من دواعي فخري أن أعرفك!

لن يكون في مقدوري آنذاك أن أتصوّر، وأنا أفكّر فيك، شيئاً يمكن أن يدنسك، شيئاً ليس مثلك طاهراً كل الطهر بريئاً كل البراءة. أما هنا فأنا أعلم علم اليقين أني يكفيني أن أصفّر لك أو أشير إليك بإصبعي، حتى تلحقي بي حتماً راضية أو كارهة؛ فلست أنا الذي أخضع لك هنا وأتمنى رضاك، ولكنك أنت التي تخضعين لإرادتي وتتمنين رضاي.

إن أحقر فلاح أجير لا يبيع مستأجره كيانه كله، ولكنه يكتفي ببيع يديه إلى أمد مُعَيَّن وزمن محدود... في فصل من فصول السنة..، أما أنت فكم مرت بك فصول وفصول.. وأنت قابعة في هذا المكان فكري قليلاً فيما تعطينه وفيما تبيعينه... إنك تبيعين روحك، روحك التي ينبغي أن تكون خالصة لله. إنك تهبين حبك لأول سكّير يطلب هذا الحب... حبك... الحب: الحب الذي هو عند الفتاة أثمن ما تملكه... الذي هو كنز المرأة الغالي وثروتها الوحيدة.

كم من رجل مات في سبيل الوصول إلى هذا الحب، وكم من رجل لا يزال مستعداً لخوض غمار الموت كيما يستحق هذا الحب.

أخبريني: أهذا الحب العظيم ثمن؟ أما أنت فقد بعت نفسك... بعتها كلها... فهل أبقيت لحبك ثمناً؟ وعلامَ يتحدّث المتحدّث عن حبك مادام قادراً على نيلك دون حب؟ أتعلمين: ما من إهانة تصيب الفتاة أبلغ من هذه الإهانة وأعمق جرحاً.

قالوا: إنكن هنا يا معاشر السخيفات مدللات.. وإن لكن عشاقاً، ذلك

Twitter: @ketab_n

هو الضلال المبين والكذب الصّراح.. إن الناس يستهزئون بكن وأنتن السخيفات تصدقن الناس.. أتظنين أن عشيقك يحبك! أما أنا فما أظن ذلك أبداً. وكيف يستطيع أن يحبك عشيقك وهو يعلم حق العلم أنك ستكونين بين دقيقة ودقيقة في أحضان رجل آخر... إنه إن قبل هذا العبث كان نذلاً حقيراً... أتظنين أنه يحترمك مهما كان حظ احترامه قليلاً؟ ما أظن ذلك أيضاً. فأية صلة مشتركة تجمع بينكما؟ كلا! إنه يسخر منك... ثم يسرقك علاوة على ذلك. هذا هو حبه... ولعله سعيد لأنه لا يشبعك ضرباً، بل لعله يضربك وأنت راضية. سلي هذا العاشق إن كان لك عاشق، سليه ذات يوم: أتريد أن تتزوّجني؟

وإنه لينفجر ضاحكاً حين يسمع هذا السؤال، إذا فرضنا جدلاً أنه لم يبصق في وجهك ملء فمه. ولم يرفسك بقدمه... ومن هذا العاشق؟ وكم ثمنه حين يعرض في سوق العبيد؟ إنه لا يساوي غير كوبكين عتيقين ممزّقين.

وعلام تضيعين حياتك هاهنا؟ إنهم يسقونك القهوة ويطعمونك ولمَ يطعمونك ويسقونك؟ إن الفتاة الشريفة لا تأكل كسرة من الخبز من أيدي الناس إذا هي علمت ما يدعوهم إلى إطعامها. والحرّة تجوع ولا تأكل بثديها.

الديون تتراكم عليك. وكلما حاولت إنقاصها زادت ولسوف تستمرّ في الزيادة طوال حياتك، حتى ذلك اليوم الذي يبدأ فيه الزبائن يديرون ظهورهم إليك. وإن غداً لناظره قريب... فلا يغرنّك شبابك ولا يخدعنّك جمالك، فالزمن في هذا المكان لا يهرول هرولة ولا يمشي مشياً... وعند ذلك يقذفون بك إلى الباب... إذا هم أشفقوا عليك وقنعوا بقذفك هكذا...

وقبل أن يطردوك تشبعك «سيدتك» لوماً وتعنيفاً وشتماً طوال سنوات وسنوات.. كأنك لم تبيعي من أجلها صحتك وقوتك ولم تضيعي

Twitter: @ketab_n

في سبيلها شبابك وروحك؛ بل إنها ستقول لك: إنك أنت التي خربت بيتها وتخليت عنها وسرقت أموالها.

ولا تحسبي أنك ستجدين لك عوناً وستلقين لك سنداً: فزميلاتك سرعان ما ينفضضن عنك وينقضضن عليك ابتغاء مرضاة قوادتهن. إنهن - وهن الإماء - قد أضعن منذ عهد بعيد كل ما يمكن أن يختلج في قلب إنسان من رحمة ومن ضمير. وشتائمهن - وهن الذليلات المحتقرات - أكثر الشتائم التي يمكن أن يطلقها فم فوق سطح هذه الأرض قحة ونذالة وقسوة...

الصحة والشباب والجمال والأمل، كل ما تملكينه سيمحى ويزول إلى غير رجعة. وستشبهين وأنت في الثانية والعشرين من عمرك امرأة في الخامسة والثلاثين إن لم تكوني أكبر سناً منها وأقرب إلى الشيخوخة، وذلك إذا وقاك الله الوقوع فريسة الأمراض؛ هذه الأمراض الخطيرة اللعينة.

أتظنين أنك تعيشين هنا دون عمل؟ أترين أنك كل يوم في عيد. ولكن لا.. إن عملك مرهق قتّال... إنه مثل عمل أولئك الذي حُكِمَ عليهم بالأشغال الشاقة. بل إنه عمل لا يشبهه عمل... القلب يتفطّر له ألماً ويذوب عليه دموعاً.

ولن تستطيعي حين يطردونك أن تردّي عليهم بكلمة ولا بنصف كلمة... ستخرجين في صمت كأنك مجرمة جانية... وستمضين من هناك إلى محل ثان ثم ثالث... ثم تسقطين آخر الأمر في قبو من أقبية سيفنايا.

وسيضربك الزبائن هناك ضرباً مبرحاً: ذلك أن الضربات في ذلك المكان هي التحيّات... وهم لا يعرفون الدعاب قبل أن يمهّدوا له بسيل من الصفعات. ربما خُيِّلَ إليك أنه ليس في هذه الدرجة التي أصوّرها لك قسوة

Twitter: @ketab_n

وفظاعة. ولكن: ما عليك إلا أن تزوريه مرّة واحدة حتى تتحقّقي من صدق ما أقول.

في عيد رأس السنة رأيت هنالك فتاة عند الباب. لقد رمت بها زميلاتها إلى الشارع لكي يسخرن منها: إنها تبكي كثيراً ويجب أن «تتجمّد» قليلاً. كانت ثملة نشوى في الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم، مشعّثة الشعر، تكاد تكون عارية، أشبعت لطماً وضرباً: أما وجهها فكان تبيّضه المساحيق. وأما عيناها فمتورّمتان، والدّم يتدفّق من أنفها وفمها... لقد فعل بها حوذي ما فعل. رأيتها جالسة على درجات السلم الحجرية، وفي يدها سمكة مملّحة. كانت تبكي وتنتحب وتندب «حظها» وتضرب السلّم بسمكتها المملّحة، وأحاط بها حوذيون غلاظ وجنود سكارى وجعلوا جميعاً يهزؤون بها.

أتظنين أن لن يكون مصيرك مثل هذا المصير؟ وأنا أيضاً لا أحب أن أظن هذا الظن... ولكن قولي لي: ألا تعتقدين أن هذه المرأة ذات السمكة المملّحة دخلت هذا المحل هاجرة بيتها الأبوي منذ عشر سنوات بل منذ ثماني سنوات: دخلته طريّة العود. بريئة. نظيفة لا تعرف للشر معنى وتتضرّج وجنتاها بحمرة الخجل إذا سمعت كلمة... بل لعلّها كانت أمس تشبهك اليوم: فخوراً كثيرة الحذر، لها طلعة الملكات ذات الجلال. تعتقد أن السعادة الكاملة تنتظر الرجل الذي يحبها وتحبه... ثم هاهي ذي تنتهي إلى تلك النهاية فوق درجات السلم الحجرية.

وماذا يكون لو أنها في الساعة التي كانت فيها سكرى شعثاء تضرب بسمكتها المملّحة الدرجات الحجرية القذرة، ماذا يكون لو أنها في تلك الساعة بعينها تذكرت ماضيها: تذكرت تلك السنوات النقية البهية التي قضتها في بيت

Twitter: @ketab_n

أبيها، ثم في مدرستها.. تذكرت ولد الجيران وهو يتبعها في الطريق ويقسم لها أنه يحبها حباً خالداً لا يزول، وبعدها أن يهب حياته فداء لها. ثم تذكرت أنهما تعاهدا على الحب الأبدي وعلى الزواج السعيد بعد أن يبلغا مبلغ النساء والرجال.؟!

آه يا ليزا: أية سعادة تجدينها إذا مت في زاوية من زوايا ذلك القبو المظلم مسلولة صبية... مثل تلك المرأة؟..ستقولين: والمستشفى!.. ولنفرض جدلاً أنهم نقلوك إليه. ولكن إذا كنت لا تزالين مدينة للقوادة فماذا تفعلين؟.. إن السلّ مرض طويل جرّار وليس حمّى خبيثة عاجلة. إنه مرض يظلّ من وقع فريسة له يأمل الشفاء وينتظر البرء ويعلن أنه سليم معافى، حتى آخر نفس تصعده رئتاه، وآخر خفقة يخفق بها قلبه. وهذا الوضع النفسي يفيد القوادة ويسرّها. ذلك هو الواقع.. لقد بعتها روحك ثم أنت مدينة لها بمالها. فكيف يحق لك بعد ذلك أن تتكلمي؟

وعندما تصلين إلى حافة قبرك ينفض عنك الناس جميعاً وينسونك... إنهم لن يجدوا فيك فائدة ولا نفعاً... فما لهم ولك؟ وربما أنكروا عليك أنك ما تزالين على قيد الحياة ولاموك لأنك ما تزالين تشغلين فوق الأرض مكاناً كبيراً، وتحتلين في ذلك البيت سريراً، فعلام لا تموتين موتاً سريعاً عاجلاً؟!. قد تعطشين فيسقينك وهن يشتمنك: «متى تفطسين يا عاهرة؟ أنت تحولين دون نومنا وراحتنا بأنينك الدائم وسعالك المستمر... ثمّ إنّك توحين الاشمئزاز إلى نفوس زبائننا».

... تلك هي الحقيقة المرّة: لقد سمعت هذه الشتائم بأذني هاتين. وسيرمين بك وأنت في النزع الأخير في أشد زوايا القبو قذارة وظلاماً..

Twitter: @ketab_n

وأكثرها رطوبة وبرداً.. وما عسى أن تفكّري وأنت في زاويتك تلك وحيدة فريدة تفترشين الأرض وتلتحفين السقف وتتوسدين بيمينك النحيلة المعروقة! وعندما تموتين ستظفر بك أيدي أعداء يزمجرون ويتأفّفون... وقد عيلوا بك صبراً...

ولن يدعو لك واحد من الناس برحمة الله ومغفرته... ولن يتنهّد أحد إذا خطرت على باله.. المهم عندهم أن يتخلّصوا منك ويدفنوك في أسرع وقت ممكن... وسيشترون لك تابوتاً خشناً غليظاً، وسيحملونك كما لو حملوا هذا الصباح تلك المرأة البائسة المسكينة في «سيفنايا»، ثم يمضون إلى خمّارة من الخمارات فيشربون كأساً... والقبر ملآن بالطين والقذر والثلج الرخو الذي يذوب... ما أنت بالمخلوق الذي يزعج العالم نفسه في سبيله...

ويقول حفّار القبور لصاحبه وهما يتحاوران: - «هيا يا فانيا.. هاتها.. هذا قدرها المحتوم... هذا نصيبها المكتوب.!. إنها تسقط حتى في قبرها وهي رافعة ساقيها في الهواء... شدّ الحبل يا أحمق.

- طيب... طيب.

- ألا ترى أنها مقلوبة على جنبها!.. إنها مخلوق إنساني على كل حال...

- كفى.. كفى.. مشي الحال.. أجرف التراب».

ولن تثيري خصوماتهم أمداً طويلاً.. وسيكون رأسك تحت طبقة من طين أزرق رطب.. وها هم هؤلاء في طريقهم إلى الخمّارة.. وسينفضون أيديهم من ترابك وتكون تلك النفضة آخر عهد لك بالأرض وآخر ذكرى..

سيجد الأموات من الناس حول قبورهم بنين وبنات وآباء وأمهات وأزواجاً وزوجات، أما قبرك فلن يسمع زفرة تتصعّد ولن يرى دمعة

Twitter: @ketab_n

تتحدّر، ولن تعبر به ذكرىٰ.. ولن يرفرف فوقه طيف، ولن يرىٰ أبداً واحداً من هؤلاء الأحياء يقترب منه في جلال ومهابة أو في غير جلال ومهابة.. ويهديه السلام.. واسمك نفسه سوف يُطوىٰ طيّاً وينمحي من علىٰ ظهر الأرض، فكأنك لم تكوني أبداً، لم توجدي ولم تولدي.. ولم تعرفي في حياتك ولا في مماتك غير الطين وغير المستنقع.

وربما استطعت أن تضربي برجلك غطاء تابوتك في تلك الساعة من الليل التي يستيقظ فيها الأموات، وصحت بأعلىٰ صوتك:

«أيها الناس الشرفاء دعوني أعش بينكم ساعة واحدة.. لقد حييت ولم أذق للحياة طعماً. وقد انقضىٰ عمري في مسح القاذورات ونفض النفايات؛ لقد شرب الناس حياتي في «سيفنايا» وفي «الخمّارة».. أيها الناس الشرفاء دعوني أعش بينكم مرّةً أخرىٰ فوق الأرض».

هكذا تدفّقتُ في حديثي تَدَفُّقَ السيل لا أتمالك نفسي ولا أضبط أعصابي والتشنجات العنيفة في حلقي تخنقني، وتُقَطِّعُ أنفاسي كما تُقَطِّعُ كلماتي... وانتصبت واقفاً وأنا خائف مذعور، وأملت رأسي في جزع وشعرت أن قلبي ثقيل، وأصخت بأذني أسمع ما يجري حولي.. حقاً إنه مخيف مرعب.

لقد شعرت منذ زمن بعيد أني خضضت روحها خضاً عنيفاً وسحقت قلبها سحقاً.

وكنت كلما زادت قناعتي بما يجري حولي زادت رغبتي في إدراك غايتي إدراكاً كاملاً سريعاً.. وهأنذا قد وصلت.

إن اللعب.. بالألفاظ كان يجرفني في طريقه فلا أستطيع له رداً.. نعم إنه اللعب.. ولكنه لم يكن وحده في هذا الميدان.

Twitter: @ketab_n

كنت أعرف أن كلامي ثقيل الوقع على السمع، مفرط في القسوة، وأنه أقرب إلى أن يكون محفوظاً عن ظهر قلب من بطن كتاب. ولكن ما العمل إذا كنت لا أستطيع أن أتكلّم إلا كما يتكلّم «الكتاب»؟ ولم أجد في هذا ما يضيرني، فأنا أعلم علم اليقين أنها تفهمني وأن هذه الطريقة «الكتبيّة» نفسها تساعدني على الانتصار عليها.. ولقد انتصرت حقاً.. ولكن لم أكد أشعر أني بلغت غايتي منها حتى أصابني ذعر ما له مثيل.

لم أرَ في حياتي كلها مثل هذه العاصفة من اليأس المرير.. لقد أصابت سهامي منها مقتلاً.. وها هي ذي تغمس وجهها في الوسادة غمساً، وتمسك بها من طرفيها بكلتا يديها وهي تنشج نشيجاً يمزّق صدرها، وجسمها الصغير يختلج ويرتجف، ودموعها تخنقها فهي من حين إلى حين تندّ منها مرغمة زعقات وصرخات.. وعادت تغرق وجهها في الوسادة أكثر فأكثر: إنها لا تريد أن يرى مخلوق واحد ولا روح واحدة دموعها وعذابها. وعضّت الوسادة فمزّقتها وعضّت ذراعها فأدمتها (لقد رأيت آثار الدم) ونتفت بيديها شعرها المنفوش، وجعلت تحتضر وهي تبذل كل ما تستطيع من جهد لتحتفظ بتنفّسها، وفمها مغلق وأسنانها تصرّ عليها.

وأردت أن أقول لها كلمة.. وأن أطلب إليها شيئاً من الهدوء.. ولكني خفت فلم أتكلّم.. وفجأةً جعلت أتلمس ثيابي في الظلام أريد أن أنجو بنفسي وأنا أرتجف وأرتعد هلعاً وذعراً.

كان الظلام دامساً، ولم أستطع رغم ما بذلت من جهد تدبير أمري في سرعة.. وفجأة أصابت أصابعي علبة ثقاب إلى جانبها شمعة.

وأضاء النور الغرفة فقفزت ليزا من السرير قفزاً، وجلست على

Twitter: @ketab_n

مقعد هناك وهي تحدّق بي في بلاهة وابتسامة نصف مجنونة. وجلست إلى جانبها ووضعت يدي على يدها.. لقد عاد إليها رشدها ومدّت يديها لتمسك بي ولكنها لم تجرؤ على ذلك فأطرقت برأسها صامتة.. وقلت لها:

- ليزا!.. صديقتي!.. سامحيني.. لقد أخطأت..

ولكنها أمسكت بيديّ كلتيهما وجعلت تعصرهما عصراً أخرسني.. فهمت أني غير قادر على أن أعثر على الكلمات اللائقة.. الملائمة..

- ليزا!.. هذا عنواني؟.. تعالي إلى زيارتي..

وتمتمت في حزم ولم ترفع رأسها:

- نعم سأزورك.

- والآن هأنذا أمضي.. الوداع.. أو إلى اللقاء..

وقفت فوقفت ليزا ولكنها خجلت فتناولت وهي ترتجف منديلاً على كرسي وألقت به على كتفيها فلم يسترها، فابتسمت مرتبكةً واحمرّت خجلاً ونظرت إليّ نظرة غريبة.

كنت أتألّم ولا يشغلني غير أمر واحد: أن أسرع في الفرار.. أن أختفي. وقالت لي فجأةً ونحن في الدهليز عند الباب:

- رويدك.

ألقت يدها على معطفي ووضعت الشمعة فوق منضده ثم تركتني مهرولةً: لقد تذكّرت شيئاً دون شك فمضت تريد أن أراه، لامعة العينين محمرّة الوجنتين، تفترّ شفتاها عن ابتسامة: ما الخبر؟ واضطررت إلى أن أنتظر.

وعادت بعد دقيقة، وفي نظراتها اعتذار. وهذا وجهها قد تغيّرت

Twitter: @ketab_n

ملامحه، ونظرتها لم تبقَ نظرة قاتمة عنيدة حذرة كما كانت. وتألّق في عينيها أمل عذب فيه الخفر والحنان والثقة والاطمئنان.

الأطفال وحدهم يملكون هذه النظرة ويلقونها على الذين يحبونهم ويهمّون أن يطلبوا حاجة منهم. نعم إن عينيها الرماديتين الجميلتين المفعمتين بالحياة تستطيعان في سهولة أن تُعَبِّرا تعبيراً طيباً عن الحب كما تُعَبّران عن الكراهية والحقد.

ومدّت إليّ رقعة من الورق في هدوء، كأنّي إنسان رفيع مرهف يفهم كل شيء دون حاجة إلى تفسير، وأضاء وجهها في هذه اللحظة فرح ساذج صبياني، وفتحت الورقة وقرأتها:

هناك طالب في كلية الطب، أو لعله شاب من الشباب، يكتب إليها معلناً لها حبه في كلمات خالية من التزويق والبهرجة ولكنها مفعمة بالتقدير والاحترام. لقد نسيت الألفاظ والتعابير.. ولكني وجدتها رغم ما في أسلوبها من عوج وركاكة، تصرخ فيها عاطفة حقيقية لا سبيل إلى نكرانها أبداً.

وانتهيت من تلاوة الكتاب وليزا تنظر إليّ نظرة ثابتة حارة فيها فضول وفيها صبر يكاد ينفد، كانت تشربني بعينيها وتنتظر. وقد استبدّت بها الحمّى، كلمة واحدة أبيّن فيها تأثّري وانطباعاتي..

وذكرت لي في كلمات سريعة مفعمة بالسرور حافلة بالكبرياء أنها كانت ذات مرة في حفلة راقصة أقامتها أسرة محترمة.. محترمة جداً.. لا تعرف من الأمر شيئاً... شيئاً مطلقاً... إنها هنا منذ أمد قصير... تريد أن ترى.. فقط... وستخرج حالاً عند وفاء دينها...

ورأت ذلك الطالب في تلك الحفلة... كان يرقص طول السهرة...

Twitter: @ketab_n

ثم تلاقيا فتعارفا.. وإذا هما يتذكّران طفولتهما في ريغا... طالما لعبا هناك.. بل لقد كان يزورها في بيتها.. في بيت أهلها.

وهذا الطالب لا يعرف أيضاً شيئاً عن «هذا»، ولا يكاد يخطر في باله شيء من «هذا». لقد بعث إليها بهذه الرسالة صباح تلك الحفلة الراقصة (منذ أيام ثلاثة فحسب) عن طريق صديقة لها كانت في تلك الحفلة... وإليك... هذا كل شيء!

وغضّت ليزا عينيها البرّاقتين الراميتين بالشرر وهي تلفظ هذه الكلمات في نهاية الحديث.

إن هذه الطفلة الصغيرة الشقية تدّخر رسالة هذا الطالب كما تدّخر الكنز الثمين.. لقد هرعت تبحث عن ثروتها الوحيدة الغالية كيلا أغادر مضجعها دون أن أعرف أنها هي أيضاً موضع حب شريف طاهر وأنها هي أيضاً يكتب إليها الناس في احترام وإجلال. نعم إن هذه الرسالة قد بقيت محفوظة في درج منضدة تنتظر دون نتيجة، ولكن لا بأس. حسبها أنها تلقّتها... وأنها لتحرص عليها وتحتفظ بها طوال حياتها ذخراً وكنزاً. هذه الرسالة هي كبرياؤها ومبرر وجودها.. لقد تذكّرتها في تلك اللحظة لتسمو بها في عيني، وتزهو بها أمامي، لكي أقرأها فأسارع إلى تهنئتها... ولم أقل لها شيئاً.. صافحتها وذهبت.. أسرعت في الفرار.

عدت إلى البيت سيراً على الأقدام، والثلج الرخو تندف به السماء كأنه العهن المنفوش. كنت مرهق الجسد مسحوق القلب حائراً، غير ذي قرار... وبدت لي الحقيقة من وراء حيرتي: وإنها لحقيقة قبيحة جدّ قبيحة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

ولم أقبل هذه الحقيقة في سرعة.

واستيقظت صباحاً بعد ساعات من نوم ثقيل كالرصاص فتذكّرت ما حدث أمس، وعجبت من موقفي العاطفي من ليزا، ومن كلماتنا عن «الرحمة والشرف» وساءلت نفسي: أحقاً أني سقطت هذه السقطة العنيفة في أزمة عصبية كالنساء؟ شدّ ما يزعجني ذلك! وعلامَ أعطيتها عنواني؟ وماذا أقول لها إذا جاءت؟ ولكن لتأت متى شاءت! فليس في مجيئها ما يهمّني.. أنا أقول: إن مجيئها لا يهمني.

ولكن الذي يهمني... نعم ولكن المسألة الأساسية التي تشغلني هي أن أعمل حالاً على استعادة ما أضعت من سمعتي وما أهدرت من كرامتي في عيون زفيركوف وسيمونوف، مهما كان الثمن غالياً. هذا هو الأمر الوحيد الذي يشغل بالي، أما ليزا فقد أنستنيها أعمالي منذ الصباح نسياناً كاملاً.

أوّل ما يجب عليّ أن أصفّي دين سيمونوف: وقررت أن أقوم بمغامرة يائسة: أن أقترض من انطون انطونوفيتش خمسة عشر روبلاً لا تنقص روبلاً واحداً. وشاءت الأقدار اتفاقاً أن يكون في ذلك اليوم حسن المزاج، فلم أكد أطلب حتى أعطاني. وفرحت بذلك فرحاً شديداً فجعلت،

Twitter: @ketab_n

وأنا أوقّع الوصل، أقصّ عليه مبسوط الأسارير، وفي غير حذر، قصة «الحفلة الوداعية» التي أقمناها في فندق باريس على شرف رفيق من رفاق الطفولة وصديق من الأصدقاء - وعلامَ لا أقول إنه صديق عزيز؟ - «وأنتم تعلمون أن المحتفى به ذو قيمة كبرى وشأن خطير، دلّلته الحياة فأحسنت دلاله، وهو ربيب أسرة ممتازة ذات ثروة طائلة، ينتظره مستقبل باهر رائع، ثم إنه فوق ذلك خفيف الظل، قريب إلى القلب تهفو النساء إليه ويتنازعن عليه... مفهوم... شربنا نصف اثني عشرية من قناني الشمبانيا...، ... و

كنت أخطب في سهولة وخِفّةٍ، وأنا راضٍ عن نفسي...

وعدت إلى البيت فكتبت فوراً إلى سيمونوف كتاباً رائعاً. شدّ ما أعجبني الأسلوب الصادق الرقيق «المهذّب» الذي صغت به رسالتي. قلت له إني أنا وحدي المسؤول عن كل ما حدث... في ديباجة ماهرة النسج محبوكة لا تجد فيها كلمة واحدة زائدة ليس من ورائها هدف أو ليس لها نفع، وقدّمت إليه اعتذاري «إذا تنازل فسمح لي بتقديم هذا الاعتذار» وألححت على أمر واقعي هو أني رجل لم أتعوّد شرب الخمرة. ولعلّي كنت سكراناً سكراً تاماً منذ الكأس الأولى التي شربتها [كما ذكرت ذلك في الكتاب] بين الساعة الخامسة والسادسة أثناء انتظاري لهم في الفندق. واعتذرت إلى سيمونوف على الخصوص ورجوته أن ينقل إلى زملائي حقيقة وضعي، وإلى زفيركوف منهم خاصة، فأنا أظنّ أني أهنته «ولكأني كنت في منام» وكتبت له أني ليؤسفني ألا أقوم أنا بنفسي بتقديم اعتذاري إليه، فأنا مصاب بصداع لا يطاق، ثم إني فوق ذلك في بحران من القلق.

Twitter: @ketab_n

وأسعدني حقاً أن تسيل على أسلة قلمي كل «هذه الرشاقة» وكل هذا «الإهمال» (المهذّب طبعاً). إنهما قادران على أن يفهما الزملاء جميعاً، أكثر مما يفهمهم كل ما في العالم من مبررات وأسباب، إني أعتبر «حكاية البارحة الحمقاء» من «عل».

أنا يا سادتي لم يسحقني سخف أمس قط، كما تظنون، بل أنا أواجه ما حدث كما يواجهه إنسان مهذب «جنتلمان» يحترم نفسه في وقار «ولا يلام الشجاع إذا نبا السيف في يده» و«لا تغضّ مغامرة غير ناجحة من قيمة رجل باسل».

وأعدت تلاوة رسالتي وأنا بها معجب وتمتمت وأنا عنها راضٍ: «نعم إن في الرسالة نفحة من الفكاهة كثيرة الأرستقراطية، رفيعة المستوى، وما ذلك إلا لأني إنسان واسع الاطلاع، عالي الثقافة، ولو وقع غيري في ورطتي لم يستطع الخلاص منها في مثل هذه السهولة، أمّا أنا فقد تخلّصت وكنت حسن التخلّص.. بل لقد استطعت أن أجد فيها تسلية وطرافة... ما أحسن أن يكون المرء في زماننا هذا متعلّماً ومثقّفاً، إن العلم والثقافة نافعان، نعم أعترف أني قلت: إن الخمرة كانت هي المسؤولة عما حدث.. وكنت في هذا القول كاذباً. لا... لا... ليس للخمرة نصيب مما حدث، فأنا لم أشرب حين انتظرت زملائي من الساعة الخامسة حتى الساعة السادسة. أتظنون أن هذه الكذبة الوقحة هي التي أنقذتني وهي كذبة لا تحتاج إلى علم ولا تتطلّب ثقافة... الحق أن هذه الكذبة أخجلتني ولكن «سيان عندي...؟ لأبصق على ذلك كله... المهم أني أنقذت نفسي وخرجت من تلك الحادثة سالماً موفوراً!».

Twitter: @ketab_n

وضعت في المغلف ستة روبلات، ثم أغلقته وطلبت إلى أبولون أن يمضي بالكتاب إلى سيمونوف.

وعندما علم أبولون أن مع الرسالة مالاً شعر بشيء غير قليل من الاحترام ووافق على تسليمها إلى صاحبها.

وخرجت إلى النزهة مساءً، كان رأسي يؤلمني... وخمار البارحة لا يتركني؛ وأحسست أن تأثراتي وأفكاري كانت كلما أظلم الليل تتغيّر في سرعة وتختلط.

في أعماق قلبي وقرارة نفسي شيء لا يريد أن يموت، يطلّ برأسه في قلق قتّال ثم لا يلبث أن يختفي.

وطفقت أذرع الشوارع طولاً وعرضاً واخترت أكثر الشوارع ازدحاماً وأحفلها بالتجارة: شارع ميشاتيسكايا وجادة سادوفايا، وحديقة يوسوبوف. طالما أحببت أن أجول في هذه الأماكن عند مغرب الشمس، في الساعة التي تكتظّ بجماهير الناس وتكاد بهم تغص: عابرون مثلي ليس لهم عمل، وتجّار وصنّاع وأصحاب حرف من كل نوع، يحمل كل واحد منهم وجهاً يشغله شاغل حتى ليكاد يجعله خبيثاً، ويحمل بيده شيئاً يمضي به إلى بيته بعد انتهاء عمله. هذا البحران العامي المبتذل، وهذه الظاهرة النثرية الوقحة، طالما كنت راضياً عنهما متسلياً بهما... أما الآن، أما في هذا المساء فقد أثارا غضبي وهاجا نقمتي.

لم أستطع ضبط أعصابي ولا التحكم في نفسي: شيء ما كان ينهض في روحي، ولا يزال يرتفع ثم يرتفع في ألم وعنف، ثم لا يريد أن يهدأ ولا أن يستقر.

Twitter: @ketab_n

وعدت إلى بيتي صريع هزيمة منكرة، ثقيل الروح، كأني أمسح يدي من جريمة اقترفتها وشيكاً.

كنت حين أتصوّر أن ليزا يمكن أن تزورني أتعذّب عذاباً شديداً. يا للغرابة! لقد كانت ذكراها - دون سائر ذكريات البارحة - مصدر عذاب من نوع معين مخصوص، ليس بينه وبين ألمي الآخر علاقة ولا صلة.

وهأنذا ألقي حوادث أمس في زوايا النسيان بعد أن قمت بجهد إرادي عنيف فيه لا مبالاة جامحة عمياء. ولكن ما بال ليزا لا تفارق صورتها خيالي؟.. لقد تغيّرت وجهة نظري إلى الأمور تغيّراً شاملاً... ويُخَيَّلُ إليّ الآن أن ليزا وحدها هي المسؤولة عن آلامي كلها... لولاها كنت مطمئن البال سعيداً. وشرعت أردد دون انقطاع «ولم هذا الجزع؟.. لا بأس! ليتها تأتي!.. وماذا يهمني من أمرها إذا جاءت؟ هم... الحق إني أكره أن ترى كيف أعيش. أمس كنت أمامها بطلاً... والآن... هم! كانت خطيئتي أمس أني استرسلت في حديثي كالأطفال، وأرسلت نفسي على سجيتها...

ما هذا البؤس الذي يحيط بي ويملأ منزلي... وهذه الثياب القذرة كيف استطعت أمس أن أتعشى بها؟ وديواني هذا ما أبشعه وما أبشع هذا الوبر الذي يتناثر منه! ثم إني لا أستطيع أن ألبس مبذلاً... فمبذلي خرق ممزّقة. وهي سترى هذا كله بعينيها وستلقى أبولون: هذا النذل لابدّ أن يهينها أنا على يقين أنه سيفعل ذلك. حتماً... إنه دائم البحث عن ذريعة يرميني من ورائها بإحدى الكبر... وسأكون أمامها كما كنت دائماً: نذلاً دنيئاً... وسخيفاً أحمق، يتلفّع بمباذله المهترئة.

Twitter: @ketab_n

وسأغتصب الابتسامات، وألفّق الأكاذيب. يا للهول! هنالك دناءة هي أشدّ الدناءات حقارة وأكثرها قبحاً، نعم إنها الدناءة الكبرى التي لا تبلغها دناءة: هي أن تكسو وجهك دائماً هذا البرقع المنافق الدجّال».

واحمرّ وجهي خجلاً وأنا أفكّر في هذا البرقع.

«ولماذا أقول أني نذل؟ وأين هي النذالة؟ أمس كنت أتحدّث في إخلاص، وعاطفتي كانت صادقة. لقد أردت أن أبعث في نفسها ما رقد من نبل وخير.. وإذا بكت فقد أحسنت فيما فعلت. ومازالت الدموع مصدر خير وبركة..».

قلت ذلك، وقلت هذا، وقلّبت وجوه الرأي، ولكني لم أستطع هدهدة ثورتي، والتخفيف من حدتها أبداً، وظللت حتى الساعة التاسعة - وهي الساعة التي لا يمكن أن تأتي بعدها ليزا - وأنا لا أكفّ لحظة عن رؤيتها ممثّلةً في فكري، في ذلك الموقف بعينه.

ولم أنس على الخصوص ذكرى كانت أكثر الذكريات انطباعاً في نفسي: إنها تلك اللحظة التي أشعلت فيها عود الثقاب: كان وجهها شاحباً شحوب الأموات، مُنْقَلِبَ الملامح.. ونظرتها حزينة حزناً قتالاً.. ومع ذلك فقد كانت تبتسم: ويا لها من ابتسامة مزيفة تكاد تكون تكشيرة؛ وتدعو إلى الرثاء أكثر مما تدعو إليه الدموع؟

لم أدر يومئذ أني سأبقى خمس عشرة سنة كاملة لا أنسى لحظة واحدة فيها ليزا وهذه الابتسامة التي تدعو إلى الرثاء ولا تُجدِي.

وأطلّ عليَّ صباح اليوم التالي وإذا أنا مستعد إلى اعتبار هذه الحادثة أمراً تافهاً كبّرته أعصابي المرهقة وعظّمته مخيلتي المريضة، إنها مبالغة

Twitter: @ketab_n

فحسب. وأنا أعرف أين أجد الوتر الحساس في نفسي وأخافه «أنا أعرج حيث أبالغ».

وردّدت ذلك مراراً، ومع ذلك فقد كنت أعتقد أن «ليزا سوف تأتي دون ريب» «ليزا سوف تأتي» تلك هي النهاية المحتمة التي تنتهي إليها تأمّلاتي جميعاً.

وظلّ القلق مستمراً قوياً حتى أمسى عاصفة من الغضب وجعلت أصرخ: «سوف تأتي دون ريب» وأذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. سوف تأتي غداً! إن لم تأت اليوم، ولكنها «سوف تأتي دون ريب» ولسوف تجدني... أوه يا للرومانطيقية اللعينة في هذه القلوب النقية! أوه: يا للكراهية ويا للحمق ويا للتفه في هذه الأرواح العاطفية التي دنّسها الناس! كيف لم أفهم هذا الأمر؟ وكيف يمكن ألا أفهمه»؟

وسكتّ وقد استبدّ بي قلق عاصف.

وفكّرت في نفسي: «ما أغرب هذا الأمر!» كلمات معدودات.. قلائل.. جدّ قلائل.. بل مقطع من كلمة.. ما أقصره «وإنه لمقطع مصطنع كتبي مخترع» يكفي لِيُرِيَكَ الحياة الإنسانية كلها فوراً كما تشتهي وتحب، تلك هي مزية الروح العذراء والأرض البكر.

ولقد شعرت مرّات برغبة تدفعني إلى أن أمضي إلى ليزا مرّةً أخرى، وأن «أقصّ عليها كل شيء» وأن أطلب إليها ألا تزورني.... فلا تكاد تخطر في بالي هذه الفكرة حتى يتملّكني الغضب فأشعر أني قادر على أن أسحق تلك «اللعينة» ليزا لو أني لقيتها، وعلى أن أشتمها وأطردها طرداً بعد أن أبصق عليها وأشبعها ضرباً.

Twitter: @ketab_n

ومضى يوم وثان وثالث: هي لا تأتي وأنا أهدأ وأطمئن وأشعر أني شجاع جريء، وأستعيد «أحلامي العذبة» بعد الساعة التاسعة.

لأنقذن ليزا من هذه الهاوية التي تردّت فيها. غداً تزورني فأحدّثها حديث القلب إلى القلب وأعلّمها وأطوّرها.

وأخيراً ألاحظ أنها تحبني حباً صادقاً ولكني أتغابى عن هذا الحب وأريها أني لم أشعر به. ولست أدري السبب الذي يدفعني إلى التغابي، ولعله أن يكون راجعاً إلى حرصي على دغدغة العواطف الجميلة! ولسوف أتغابى حتى أراها ذات يوم ترتمي على قدمي باكية ترتجف وتختلج، وهي في أوج جمالها، ثم تعلن أني أنا مخلّصها ومنقذها. ويأخذني العجب فأقول لها:

– «أتعتقدين يا ليزا أني لم أشعر بما كان يضطرم في قلبك من حب؟ لقد عرفت كل شيء وحذرت كل ما لم أعرفه، ولكني لم أسعَ إلى التأثير في قلبك، وتركت الحب ينمو وحده.

والحق أني خفت إن أثّرت في قلبك أن تضطريه إلى الرد على عاطفتي بعاطفة مماثلة، يدفعك إلى ذلك الاعتراف بالجميل، فتخلقي فيه حباً قد يكون غير موجود... ولست أقنع بمثل هذا الحب ولا أرضاه، لأنه ليس حباً في الواقع ولكنه استبداد وطغيان كريه. أنا أعترف أني كنت تائهاً في غمرة من إحساسات مرهفة وأذواق دقيقة ناعمة، كثيرة النبل فيها روح أوروبية رومانطيقية على الطراز الذي ابتكرته جورج ساند – أما الآن فأنت لي، أنت من صنعي وخلقي، أنت نقيّة طاهرة، أنت رائعة.. أنت زوجتي المعبودة:

ادخلي بيتي وكوني ربّة البيت المطاعة.

Twitter: @ketab_n

حرّة كالريح إن هبّت وكالنسر شجاعة.

وأصبحنا زوجين سعيدين وشرعنا نعيش حياتنا... وقمنا برحلات إلى البلاد الأجنبية... وكان ما كان مما لست أذكره..». وأخيراً صرت أخجل من نفسي وجعلت أمدّ لساني لي أمام المرآة... والحق أنه لسان طويل.

ولكنهم لن يتركوا «الفاجرة» تخرج. إنهم لا يتركونهنّ يخرجن إلى النزهة، ولاسيّما عند المساء - وكنت أعتقد ولا أدري لماذا - أنها لابد قادمة عند المساء، وفي الساعة السابعة تماماً - نعم لقد قالت لي: إنها لم ترتبط نهائياً وإنها تتمتّع بشيء من الحرية... وهذا يعني أنها... هم... لعنة الله عليها. سوف تأتي دون ريب.

ومن حسن حظّي أن وجدت في فظاظة أبولون وتصرّفاته الشاذة شيئاً يسلّيني... كان يخرجني عن إهابي، لقد أرسلته العناية الإلهية إليّ ليكون جرحاً نغاراً، ليكون طاعوناً من الطواعين...

عشنا منذ سنوات والحرب بيني وبينه قائمة على قدم وساق، عنيفة شعواء. والله يعلم كم كنت أمقته... لقد كرهته كرهاً لم أكره أحداً من مخلوقات الله مثله... ولاسيّما في هذه الأيام.

كان أبولون ذا سن ومهابة. يشتغل بالخياطة في ساعات فراغه. كان يحتقرني إلى أقصى حد، ولا أعرف سبباً لاحتقاره، وينظر إليّ دائماً دون شفقة ولا رحمة ومن «عل» بل لقد كان يقف من الناس جميعاً هذا الموقف، فلو رأيت رأسه وشعره الكتّاني الذي يلصق بجمجمته فلا يتزحزح عنها، وطرره التي تسقط على جبهته وهي تلمع بما دهنها به من زيت القنّب،

Twitter: @ketab_n

وفمه الصلب المستدير كأنه حرف «اجيتسا»[1] لو رأيت ذلك كله لشعرت أنه مخلوق كثير الاعتداد بنفسه، لا يداخله الشك في قيمته. إنه ليمثّل حق التمثيل نموذج الرجل المتحذلق الذي لم تعرف الأرض مثله، وهو فوق ذلك ذو كبرياء غير خليقة إلا بالإسكندر الأكبر المقدوني. إنه متيّم حباً بكل زر من أزراره وبكل قلامة من أظفاره؛ وهو يتنشّق حب نفسه والاعتداد بها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. ولقد كان يعاملني كأنه طاغية وكأني عبد، ولا يكاد يتنازل فيكلّمني، وإذا نظر إليّ مرة - وقلّ أن ينظر إليّ - كانت نظرته قاسية فخوراً، جليلة، ساخرة قادرة على أن تقذف بي في أزمة غضب مرير.

كان يخدمني في سيماء معناها: «عليك أن تكون سعيداً»، ولا يعتبر نفسه مضطراً إلى القيام بعمل مهما كان، كل عمل من أعماله منّة منه وفضل، لا جرم أنه كان يراني زعيم البله جميعاً، وإذا كان مايزال «يحتفظ بي» فما ذلك إلا لأني أدفع له أجره في نهاية كل شهر، لقد قرّر «ألا يقوم بعمل» في سبيل الروبلات السبعة الشهرية. سيغفر الله لي آثاماً كثيرة كان هو سببها. ولكم أغضبني وأثار نقمتي، حتى لقد كانت تثيرني مشيته وحدها فأنتفض وأختلج غضباً. وكان يتقعّر في كلامه تقعّراً مزعجاً ويقلب الجيم زيناً، لاشكّ أن تقعّره هذا راجع إلى أن لسانه كبير جداً فهو لا يستطيع أن يلوكه، أو إلى نقص آخر يشبهه. كان يتقعّر ويمصّ ريقه وهو بذلك فخور، فلعلّه يعتقد أن في ذلك مزية من المزايا يحرص عليها؛ فإذا تحدّث يوماً تحدّث في

---

[1] - حرف في اللغة الروسية.

Twitter: @ketab_n

صوت خافت يزنه وزناً ويقيسه قياساً، ويداه وراء ظهره، وعيناه في الأرض: وأشد ما كان يثيرني ويهيج أعصابي أن أسمعه يقرأ «الأوراد» في زاويته. وطالما أجهدتني هذه التلاوة التي لا يختارها إلا مساء. عند ذلك يصبح صوته الهادئ المتّزن الراتب غنائياً كأنه يسهر على ميّت. وهكذا ويا للعجب قضى حياته، يقرأ «الأوراد» للأموات ويتقاضى على ذلك أجراً، وكان له اختصاص آخر: يبيد الفئران ويصنع طلاء الأحذية.

لست أقدر على طرده: لقد كنّا مختلطين ممتزجين امتزاجاً كيماوياً لا سبيل إلى فصله، وكان هو أيضاً لا يقدر على تركي مهما حدث.

كان مستحيلاً عليّ أن أسكن غرفة مفروشة، فمنزلي يمثّل في ناظري عالمي الصغير الحبيب، قوقعتي، صدفتي. هأنذا ألجأ إليه فأبتعد عن العالم كله، وكأنّي لست فيه، وأبولون عندي جزء من هذا المنزل ولذلك فقد استبقيته فيه سبع سنوات كاملات.

لابدّ أن أدفع له أجره في آخر الشهر ويستحيل عليّ أن أرجئ دفعه يومين أو ثلاثة أيام، إنه عندئذ قادر على أن يثير أزمة لا أعرف أين أتوارى لأستطيع النجاة منها. ولكن غضبي في هذه الأيام على العالم كله وعلى الناس جميعاً بلغ أقصى مداه، فما عليّ إذا لم أعبأ بأبولون؟ وهكذا قرّرت عقابه بتأخير راتبه أسبوعين كاملين. منذ ستتين وأنا أستعد لإنزال هذه الضربة الساحقة به. كل ذلك لكي أثبت له أنه يبالغ في تقدير قيمته عندي: لو أردت لم أدفع له راتبه قط.

إذن فقد قررت ألا أشير إلى راتبه بكلمة واحدة، وأن أصمت عامداً فأسحق كبرياءه وأضطره إلى أن يكون هو البادئ بالحديث عن أجره..

Twitter: @ketab_n

وهكذا أخرجت سبعة روبلات من جرّار منضدتي وأريته أنها معي وأني أبقيها عامداً، وأني - وهذا جدّ يسير - لا أريد... لا أرضى بدفعها له. لا أريد لأني أريد أن يكون ذلك كذلك. تلك هي إرادتي «إرادة السيد». لو جاء إليّ وطلب دفع أجره في تهذيب لهدأت ثائرتي وأعطيته ماله وإلا فسينتظر خمسة عشر يوماً... بل ثلاثة أسابيع... بل شهراً كاملاً.

ولكنه انتصر عليّ أخيراً رغم غضبي؛ ولم تمتد المعركة بيني وبينه أكثر من أربعة أيام.

ها هو ذا يدخل المعركة وفق خطته المعهودة؛ ولقد كانت خطة ناجحة موفّقة في مناسبات عديدة قد تصل أحياناً إلى أوجها وقد تقف أحياناً وهي في خطواتها الأولى، وعليكم أن تلاحظوا أني أعرف سلفاً كل ما سيقوم به صاحبنا من خسّةٍ ودناءة في تنفيذ خطته:

هذه نظرته الثاقبة، الثاقبة جداً، تصبح أكثر قسوة وحدّة بضع دقائق، عندما أدخل إلى البيت أو عندما أخرج منه، فإذا لم تنجح نظراته لأني استطعت احتمالها أو تظاهرت أني لم أرها لجأ أبولون إلى استفزازات من نوع آخر.

يدخل الغرفة فجأةً ودون سبب في خطوات وئيدة خفيفة، ثم يقف عند العتبة ويداه وراء ظهره ورجله إلى أمام، وعيناه تحدّقان بي أكثر قسوة وأشدّ صرامة، وقد ملأهما احتقار عميق رهيب. وقد أسأله أحياناً عما يريد فلا يجيب، ويظلّ مستمراً في تسديد نظراته العنيدة إلى وجهي ثواني أخرى، ثم يلتفت في بطء، وعلى شفتيه المطبقتين تعبير عنيف، ويتوارى عن ناظري في بطء وأناة كما كان دخل.

Twitter: @ketab_n

وتمضي ساعتان فإذا هو يعود ويمثّل المهزلة نفسها.

ولكني كنت هذه المرة مصمّماً على المضي في إثارته فلم أسأله وأنا ناقم: ماذا يريد؟

ورفعت رأسي في حزم وإرادة وأثبتّ نظراتي في بؤبؤي عينيه وبقينا هكذا دقيقتين كاملتين، وأخيراً استدار في بطء ومهابة واختفى من جديد ساعتين.

فإذا لم تُعِدْ هذه المحاولات الصغيرة صوابي إليّ ولم تجعلني أكثر تعقّلاً، وإذا ما ظللت معتصماً بالعصيان ولم أعبأ به انتقل عندئذ إلى المرحلة الثالثة: مرحلة التنهّدات: يحدّق في عينيّ ويتنهّد في أناة وعمق. وكأنه بهذا التنهّد يسبر غور انهياري الأخلاقي؛ وهأنذا أغضب وأصرخ، وليس غضبي وصراخي إلا تراجعاً وانهزاماً، وها هو ذا يضطرني إلى تنفيذ ما يريد، وتنتهي المعركة بيننا بانتصاره انتصار عزيز مقتدر.

أمّا في هذه الجولة، فمنذ بدأت المرحلة الأولى من المعركة: مرحلة «النظرات القاسية» لم أتمالك نفسي فانفجرت وهرعت إليه فاقداً صوابي. لقد تجمّعت عوامل كثيرة فلم أستطع عليه صبراً. وصرخت به:

- اسمع.

واستدار في بطء وصمت ويده وراء ظهره واتجه إلى غرفته وظللت أصرخ:

- اسمع. قف. قف. قلت لك.

كانت صرختي يائسة مرعبة فاستدار مرّةً أخرى وجعل ينظر إليّ في استغراب وهو صامت فزادني غيظاً على غيظ.

Twitter: @ketab_n

– كيف تجرؤ على دخول غرفتي دون أن تستأذن، ولِمَ هذه النظرات؟

أجب. ومضى ينظر إليّ ثواني أخرى واستدار من جديد يريد الخروج.

وزعقت وأسرعت إليه:

– اسمع... لا تتحرّك... حسناً... والآن أجب: لِمَ دخلت؟

وقال يجترّ كلماته ويجعل الجيم زيناً؛ بعد صمت قصير:

– إذا كنت تصدر أوامرك الآن فعليّ واجب طاعتك.

كانت كلماته متناسقة بطيئة، ورفع حاجبيه وأمال رأسه من كتف إلى كتف في هدوء مرعب.

وجعلت أرتجف غيظاً.

– لم أسألك عن هذا يا جلّاد.. سأخبرك لماذا دخلت أيها الجلّاد... لم أدفع لك أجرك وأنت لا تريد أن تنحطّ فتطلبه كبراً وغروراً، ولذلك أقبلت عليّ بعينيك السخيفتين هاتين لتعاقبني وتعذّبني، وأنت لا تتصوّر، لأنك جلّاد، مقدار ما في ذلك من بله ووحشية ووحشية وبله!

وساد الصمت من جديد وجعل يستدير ليخرج، وقبضت عليه من ذراعه وعدت أصيح:

– أصغِ إليّ: هذا هو مالك. أتراه؟ – وأخرجت الأوراق المالية وبسطتها أمامه – ولكنك لن تمسّها إلا حين تأتي إليّ مطأطئ الرأس تسألني العفو والمعذرة. أسمعت؟

وأجابني وهو مطمئن اطمئناناً خارقاً للعادة:

– مستحيل.

– ليكوننّ ذلك... أقسم بشرفي ليكوننّ ذلك.

Twitter: @ketab_n

وبدا لي غير مكترث بصراخي وجعل يقول:

- وعلامَ أطلب عفوك؟ أنت الذي نبزتني بلقب «جلّاد»، وأستطيع أن أشكو أمري إلى الشرطة.

.. وصرخت:

- اذهب إليها... اذهب حالاً وسريعاً... في هذه اللحظة.. ماذا تنتظر؟ وستكون هنالك أيضاً... جلاداً... جلاداً... جلاداً...

ونظر إليّ في هدوء واستدار كأنه ليسمعني ومضى إلى غرفته في خطوات وئيدة.

وقلت في نفسي: «لولا ليزا لربما يحدث من ذلك شيء».

وظللت لحظة ساكناً لا أبدي حراكاً، ثم مضيت مهيب الطلعة جليل الملامح - وقلبي يخفق - إلى غرفة أبولون وليس بين الغرفتين غير حاجز:

- أبولون.

كان صوتي خافتاً وكنت أقف عند كل مقطع وأنا مرهق.

- هيا... سر حالاً... إلى الشرطة فاستدع المفتش... لا تضع دقيقة واحدة.

كان جالساً وراء منضدته وقد وضع نظارتيه وجعل يُخيِّطُ شيئاً لم أتبيّنه، ولم يكد يتلقّى أمري حتى انفجر ضاحكاً.

- سر حالاً... الآن... وإلا فلست أعرف ما سوف يكون...

وقال وهو يجترّ كلماته دون أن يرفع رأسه ويحاول شكّ إبرته في الثوب:

- لعلّك أضعت صوابك. متى رأى الناس رجلاً يزعج الشرطة

Twitter: @ketab_n

ليتّهم نفسه؟ أما إذا أردت أن تخيفني فقد ذهبت جهودك أدراج الرياح... لست ممن يخاف... ولن يتغيّر شيء.

- هيا.

وهززته من كتفه هزاً وشعرت أني أوشك أن أضربه.

لم أسمع باب الردهة وهو يفتح في تأنٍّ وهدوء، ويدخل منه شخص فيقف قليلاً ثم يتفرّس فينا مستغرباً، ورفعت عينيَّ وفررت إلى غرفتي وقد أصابني الهول وسحقني الخجل.

وأمسكت بيديّ كلتيهما شعري وأسندت إلى الجدار رأسي وجعلت أنتظر صعقاً...

وتصرّمت دقيقتان... وسمعت خطى أبولون تقترب، وقال وهو ينظر في قسوة نادرة:

- شخص يسأل عنك.

وتزحزح ودخلت ليزا.

لم يرغب في الرجوع إلى غرفته ووقف يرمقنا ساخراً. وأمرته وقد جننت:

- اخرج... اخرج.

وتحرّكت ساعة الجدار في هذه اللحظة ودقت: الساعة السابعة.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

ووجدتني أمام ليزا منسحق الفؤاد في وضع مخزٍ من البله والبلبلة. وخُيِّلَ إليّ أني أبتسم وأنا أجاهد بكل الوسائل لأتلفّع بخرق مبذلي البائس المهترئ. ولعمري لقد كنت أتصوّر هذه الحركة وأنا أفكّر في زيارة ليزا. ولقد حدثت هذه الحركة فعلاً، كما دقّت الساعة السابعة عند قدومها فعلاً.

أما أبولون فقد بقي لحظة ثم انصرف، ولكني لم أشعر أني أصبحت، بانصرافه، أكثر سعادة، وأشدّ ما في الأمر أنها، وقد رأتني قلقاً مضطرباً، أضاعت هي أيضاً رباطة جأشها فجأة. وذلك أمر لم أكن أتوقعه.

وقلت لها في آلية: اجلسي.

وقرّبت لها كرسياً من المنضدة وجلست على الديوان، وجلست طائعة لا تفارقني نظراتها وكأنها على يقين من أني سأوجّه إليها كلمة أو أقوم بحركة مباشرة. ولكني لم أفعل شيئاً، بل لقد دعاني ما في ترقّبها من سذاجة إلى أن أغضب ولكني ملكت نفسي وتماسكت.

كان عليّ أن أصطنع مظهر من لا يلاحظ أمراً ومن يرى كل ما يجري حوله طبيعياً وعادياً... وأما هي فعلام لا تلاحظ ولا تشعر؟ ولم تتغابى؟ وإني لأتنبأ أنها سوف تدفع غالياً جداً ثمن هذا التغافل والتغابي. وجعلت أتمتم:

Twitter: @ketab_n

– لقد فاجأتني في وضع شاذ يا ليزا...

ولم أكد أقول ذلك حتى أحسست أن هذه الفاتحة ليست هي الفاتحة المنشودة. ورأيتها تحمرّ خجلاً فسارعت أصرخ:

– لا... لا... لا تظنّي أني أستحيي من فقري، فليس الفقر عاراً، بل لعلّي أراه فخراً. أنا فقير ولكني ذو كرامة... وطالما رافق الفقر الشرف... ولكن: أتريدين فنجان شاي؟.

– كلا.

– رويدك.

وقفزت أهرع إلى أبولون... أليس حتماً عليّ أن أتوارى في مكان ما. وقلت في صوت خافت سريع محموم وأنا ألقي على منضدة أبولون روبلاته السبعة:

– أبولون... خذ... هذا أجرك... أدفعه إليك... يجب أن تنقذني يا أبولون. اشتر من الملهى إبريق شاي... وعشر قطع من الرقاق.. واعلم أنك ستحكم على رجل بالموت إن لم تنفذ طلبي... إنك لا تعرف هذه المرأة... إنها... قد تظن أنها... ولكن لا تستطيع أن تعرف...

ولم ينبس أبولون ببنت شفة بل عاد إلى عمله فركّز نظارتيه وألقى على الدراهم نظرة عابرة ثم جعل يولج الخيط في سم الإبرة... وانتظرته ثلاث دقائق كاملات، ووضعت يدي على صدري كما كان نابوليون يضع يديه على صدره، وجرى العرق غزيراً على صدغي ومضى إلى خدي، وأحسست أني أترنّح...

الحمد لله. لقد أشفق عليّ أبولون حين رأى ما حلّ بي فلم يكد يولج

Twitter: @ketab_n

الخيط في سم الإبرة حتى نهض في أناة ودفع كرسيه في رفق ورفع نظارتيه في لين، وعدّ الأوراق النقدية في هدوء وسألني آخر الأمر:

- أتريد شاياً مجهّزاً؟

وخرج من الغرفة في بطء.

واستبدّت بي، وأنا أعود إلى غرفة ليزا، رغبة جامحة في أن أهرب، في أن أنجو بنفسي إلى حيث لا أجد أحداً.. هكذا في لباسي هذا... ولـيكن مـا يكون...

ولكني عدت إلى مكـاني. ونظـرت ليـزا إليّ في ريبـة، ولفّنـا صـمت طويل.

وهأنذا فجأة أضرب المنضدة بقبضة يدي ضربة شديدة جعلت الحبر يندلق من الدواة، وأصرخ:

- لأقتلنّه.

وسألتني وهي ترتجف:

- ماذا تقول؟

- لأقتلنّه!.. لأقتلنّه..

وعدت أضرب المنضدة وأصرخ، كأني أصبت بنوبة، ومع ذلك فقـد كنت أفهم حق الفهم أن في هذا العمل الحماقة بعينها.

- أنت لا تعرفينه يا ليزا... إنه جلّاد حقيقي.. إنه جلّادي لقد مـضى يشتري رقاقا وهو..

وفجأة جعلت أبكي وأنتحب... إنها نوبة! وأخجلني بكـائي ونحيبـي ولكني لم أتماسك... وأدركها الخوف وجعلت تدور حولي وهي تصرخ:

Twitter: @ketab_n

- ما بك؛ ما بك؟

وقلت في صوت خافت ضعيف:

- ماء... هاتي ماء..

وشعرت أنّي أستطيع في يسر وسهولة أن أستغني عن الماء وأن يكون صوتي عالياً، ولكني كنت أمثّل مهزلة وأسعى إلى الحفاظ على آداب اللباقة وما تقتضيه المناسبات.. والحقّ أن نوبتي العصبية كانت حقيقية.

وسقتني وهي تنظر إليّ نظرات شاردة! وجاء أبولون يحمل الشاي... وخُيِّلَ إليّ أن هذا الشاي العادي النثري ليس مناسباً بعد ما جرى واحمرّ وجهي خجلاً وتطلّعت ليزا إلى أبولون في ذعر، ومضى أبولون إلى غرفته. ولم يلتفت:

- أتحتقرينني يا ليزا؟

ونظرت إليها وأنا أرتجف في ارتقاب موقفها مني. وحنت رأسها مرتبكة ولم تستطع إلى الجواب سبيلاً.

وقلت لها غاضباً:

- اشربي الشاي.

كنت أنقم على نفسي، وكانت هي وحدها طبعاً الإنسان الوحيد الذي أستطيع أن أصبّ على رأسه جام هذه النقمة... وغلا في قلبي مرجل من الحقد عليها حقداً عنيفاً مخيفاً.. وخُيِّلَ إليّ عندئذ أني قادر على قتلها.. وأقسمت لكي أنتقم منها ألا أنطق بكلمة واحدة، يجب أن أظلّ صامتاً وقلت في نفسي: «أليست هي المسؤولة عن كل ما حدث؟».

ومرّت خمس دقائق من الصمت المطبق... الشاي على المنضدة

Twitter: @ketab_n

ونحن لا نشرب.. لن أشرب قبلها عامداً لأجعل موقفها أكثر تعقيداً وأشدّ حرجاً.. إنها لا تستطيع أن تشرب وتأكل وحدها.

وألقت عليّ نظرات فيها دهشة وفيها ألم. واعتصمت بصمتي العنيد. كنت أكثر منها ألماً، كنت أحسّ بأن في سلوكي هذا الناقم الغاضب حقارة ووحشية ودناءة بهيمية... وأن عليّ أن أبدّله، وأني لا أستطيع تبديله لأني لست مسيطراً على أعصابي.

- من هناك... أريد أن أرتحل نهائياً..

كانت تريد أن تقطع حبل الصمت بطريقة ما. يا لها من فتاة صغيرة مسكينة. كان ينبغي ألا تذكر «ذلك المحل» في لحظة مثل هذه، فيها ما فيها من حماقة وسخافة، وعند رجل مثلي لا يقلّ عن هذه اللحظة حمقاً وسخفاً. وضاق صدري إشفاقاً على هذا الطيش، وذلك الصدق الذي ليس من ورائه جدوى... وسرعان ما وثب إلى صدري شعور آخر قبيح كريه فقضى على ما كان يختلج فيه من عطف وإشفاق... ورأيتني أكثر نقمةً وأشدُّ غضباً - ليت العالم كله ينهار - ومضت دقائق خمس أخرى.

وعادت تقول لي في حياء وفي صوت لا يكاد يسمع، وهي تتزحزح لتقوم:

لعلّي أزعجتك؟!

ورأيتها تتحرّك لتقف وقد ثارت فيها كرامتها الجريح ففقدت سيطرتي على أعصابي فقداً تاماً وهأنذا أنفجر:

- قولي لي - إذا أمرت - لماذا جئت؟

كنت أعبّر عن فكرتي، ولا أستطيع ربط كلماتي ربطاً منطقياً، كنت

Twitter: @ketab_n

مرهقاً أريد أن أتخلّص من كل ما عندي من كلام دفعة واحدة... بل لم أعنَ بالبحث عن مطلع الكلام وفاتحته.

- لماذا جئت؟... قولي... أجيبي. مالك ساكتة؟ إذن فسأتولّى أنا الجواب عنك... لقد قلت لك في ذلك اليوم «كلمات أوحتها إليّ الشفقة عليك» وتأثرت بها فأردت اليوم أن تسمعي كلمات مثلها، ولكن عليك أن تعلمي، نعم إنّ عليك أن تعلمي أنّي إنّما كنت أسخر منك وأضحك عليك يومئذ... وهأنذا الآن أضحك عليك مرّة أخرى. مالي أراك تضطربين وترتجفين؟ نعم لقد سخرت منك... أهانني الناس عند المساء؛ أهانني أولئك الذين كانوا عندك في غرفتك قبل أن أزورك - ولقد جئت لأضرب منهم ذلك الضابط المصنوع من الجبس.. ولكني لم أجده ويا للأسف. ولقد كان عليّ عندئذ أن أصبّ جام غضبي على مخلوق ما، وأن أردّ الإهانة بالإهانة، وأن أستردّ ما كان لي من دين... ورأيتك هناك فصببت نقمتي على رأسك وسخرت منك وضحكت عليك.

لقد أهانني الناس فكان عليّ أن أهين واحداً من الناس فأنتقم منهم، عضّوني بأنيابهم كأنّي خرقة بالية فأردت أن أعضّ واحداً منهم وأظهر لهم أنّي قوي... هذه هي القصة من ألفها إلى يائها... وأنت تتوهّمين أني هرعت إليك عن عمد لكي أنقذ روحك، أليس كذلك؟ ألم تظنّي ذلك؟ قولي.

وعرفت أنها كانت ضائعة في بحران تفصيلات وجزئيات فرّ منها مغزاها، ولكنها رغم ذلك فهمت ما هو مهم وضروري. وأصبحت بيضاء كالثلج... وحاولت أن تتكلّم فلم تستطع: تقلّصت شفتاها تقلّصاً مرضياً،

Twitter: @ketab_n

وسقطت على كرسيها كأنما أصابتها ضربة فأس على أمّ رأسها. وبقيت المسكينة التعسة تصغي إليّ فاغرة الفم، زائغة النظرات يهزّها الخوف هزّاً... لقد سحقها ما في كلماتي من قحّةٍ وسفه.

- أنقذك؟!

وقفزت من مجلسي وجعلت أذرع الغرفة في خطىً واسعة:

- وممّ أنقذك؟ ولكنّي قد أكون أكثر منك سوءاً.. أخبريني لِمَ لَمْ تقولي لي، حين كنت ألقي عليك خطابي في ذلك المساء، لِمَ لَمْ ترميني على أمّ رأسي بهذه الكلمة يومئذ: «وأنت ما الذي جاء بك إلى هذا المحل؟ أجاءت بك الأخلاق إليه؟» كان يجب عليك أن تسأليني هذا السؤال، ولكنك خُدِعْتِ بي. وما الذي أردته منك؟ كنت في حاجة إلى أن أظهر أني ذو نفوذ، إلى أن ألهو بعض اللهو... فَأُبْكِيَ عينيك، وأُثِيرُ خجلك وأُصِيبَكِ بنوبة عصبية... ذلك ما كنت في حاجة إليه.. ولكني عجزت عن المضي إلى هدفي فأبلغ أقصاه... فلست ثابت الرأي مستقرّ السجايا... وهكذا خفت بعد أن بلغت المرحلة الأولى من غايتي، وأعطيتك عنواني كالأغبياء... ولِمَ أعطيتك هذا العنوان؟ الشيطان يعرف سبب ذلك.

وعدت إلى بيتي وأنا ألعنك لعنات لا تحصى من أجل هذا العنوان... لقد كرهتك لأني كذبت عليك ولأنك صدقت هذا الكذب... أنا أحب العبث بالألفاظ وأحب الأحلام في فكري، ولكني لا أريد في الواقع إلا أمراً واحداً: أن تذهبوا إلى جهنم جميعاً... أن يتخطّفكم إبليس جميعاً... أنا في حاجة إلى الراحة والهدوء... أنا أبيع العالم كله بكوبك واحد إذا تركني الناس هادئاً.. ولو سألوني: ماذا تريد؟ أتختار دمار الأرض، أو شرب هذا

Twitter: @ketab_n

الكأس من الشاي؟ لأجبت ولم أتردد لحظة واحدة: لتخرب الأرض شريطة أن أشرب كأس الشاي. أتعرفين هذا مني؟

حسناً.. أما أنا فأعرف أني سافل نذل أناني كسول... كان الخوف يقبض على عنقي ويخنقني طوال الأيام الثلاثة الماضية وأنا أفكّر في زيارتك لي. وأشدّ ما كان يزعجني أنّي بدوت في عينيك بطلاً من الأبطال وها أنت ذي ترينني الآن شحّاذاً شريداً ألبس مبذلاً ممزّقاً... قلت لك منذ دقائق أني لا أستحيي من فقري... ولقد كذبت... أنا أستحيي منه قبل كل شيء وأكثر من كل شيء. بل أنا أخاف الفقر أكثر مما أخاف السرقة... ذلك أني أظن دائماً، وأنا الأناني، أن الناس يسلخون جلدي وأنا حي، وأن خطرات النسيم تجرحني وتؤذيني. لن أغفر لك أبداً أنك رأيتني ألبس مثل هذا الثوب وأهجم على أبولون كأني كلب. نعم هذا هو المنقذ، هذا بطل الأمس يثب كالكلب على خادمه وخادمه يسخر منه... وهذه الدموع التي ذرفتها أمامك كالمرأة إذا قُبِضَ عليها متلبّسةً بعارها، لن أغفرها لك أبداً. وكيف أغفر لك اعترافاتي هذه التي تسمعينها الآن.. وعليك وحدك أن تتحمّلي وزر ما حدث لي... لأنك أنت التي وقعت تحت يدي.. ولأني سافل، دودة من ديدان الأرض، دودة هي أكثر ديدان الأرض شرّاً، وأشدّها سخفاً وحمقاً وبلادة ومع ذلك فهي أكثرها حسداً وغروراً. نعم إن الناس ليسوا خيراً مني، ولكنهم على كل حال لا يفقدون أعصابهم أبداً. أما أنا فما أزال أتلقّى الضربة تلو الضربة من كل خنزير ألقاه في طريقي.. تلك هي ميزتي... أنت لا تفهمين ما أقول، وما يهمني؟ سواء على فهمك وغباوتك.. سواء عليّ أن تموتي «هناك» أو تموتي في مكان غيره.. أأدركت

Twitter: @ketab_n

الآن مدى كرهي لك وبغضي إيّاك بعد أن رأيتني بعينيك وسمعتني بأذنيك؟.. إنّ الرجل لا يبوح بما في دخيلته ولا يفضح أسراره وخباياه، هكذا، مثلما فعلت إلا مرّةً واحدة طوال عمره، وهو لا يفعل ذلك أيضاً إلا إذا كان مريضاً في أعصابه... والآن ماذا تفعلين هنا بعد كلّ ما قلته لك؟ لماذا تزعجينني؟ لماذا لا تنصرفين؟

وفجأةً حدث أمر خارق للعادة.. أمر لم يكن في الحسبان. لقد تعوّدت أن أفكّر في الحياة تفكيراً كئيباً وأتصوّر الحوادث تصوّراً تخلقه الأحلام، فلا أفهم ما يحدث في الحياة ولا أدري ما يقع في الواقع. وهذا ما وقع الآن! فهمتني ليزا حقّ الفهم، وأدركت أمري إدراكاً لم أكن أتصوّره، واحتملت إهانتها صابرة راضية. لقد أدركت ما تدركه المرأة حين تكون ضحيّة حبٍّ صادق؛ أدركت أني أنا نفسي شقيّ بائس.

أما تلك الملامح التي بدت على وجهها في مطلع الحديث، ودلّت على ما في نفسها من خوف ومهانة، فسرعان ما تخلّت عنها، وفسحت الطريق إلى شعور بالدهشة المؤلمة والغرابة المريرة... ولم أكد أقول لها إني سافل نذل حقير وأنا أبكي أو أهمّ بالبكاء - فقد كانت عيناي مغرورقتين بالدموع - حتى تشنّجت تعابير وجهها تشنّجاً عنيفاً: أرادت أن تقوم وأن تمنعني من الكلام ثم هدأت واستقرّت. وعندما صرخت بها «لماذا لا تنصرفين؟» لم تكترث بكلامي.. لم تشعر طوال الحديث إلا بالألم الذي أملى عليّ تلك الكلمات، فيالها من صغيرة مسكينة. إنها هي أيضاً مخلوق إنساني نبذه الناس جميعاً، بل لعلّها هي أيضاً تعتقد أنها أكثر مني انحطاطاً. فكيف تستطيع أن تغضب وأن تُستَثار؟

Twitter: @ketab_n

وها هي ذي تقفز من كرسيها قفزاً وتندفع اندفاعاً لا سبيل إلى صدّه... وامتدّ كيانها كلّه نحوي ومع ذلك فلم تجرؤ على الدنوّ منّي ففتحت لي ذراعيها...

وأحسست قلبي يذوب.

وهرعت إليّ فضمّتني إلى صدرها في حنان وانفجرت تنتحب.. ولم أستطع المقاومة فاستسلمت إلى بكاء مرير ما أذكر أني بكيته أبداً. وجعلت أتمتم وأنا أبكي:

- لم أستطع أن أكون طيّباً... ولن يغفر الناس لي ذلك أبداً. وجررت قدميّ جرّاً إلى الديوان وارتميت فوقه وغمرت رأسي في وسادة من وسائده. وظللت أبكي وأنتحب ربع ساعة، وليزا إلى جانبي تطوّقني بذراعيها ساكنة هادئة.

وانقضت النوبة وكان لابدّ لها من أن تنقضي، وشعرت وأنا أطمر وجهي في وسادة الديوان أن هذه الوسادة الجلدية قذرة وسخة، وشعرت وأنا أحاول أن أرفع رأسي عنها شعوراً غامضاً بادئ ذي بدء، ثم شعوراً واضحاً تمام الوضوح، بمقدار ما في رفع رأسي والتطلّع إلى عيني ليزا من أمور مثيرة مزعجة، وعلامَ أخجل؟ لست أدري... ولكن الذي أعرفه أني كنت أذوب خجلاً... إذن فقد انقلبت الأمور رأساً على عقب وتغيّرت أدوار الممثلين... أما ليزا فقد أصبحت هي البطلة.. وأمّا أنا فقد أصبحت ذلك المخلوق المُحْتَقَرُ السحيق... ذلك المخلوق الذي كانته هي منذ أيام أربعة... يا الله ما أسرع ما يتغيّر الإنسان وتتطوّر الأحداث.

Twitter: @ketab_n

هكذا كنت أفكّر وأنا ما أزال مُلْقَىً على الديوان أطمر وجهي في وسادة من وسائده... آه يا رب كم أنا لها حاسد!

لست أدري: تلك مسألة عسيرة لم أجد لها حلاً في تلك الساعة... وأنا أشعر الآن أنها أكثر استعصاءً على الحل وعسراً بعد أن مضى على طرحها على بساط البحث خمس عشرة سنة: أنا لا أستطيع الحياة أبداً دون أن أفرض سلطتي على مخلوق، دون أن أطغى على إنسان وأستبدُّ به... ولكن مالي وللأحكام أستعرضها وهي لا تفسّر شيئاً... ومالي وللمحاكمات أشغل بها عقلي... إذن فدعونا منها.

عدت إلى صوابي ولمست من أمري ما كان مبعثراً ضائعاً ورفعت رأسي: لم أجد من ذلك بداً.

كنت أخجل من النظر إليها ومن أجل ذلك تولّد في نفسي شعور جديد لم يلبث أن تضرّم فملأ قلبي: إنه الشعور بالسيطرة... الشعور بالتملّك... ذلك هو الواقع الذي لا مراء فيه.

ولمعت عيناي بالشهوة وشددت على يدي ليزا شدّاً... أفّ كم أكرهها وكم أحسّ أني منجذب إليها!.. عاطفة تضاعف من عاطفة... ألا يكون ذلك انتقاماً؟

وبدت على وجهها سيماء الدهشة بل الذعر... ولكنها سرعان ما تغيّرت ملامحها، وها هي تضمّني إلى صدرها في فرح وفي حرارة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

وانقضى ربع ساعة... وشرعت أذرع الغرفة طولاً وعرضاً، وقد عيل صبري حتى كدت أجنّ... أقف في كل لحظة فأتطلّع إلى ليزا من وراء الحاجز فأراها جالسة على الأرض ورأسها يستند إلى السرير وكأنها تبكي... ويحها إنها ما تزال تجلس كأنها لا تعلم ما أنا فيه من ثورة... الآن عرفت كلّ شيء.. الآن أهنتها إهانة قاتلة ليس لها دواء، مكسورة ليس لها جبر.. ولكن مالي وللحديث عن هذا الموضوع؟

إني لأشعر أن اندفاعي الجنسي لم يكن إلا انتقاماً، لم يكن إلا إهانة لها جديدة. لقد انضمّ إلى حقدي العتيد على العالم كله كرهٌ شخصي كثير الحسد لها هي وحدها شخصياً... ولست أجرؤ فأقرر أنها أدركت ذلك إدراكاً واضحاً... ولكنها عرفت ولا شكّ مقدار ما أنا تافه حقير ومقدار ما أنا عاجز عن حبّها على الخصوص.

سيقول الناس: هذا أمر لا يُصَدّق.. يستحيل أن نجد إنساناً في مثل هذا الخبث وفي مثل هذه الغباوة! وسيقول آخرون: ليس في استطاعة مخلوق ألا يحب مثل هذه المرأة... أو على الأقل ألا يقدّر حبها.

ولكن لِمَ تقولون: إنّ ذلك مستحيل؟

أنا قبل كلّ شيء لا أقدر على الحب: الحب عندي - وأكرر ذلك -

Twitter: @ketab_n

معناه التعذيب والسيطرة.. السيطرة على الفكر والروح - والعاجز في الحب من لا يستبد -.. ولست أستطيع أن أتصوّر وجود نوع آخر من الحب. ولقد قادني ذلك إلى أن أعتقد أن الحبّ قائم على الحق الذي يهبه المحبوب طائعاً مختاراً لمن يحبّه في أن يسلك تجاهه سلوك الطغاة. وأنا لم أتمثّل هذه العاطفة في أحلامي السردابية إلا نضالاً أو أشبه شيء بالنضال. يبدأ بالكره وينتهي إلى العبودية. فكيف أستطيع بعد ذلك أن أتصوّر ما يمكن أن أفعله بالمخلوق الذي أصبح طوع أمري خاضعاً ذليلاً؟.. وهل من عجب في أني لمت ليزا بل أهنتها لأنها جاءت إلى بيتي تريد أن تسمع «كلمات الشفقة وعبارات الرثاء» ما دمت ذلك المخلوق الذي أفسده السرداب ولم يتعوّد «الحياة الحقيقية». لم أستطع أن أدرك أنها لم تأت لتسمع ألفاظ الشفقة هذه ولكنها جاءت لتحبني. نعم على الحب وحده يعتمد بعث المرأة وتطهّرها من كلّ دنس وتجدّدها الروحي.

ومع ذلك فقد كنت لا أكرهها كثيراً وأنا أذرع الغرفة وأتطلّع إليها من وراء الحاجز... ولكن بقاءها الآن، وبعد الذي حدث، هو الذي كان يثقل عليّ ويزعجني... أريد أن تروح... أريد «الهدوء»... أريد أن أبقى وحدي في سردابي. ألا إن هذه «الحياة الحقيقية» التي فقدت عادتها هي التي تخنقني الآن وتقطع أنفاسي. ومضت دقائق أخرى وليزا ماتزال جالسة لا تريم، وكأنّها غابت عمّا حولها من واقع... وأردت أن أذكّرها بهذا الواقع فقمت بعمل فظّ غليظ: نقرت على الحاجز في رفق... وسمعتني فانتفضت وقفزت قفزاً وتناولت منديلها وقبّعتها ومعطفها في سرعة... تريد أن تفرّ فراراً جازعة هلوعاً... تريد

Twitter: @ketab_n

أن تبتعد عني... ثم مضت في بطء وأناة من وراء الحاجز فألقت عليّ نظرة ثقيلة، وابتسمت لها ابتسامة خبيثة مصطنعة، ابتسامة مجاملة... ثم أدرت عنها وجهي.

وتمتمت وهي في طريقها إلى الباب:

- وداعاً.

وأسرعت إليها فجأةً... فأمسكت بيدها وفتحتها ودسست فيها شيئاً، وأغلقتها. وانقلبت على عقبي أريد أن أنجو بنفسي إلى ركن من الغرفة قصيّ، إلى مكان لا أراها فيه..

هنا. هنا. أردت أن أذكب فأكتب أني فعلت ما فعلته الآن مكرهاً رغم أنفي، تدفعني حماقتي، وأني كنت قد أضعت رشدي... ولكني أرفض كتابة هذه الأكاذيب، وأصرّح في صدق أني فتحت يدها وأعطيتها... يدفعني إلى ذلك خبث خالص مجرّد... لقد فكّرت في ذلك حين كنت أذرع الغرفة وليزا قابعة في زاويتها هادئة مستسلمة. لقد قمت بهذا العمل القاسي عامداً متعمّداً، ومع ذلك فأنا أقرّر أنه عمل لم يصدر عن القلب وإنما نبت في هذا الرأس المريض.. كان عملاً قاسياً مزيّفاً ذهنياً بليداً كئيباً أو سمّه ما شئت فأنا نفسي لم أستطع احتماله ففررت إلى ركن في الغرفة قصيّ أنجو بنفسي.. ثم إذا أنا أركض وراء ليزا وقد أعماني الخجل وسحقني اليأس.. فتحت باب الدهليز وأضحت بأذني أتسمّع.

وناديت من أعلى الدرج في صوت خافت وفي استحياء:

- ليزا!. ليزا!..

ولم يجبني إلا الصدى يهتف: - ليزا! ليزا...

Twitter: @ketab_n

وخُيّل إليّ أني أسمع وقع خطىً على الدرجات الأخيرة من السلّم، وصرخت في صوت أكثر قوة: - ليزا! ليزا...

ولم أتلقّ جواباً... وسمعت الباب الزجاجي على الشارع يُفْتَحُ في ثقل وهو يصرّ صريراً... ثم يُغْلَق في ضجة كبرى رنّت على الدرج رنيناً. إذن فقد ذهبت وعدت إلى غرفتي أفكّر وأحمل على قلبي عبئاً ثقيلاً...

وقفت إلى جانب المنضدة عند الكرسي الذي كانت تجلس عليه وتطلّعت إلى ما كان أمام عيني في بلاهة: ومضت دقيقة واحدة وإذا أنا أختلج... أمامي على المنضدة... نعم أمامي تلك الورقة المالية الزرقاء ذات الروبلات الخمسة... أمامي هذه الورقة المزّقة التي وضعتها في يدي ليزا نعم الورقة نفسها... لا يمكن أن تكون غيرها، فلست أملك غيرها. إذن فقد استطاعت أن تضعها على المنضدة أثناء فراري إلى الركن القصي من غرفتي.

ما هذا؟ لقد كان عليّ أن أفهم ما قامت به، وأن أفهم أنها لابدّ قائمة به... ولكن.. لقد كنت منقبضاً على نفسي انقباضاً، ومحترماً غيري احتراماً، بلغ من قوة الأول ومن ضآلة الثاني أني لم أستطع تصوّر هذه الحركة التي قامت بها ليزا. هذا أمر لا يُطاق.. ومرّت ثانية ثانية.. وإذا أنا ألبس ثيابي كالمجنون وألقي على جسدي ما يقع تحت يدي وأهبط السلّم راكضاً... من المؤكّد أنها لم تقطع أكثر من مائتي خطوة... حين وجدتني في الشارع. الصمت يرين على الكون.. والثلج يهطل غزيراً كثيفاً... عمودياً، وقد نسج على الرصيف وعلى الشارع المقفر بساطاً أبيض... ما من روح وما من نأمة... والمصابيح تبصبص في حزن وأسىً ولا تكاد تضيء... وسرت مائتي خطوة فلم أجد أحداً وبلغت المفرق فوقفت.

Twitter: @ketab_n

«إلى أين راحت؟ ولماذا أركض وراءها؟» لماذا!

أتراني أريد أن أركع على قدميها لأكفّر عن آثامي، ثم أقبّل هاتين القدمين، وأستغفرها وأستدرّ رحمتها وعطفها.

نعم إني لأريد ذلك. إنّ قلبي ليمزّقه الألم تمزيقاً، وأنا لما أزل غير قادر على إحياء ذكرى تلك الحادثة دون تأثّر.

ولكن ما وراء ذلك؟ ما نتيجة هذا الموقف؟

أليس حقدي عليها غداً سيكون أشدّ وأدهى لأني قبّلت اليوم قدميها؟ أأستطيع أن أسعدها؟ أخبروني لماذا لا أعرف للمرة المائة ماذا أريد؟ لماذا لا أدرك ما أرغب فيه؟ كلا... أنا لا أستطيع أن أحمل لها غير المهانة وغير العذاب. ذلك ما كنت أتصوّره وأنا واقف في الثلج أجهد عيني لأخترق بهما حجاب الضباب.

وعدت إلى بيتي تخنقني تأمّلات فيها قلق وفيها ألم، وأنا أقول في نفسي: «خير لها، خير لها حقاً أن تحمل معها إلى الأبد هذه الإهانة... وعلام أقول إنها إهانة وما هي إلا تطهير النفس من الدّنس وما هي إلا العودة إلى الشعور بالحياة شعوراً عنيفاً وأليماً... لولا هذه الإهانة اليوم لدنّست روحها غداً ولاعتصرت قلبها. إذن فلتبقَ هذه الإهانة حيّة خالدة في نفسها لا تموت، ومهما كان الطين الذي ينتظرها في الحياة قاسياً مرعباً كثير القذارة... فإن إهانتها سترفعها رفعاً وستطهّرها تطهيراً.. في نار الحقد... أو في جنّة الغفران... ولعلّ حياتها أن تكون بها أكثر يسراً وأقلّ عسراً!؟

وهأنذا في هذه المناسبة أطرح هذا السؤال ولا أرى له نفعاً: ماذا

Twitter: @ketab_n

نفضّل؟ أنفضّل السعادة القريبة اليسيرة أم نفضّل الألم الرفيع السامي؟ أجيبوني: أيّهما أفضل؟

هكذا كانت تأمّلاتي وأنا في بيتي مستريح محزون النفس، مساء ذلك اليوم العصيب، أنا لم أشعر قط بمثل هذا الندم ولا بمثل هذا الألم... ومع ذلك فقد كنت على يقين وأنا أهرع وراء ليزا أني سأعود أدراجي إلى بيتي في سرعة ناكصاً على عقبي...

ولم ألقَ ليزا بعد ذلك... ولم أسمع عنها شيئاً... وظللت بعد تلك الحادثة أمداً طويلاً وأنا مؤمن بتلك «الحكمة» التي تتعلّق بها في الإهانة والحقد من فائدة... رغم أني كدت أقع فريسة المرض همّاً وكدراً..

وهأنذا اليوم.. بعد تلك السنوات الطويلة.. لا أزال أرى في ذكريات هذه الحوادث ما يعذّبني وما يشقّ على نفسي... وهناك أمور مؤلمة كثيرة تصدر الآن فتملأ ذاكرتي تريد أن أسجّلها، تريد أن أهب لها الحياة على صفحات هذه الأوراق، ولكن أما آن لي أن أنتهي الآن من «ذكرياتي»؟ بل إني لأظنّ أنّي أخطأت حين شرعت في كتابتها: بل إنّي لم أزل منذ كتبت السطر الأول منها وأنا أخجل من نفسي..

لم تكن هذه القصة أثراً أدبيّاً، ولكنها تكفير عن ذنب وتقويم لعوج، وما الفائدة من تأليف روايات طويلة أصف فيها كيف أضعت حياتي لأني مصاب بتفسّخ أخلاقي وانحلال نفسي، لأن البيئة التي عشت فيها فاسدة، لأنّي لم أتعوّد «الحياة» لأني تقتلني الحقد والغيظ وأنا قابع في سردابي.

إن للرواية «بطلاً» أما أنا هنا في روايتي هذه فأمثّل عمداً كلّ ما في «نقيض البطل» من صفات. والمهم عندي أن تحدث هذه الصفحات في

Twitter: @ketab_n

نفوس الناس أثراً سيئاً، لأننا جميعاً قد أضعنا عادة الحياة، لأننا جميعاً نعرج عرجاً يسيراً أو غير يسير..

نعم لقد أضعنا عادة الحياة حتى أصبحنا لا نطيق أن يذكّرنا الناس بها. بل لقد بلغنا حدّاً نكاد نَعْتَبِرُ فيه «الحياة الحيّة» تجربة قاسية وعملاً من الأعمال الشاقة.

نعم نحن جميعاً متّفقون على أن من الخير لنا أن نقرأ هذه «الحياة الحيّة» في كتاب لا أن نعيشها على أرض. لِمَ هذا القلق؟ وعلامَ هذا الجنون؟ ماذا نريد؟ وإلامَ نسعى؟ كل ذلك نجهله ولا نعرفه. ولو أن صلواتنا المجنونة ودعواتنا الحمقى تحقّقت لكنّا أوّل من يشفق منها ويأسف على تحقيقها.

جرّبوا إذن: أعطونا قليلاً من الحريّة، فكّوا أغلال أيدينا، وسّعوا مجالي نشاطنا، كفّوا عن الوصاية علينا. وها نحن أولئك - وأقسم لكم على ذلك - نعود إليكم ونطلب وصايتكم... أوه ها أنتم هؤلاء تصرخون في وجهي، وتغضبون عليّ وتضربون الأرض بأقدامكم، وتصرخون:

- دع عنك أمرنا وتحدّث عن نفسك.. تحدّث عن شقائك في السرداب، ولكن لا تقل: نحن جميعاً.

عفوكم يا سادتي، فلست أحاول أن أجد لي مبرّراً حين أقول: نحن جميعاً. كلّ ما في الأمر أنّي أنا وحدي دفعت في حياتي إلى أقصى حدود ما لا تجسرون أنتم جميعاً على دفعه إلى منتصف الطريق.. وهكذا فأنتم تسمّون نذالتكم حكمة وجبنكم عقلاً، وتعزّون أنفسكم حين تخدعونها عن أنفسها، وتحولون بينها وبين حقيقتها أمّا أنا فأكثر حياةً منكم.

Twitter: @ketab_n

أوغِلوا قليلاً في أعماق الأمور واسبروا أغوارها.. نحن نجهل اليوم أين يحيا «الحي» وماذا يمثّل؟ وما اسمه الذي يدعى به نحن نجهله إلى درجة بعيدة لو تركنا فيها إلى أنفسنا لا إلى كتاب لمشينا في دياجير الحياة كالعميان ولضعنا في تيه ليس له قرار. نحن لا نعرف أين ترتطم بنا سفينة الحياة؟ وبِمَ نتشبّث إذا غرقت؟ وما يجب أن نحب؟ وماذا يجب أن نكره؟ ومن نحترم، ومن نحتقر، بل إنّا لَيُخَيَّل إلينا أنّ من العسير علينا أن نكون رجالاً من هؤلاء الذين لهم «جسد حقيقي شخصي يجري فيه دم ذاتي». إنّا لنخجل من هذا الجسد ونعدّه وصمة عار، ونرجو أن نكون ما لا أعرف من أنواع «المخلوقات العمومية». نحن أموات - بالفطرة. والحقّ أننا منذ عهود بعيدة لم يلدنا آباء لنا يحبّون الحياة الحيّة الحقيقيّة؛ ونحن عن ذلك راضون وبه قانعون، بل نحن نتذوّقه ونلذّ طعمه. وستمضي أيام أُخَر فنخترع آنّا إنما خلقتنا الفكرة وحدها... كفى... لست أريد أن أكتب عن «سردابي» شيئاً جديداً ومع ذلك، فإن صاحبنا هذا الذي يحبّ النقائض لم ينته هنا من مذكّراته.. لم يستطع مقاومة رغبته في الكتابة.. وها هو ذا يمسك بقلمه ولكن! يخيّل إلينا الآن حقاً أن علينا أن نفرغ من هذه المذكّرات...

Twitter: @ketab_n

فهرس

تمهيد 7

في سردابي 13

ثلج يذوب 71

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب...

«بطل» هذا الكتاب إنساناً قابعاً في سردابه يلعن النور ويبارك الظلام، وينكر سعي الإنسان نحو عالم أفضل ويمجّد استمراره في حياته العفنة وعالمه القذر، ويشكّ في الخير ويؤمن بالشر.

دوستويفسكي الذي قضى عشر سنوات في منفاه في سيبيريا والذي كاد يُعْدَمُ ثم نجا من الموت قبل الموت بلحظات، هذا الكاتب العظيم الذي أحبَّ الحرية السياسية في شبابه وناضل من أجلها في فجر حياته سرعان ما انقلب على هذه الحرية لا ليكون لها عدواً فحسب بل ليشكك الناس في أمرها ويدعوهم إلى الكفر بها والسخرية منها، ويدفعهم إلى فردية جامحة شاذة. وهو في «سردابه» هذا يعرض آراءه في الحياة والموت، والخير والشر والحرب والسلام، يعرضها عرضاً فنياً رائعاً، وهو يتكهن في كتابه بالثورة الروسية التي بدت طلائعها في الأفق تخبّ خبباً، فَتُخيفُ أعداء الحرية فينجحرون في سراديبهم، ويخدعون أنفسهم فيقولون: إنها ليست إلا وهماً وباطلاً وقبض الريح، ثم يكبّون على مناضدهم مذعورين خائفين يكتبون الكتب في هجائها، ويستبشر بها أبناء الحرية فيبرزون من مناجمهم ثائرين، وينصبون ظهورهم من فوق محاريثهم غاضبين، ويتطلعون إليها فرحين مستبشرين ويقولون: إنها الوعد الحق وصدق المرسلون؛ إنها قبض التراب ملء الكف ثم يفتحون صدورهم إليها ويُغنّون أناشيدها.

9 789933 536275

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

nwf.com
نيل وفرات.كوم